رواية
III ثلاثية اليهود
دار العين للنشر
فريق
متميزون
E-BOOK
كمال رحيم
أحلام العودة
KAMAL RUHAYYIM
DREAMS OF COMING HOME
NOVEL

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أحلام العودة

ثلاثية اليهود (٣)

-الأخير-

كمال رحيم

عن الرواية..

الرواية هي الجزء الأخير من ثلاثية الروائي كمال رحيم بعد صدور رواية أيام الشتات باللغة العربية والترجمة الإنجليزية والألمانية، و يعد كمال رحيم واحدا من أهم المبدعين والروائيين المتميزين والذين تركوا بصمتهم خلال السنوات الأخيرة فوق خارطة الرواية العربية، أحلام العودة هي رواية تتمم مشروعا أدبيا هاما شرع فيه الروائي منذ عدة سنوات تدور أحداث الرواية حول طفل اسمه "جلال" ولد فى منتصف القرن الماضي بأحد أحياء القاهرة القديمة لأب مسلم وأم يهودية، مات أبوه فى حرب السويس سنة 1956 والطفل لا يزال فى رحم أمه، فتولت عائلة أمه اليهودية إعالته وتربيته، فيعيش حالة صراع بين اليهودية التي يعتنقها أهل أمه والإسلام الذى يدين هو به.

وهذه الرواية هى الجزء الأول من ملحمة لسيرة ذاتية تتناول حياة هذا الفتى "جلال" فى ثلاثة أجزاء، الجزء الثاني هو "أيام الشتات"، ويصدر الجزء الثالث بداية العام المقبل.

يحكي الجزء الثان عن الشتات المادي والمعنوي الذي عاناه جلال, بطل العمل, وكل من أفراد أسرته, بدرجة أو بأخرى أو بسبب أو لآخر, منذ أن بدت لهم فكرة الرحيل عن مصر.

يبدأ جلال في الكد لكسب العيش، فتسوقه الأحداث للارتباط برجل لبناني ويعملان في تجارة الملابس، إلى أن يقع أمران هامان في مصر، هما زيارة الرئيس السادات للقدس وحادثة اغتياله.. وقد كان لهما أثر كبير في إظهار حقيقة نفسه نحو وطنه، والتي بدت في حواراته ونقاشاته الساخنة مع هؤلاء المهاجرين، فضلاً عما لاحظه من أثر هذين الأمرين على الجالية اليهودية التي ظن بعض أفرادها وأولهم جده أن المشكلة حلت، وأنهم عائدون إلى مصر.

ولقد أثر موت الجد في جلال تأثيراً كبيراً، فقد اكتشف أنه عاد يتيماً إذ كان هذا الرجل المتسامح بمثابة الأب والأم في آن واحد، بل وبدا له وكأنه كان الملاذ والوطن الذي يحتمي به في غربته، وبعد موته لم يعد له من سبيل إلا الرجوع إلى مصر بعد أعوام طوال قضاها غريباً في فرنسا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

أقلني التاكسي من المطار إلى شقة جدي القديمة بحي الظاهر..

الرصيف تآكلت حوافه وهبط بعضه على شكل فجوات، وباب العمارة كأنما انحنت قوائمه وعلى وشك السقوط، والعمارة ذاتها أشبه برجل مريض، بانت بطانة الطلاء في أكثر من موضع، وثمة شرخ في الأعلى بحذاء الدور الرابع ينزل متعرجًا على الجدار، والنوافذ وأبواب الشرفات تبدو عارية إلا من بقايا طلائها القديم.

وزاد ألمي عندما لم أعثر على شقة الدور الأرضي، شقة الأستاذ قاسم وزوجته الحاجة سماح..

طالما وقفا بالنافذة يتطلعان، هو عابس وشعره الأبيض نافر بغير اتساق، وهي باسمة وجهها مريح ولا تكف عن الكلام دون أن تلقى منه إلا إيماءة رأس أو بضع كلمات.

لم تكن تخلو من أشياءَ للصغار، حبة كراملة، باكو بسكوت، أو قطعة حلوى ملفوفة في ورقة سيلوفان. تشير لي بأن أقترب. يعتريني الحياء وأقف مترددًا. ومرة بعد مرة أُلِفْتُ وجهها، وكنت أتلكأ قبالتها عسى أن تناديني. تشعر بما أفعل، ولا تكتفي بالإشارة تنادي عليَّ باسمي، ولا تنسى الحلوى تعطيني منها وتسألني عن صحة الجدة والجد، ويرمقني هو دون كلام ثم يسألها من أكون؟

تجيبه؛ فيرنو إليَّ وأشعر بأنه على وشك الابتسام، غير أنه لا يكمل يدعني ناظرًا إلى الأمام.

في كل مرة يسأل نفس السؤال، ويلقى هو هو الجواب..

وقبل أن أنصرف تسألني هي بلين أن أشتري لها مشط كبريت أو باكو شاي من البقال، أو إلى العطارة القريبة أبتاع لها حبة مستكة أو ربع رطل كمون. أروح وأجيء كما الريح. يتابعني وأنا أسلمها المطلوب وباقي الحساب، وشيئًا فشيئًا امتد بيننا حبل الوصال وأخذ يربت على رأسي ويفعل مثلما تفعل زوجته، يمد يده إلى جيب الروب الذي يرتديه ويُخْرج لي قطعة حلوى ثانية، ويسألني باهتمام عن صحة الجد.

راحا من الشقة..

راحا وراحت معهما الشقة، صارت خلقًا آخر شركة ربما أو مخزنًا..

سدوا النافذة التي كانا يطلان منها بالإسمنت وقوالب الطوب، وفتحوا لها بابًا يطل على الرصيف أناس تدخل وتخرج منه بلفافات وكراتين، وقطع الملاعين الشجرة التي كانت بمدخل البيت، جعلوا موضعها مركنًا لسيارتهم النصف نقل التي تحمل اسمهم (أولاد الجحش لتجارة البويات ومواد البناء).

ولمحت رجلًا في حجم البقرة، متربعًا على دكة عم إدريس بوابنا القديم.

سحنة العياذ بالله! وجسد هائل في جلباب تفتَّق نسيجه عند المنَحْرِ والأكتاف، وكانت إحدى ساقيه مطوية بين ثنايا الجلباب والأخرى تتدلى ملفتة بضخامتها، وفَرْدتَا شبشب إحداهما ملقاة على مسافة منه وتوارت الأخرى أسفل الدكة.

خمنت أنه البواب الجديد..

لم يخفَّ لنجدتي وأنا أجادل سائق التاكسي قبل لحظة أو حتى انتبه لقدومي، كان ملهوًا في النوم وعمامته تسبقه كلما أطرق برأسه.

غَشِيهُ النعاس، عيناه مزمومتان وفمه مفتوح فتحة كئيبة، ويلهث ببطء غير واعٍ للذبابة التي حطت على أنفه أو لأختها التي تحوم حول فوهة قدح الشاي الذي بجواره وفرغ نصفه. وعندما درت بعيني نحو محل عصير القصب المواجه لباب العمارة لم أجده هو الآخر، استبدلوا به محلًّا للكاسيت وشرائط الڤيديو يقف أمامه ثلة من الشباب، والشارع الذي أعرفه قل عليه: يا رحمن يا رحيم، وكأن شياطينَ لا بشرًا استباحوه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حملت حقائبي، واحدة باليد وأخرى معلقة بكتفي ناهيك عن البلوة التي أجرها باليد الثانية، وما كدت ألج باب العمارة حتى جاءني صوت البواب:

- على فين يا أستاذ؟

ولم يدع لي الفرصة كي أجيب، لحقني بصوته المستفز:

- إنت يا فندي ياللي واخد في وشك كده وداخل!

التفت لأجده قد خلع العمامة، ووضعها في حجره، عمامة من العمائم الكبار التي يضعونها على رؤوسهم في جوف الصعيد، ولو فردناها لصارت في حجم قلع المركب، ويرمقني دَهِشًا وقدماه تتحسسان الأرض بحثًا عن الشبشب، ولما فشلتا عاد بمنكبيه إلى الوراء.

ترحمت على عم إدريس الرجل النوبي الذي طالما ملأ عمارتنا حركة وحياة، يدخل ويخرج ويصعد ويهبط، الابتسامة على شفتيه ومقشته مائلة على أي

جدار بالمنور وعيناها مفتوحتان لأي ذرة غبار يقذف بها الريح، وهذا الجاموس الكبير الذي يطالعني الآن، يرشف من قدح الشاي منتظرًا قدومي عليه.

دنوت منه، رائحته يا ستار يا رب! وأنا عاجز عن حماية أنفي، فيداي مشغولتان بكل هذه الأحمال.

- إنت البواب الجديد؟

فرد بضجر:

- جديد إيه يا فندي! دا أنا بقالي هنا سبع سنين، إنت اللي مين ورايح على فين؟

السؤال بسيط غير أن إجابته تطول، فقلت:

- أنا طالع عند أم حسن.

- أم حسن اللي في التالت؟

فأومأت برأسي.

- دي بقالها يومين عند جماعة قرايبها في العباسية والشقة مقفولة.

- معايا المفتاح، ما هو أنا صاحب الشقة.

فمال برأسه نحوي متفرسًا:

- صاحب الشقة! هو إنت من سكانها الأولنيين؟

- أيوه..

- الجماعة اللي غايبين في بلاد برة؟

- أيوه..

- الجماعة ال..

- أيوه الجماعة ال..

فلمعت عيناه:

- تكونش إنت جلال!

وكانت قدماه قد تمكنتا من العثور على الشبشب، فدسهما فيه وقام يحمل عني الحقائب:

- دا بيقولوا إنك هاجج من هنا بقالك عشر سنين وللا أكتر!

لم أعلق، سألته عن عم إدريس (البواب القديم)؟

- تعيش إنت.

- ومراته الست شوق؟

- العلم عند الله.

وبدأ في التمطُّط فأخذت خطوة إلى الوراء محتاطًا، وأقسمت عليه بالله أن يعيد لي الحقيبة التي أخذها من يدي ويعود إلى دكته سالمًا فأنا أعرف طريقي.

- مش كتّ تخلّي عمك بشندي يوصلك لحد فوق؟

لم أُجِبْ، دسست في يده ورقة بعشرة دولارات فتأملها بفرحة:

- دورر!

تركته مشغولًا بإخفاء الورقة النقدية بين ثنايا عمامته، وأنا أترحم على عم إدريس الذي لم يكن يعرف سوى الربع جنيه وأن عبد الناصر زعيم العروبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

اجتزت الباب ونادية تحلق في خاطري..

نادية بنت الجيران..

كانت قادمة من المدرسة يومها، وأنا أهبط من أعلى مسرعًا.. التقينا هنا.. في هذه الردهة التي تفصل الباب عن أول الدَّرج.

كنت شيطانًا أيامها، ولم أهبط الدَّرج ولا مرة مثلما يفعل الناس، وإنما ثلاث في ثلاث. لم أملك نفسي ساعتها، دفعتها بكتفي وأنا في القفزة الأخيرة وكانت هي تدلف من الباب، سقطت منها أشياؤها وتساندت عليَّ وآهة خافتة تنِدّ عنها، وهبطنا معًا إلى الأرض أنفاسنا تتلاحق ونلملم الذي وقع. أسدلت رموشها بعدها تداري خجلها وأنا أدنو منها مسلِّمًا، غير أنها تركت كفها طيِّعةً في يدي، ولما تركتني لبثت واقفًا أرمقها وهي تصعد إلى أن واراها الدَّرج.

وعلى باب شقة أبو السعد أفندي هذه، طالما طرقت بأصابعي كلما حار فهمي في درس من دروس التاريخ..

يلقاني بشوشًا مرحبًا ويتقدمني إلى غرفة الجلوس، عيناه من أعلى النظارة المتدلية على أنفه ترمقانني، وأنا أضع إصبعي على الشيء الذي استعصى عليَّ فهمه، ثم يعود بجذعه إلى الوراء متبسمًا:

- إيه ده يا جلجل! هو في حد يتلخبط في (أحمس) يا ابن الحلال، إتلخبط في أي واحد إلا الراجل ده، دا فرعون من الفراعين الكبار، دا هو دا اللي طرد الهكسوس.

وينتبه إلى أنه لم يضيِّفني بشيء، فيتوقف مناديًا الخادمة:

- يا بت يا سعدية، هاتي يا بت قزازتين إسباتس من التلاجة قوام.

ويعود إليَّ:

- هما اتنين يا ابني اللي ملهمش مثيل، أحمس وعبد الناصر..

وينسى ما جئت من أجله مُطلِقًا لسانه في الحديث عن عبد الناصر، وعندما ألفت نظره يقول:

- آه. آه. يا سبحان الله خدنا الكلام، نرجع بقى لعمنا أحمس بص يا سيدي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاث درجات وأصل لشقة أم حسن القديمة..

الشقة مضاءة وصياح صبية، وأشياءُ يتقاذفونها تبدو خيالاتها من وراء شراعة الباب.

لعلك جالس الآن يا حسن على أي مقعد تحسو من قدح شاي، أو ملهوّ بلفافة تبغ والدنيا من حولك (سداح مداح) كما هي عادتك.

انفردت بالشقة يا إبليس بعد أن مات البابا وضجرت منك الماما، فتركتك وصعدت لتقيم في شقتنا.

جلال!!

أفق وأمسك بزمام لسانك يا بن الناس، فالماما والبابا لا تقال هنا، تقولها عندما تكون في باريس بين أهل أمك اليهود..

وأنت يا حسن: صحيح أنك أخي في الرضاع ورفيق طفولتي وصباي، وكم بَرَت درجات هذا السلم كعَبيْ حذاءينا ونحن نصعد ونهبط عليه معًا، أو عندما كنا ندخل في سباق لنرى مَنْ منا يصل إلى السطح قبل أخيه، غير أني لا أود لقياك الآن.. الآن بالذات.. فأنا في لحظة زمن ليست ككل اللحظات، لحظة تخصني! تخصني وحدي ولا مكان فيها لدخيل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

درجة سلم وعند الثانية تصل إلى شقتك يا جلال..

هنا أول شهيق.. وأول زفير.. أول بكاء.. أول بسمة.. أول ضحكة.. أول كل شيء..

نبتة بنت شهور مسجاة في لفة وقماط..

لا حيلة لها أو تملك شيئًا من أمر نفسها..

أستكين في حجر أمي متعلقًا بريحها ونبرة صوتها، أروح كلي فيها، كلي كلي في حضنها وكأنما نبض قلبها لي كما هو لها..

وتتناولني الأيدي..

جدي زكي الذي يغلب حنوه على دهشته وأنا ألف كفي حول إصبعه، جدتي إيڤون، خالي شمعون، خالتي بيلا، وجارتنا أم حسن التي أرخت لي ثديها عوضًا عن أمي التي جف منها الحليب.

هنا ولدت وكبرت.. ولعبت وأحببت، ورحلت وأُبْتُ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحسست القضبان الحديدية لشراعة الباب..

رطبة.. باردة..

لا دفء يخرج منها أو يأتيها..

ذرات صدأ عند قيعانها، وهاماتها التي على شكل قلوب راحت واحدة ومالت الثانية على أخواتها والباقيات كلحت حوافها، ولا أعرف لماذا تبدو لي الشراعة ذاتها أقل حجمًا مما كنت أظن..

والخدش الذي أحدثته ذات يوم عند مفصل الباب..

وأمي تقبل عليَّ مسرعة وأنا أتلكأ في عقد رباط الحذاء، تصيح فيَّ بغضب وتدفعني بيدها كي ألحق بجرس المدرسة، وجدي الذي خرج لتوِّه من الحمام يسألها الرفق بي..

مشوار طالما كلت منه قدماي..

هيكل صغير، شيء أشبه بميكي ماوس يحمل حقيبة على ظهره، وشارع في شارع وزقاق في زقاق، ونسمة البكور لا ترحم.. تلدغ عنقي وأذنيَّ، ترشقني بغير هوادة، وفمي يدفع بخارًا دافئًا في كفيَّ اللتين تستجيران.

فناء وطابور وعلم يرفرف..

وحجرة يضعوننا فيها كما الدجاج على جدارها سبورة كثوب العفريت، وحضرة الناظر ببذلة سفاري وحذاء كئيب، ومدرس الألعاب الذي نعمل ألف حساب لعصاه..

وصغار البعض يتثاءب ومن يبكي أو يهيم في أمه التي بالبيت، ولعب ومشاجرات بالأيدي والمساطر والكراريس.

والدنيا كأنها حبست أنفاسها..

الدَّرجُ ساكن لا أحد يصعد أو يهبط عليه، والجدران صامتة، وباب الشقة يرنو إليَّ.

هو أول من عرفني..

يسألني أن أدلف منه..

أن ألقى الباقين: البساط، الصوان، الفراش حيث كنت أنام، الطاولة التي كنت أجلس أمامها وفي يدي كراسة أو كتاب..

ينظـر وأنا الآخـر أنظـر..

يسـأل وأنا الآخـر أسأل، غير أن كلًّا منا لا يملك للآخر جوابًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

كل شيء كما تركناه..

فروة الغنم المبسوطة أمام غرفة جدي، ماكينة الخياطة، والرقعتان اللتان على الطرف الأيسر للكليم..

كثيرًا ما هبطت جدتي إيڤون إلى الأرض تتحسس نسيجهما المنسول وترمق جدي بنظرات عاتبة، مرات عديدة وهي تطلب منه شراء كليمًا جديدًا وهو يتهرب، الحالة صعبة وليس معه ما يكفي، هذا الذي كان يقوله لها..

النظارة تملأ نصف وجهها وبين أصابعها إبرة طويلة وشلة خيط، غير أنها ومنذ أن طعنت في السن لم تفلح ولا مرة في رتق شيء على نحوه الصحيح، أو حتى لضم الإبرة بالخيط. تمد يدها بهما إلى جدي فيشيح بوجهه، نظره ضعيف هو الآخر ويقرأ الجرائد بصعوبة، وتأتي أمي وتعافر غير أنها تفشل، فأتقدم أنا وأفعل لها ما تريد في غمضة عين. أشعر بالزهو وأتوقع أن تربت على كتفي أو تقول لي كلمة امتنان، لا تفعل، تدير ظهرها إليَّ وتنكب بالإبرة على الكليم.

وعلى هذه الكنبة كان يجلس جدي وفي يده مجلة أو كتاب، جلسته ملفتة، يتربع كالشيوخ الذين يتربعون عند قرائة القرآن، وإطار نظارته لونه غير مستحب، من زمن وهي على عينيه، أفنتها ملوحة العرق ولفح الشمس، خاصة عند أول الذراعين والمَوَاطن التي تركن فيها على الأنف والمقلتين.

تبدو لي عيناه من وراء العدسات ناعستين متعبتين، وأحس مرات كثيرة بأنه لم يكن يقرأ، فصفحة المجلة أو الكتاب تظل أمامه طويلًا وعيناه قبالتها مفتوحتان. وعندما يرخي جفنيه حتى آخرهما يتأكد حدسي، يفلت منه ما يقرأ ويسكن في حجره، يفلت دون أن يشعر أو يحس، جدتي هي التي تلاحظ وتحثه على ترك الكنبة والتوجه إلى الفراش إلى أن يحين موعد الغداء، فيبدي دهشته مما تقول ويصر على أنه لم يكن نائمًا، ثم يرفع ما كان يقرأ فيه ثانية أمام عينيه.

كان يقضي يوم الإجازة كله بالبيت كأغلب الناس في شارعنا، يقرأ أي شيء أو يقلب محطات التلفاز ولم تفارق لفافات التبغ أصابعه. علبة سجائر ماركة (بلمونت) إلى جواره حيثما جلس يعلوها مشط كبريت، دون أن ينتبه ولو مرة واحدة لرمادها الهش الذي يزداد، وعند أول حركة ليده كان يسقط فوق ثيابه على شكل ذرات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحم الله جدي..

فطالما تعلقت به كلما رأيته خارجًا، وإذا عرفت أنه متوجه إلى قهوة أبي عوف بالذات يزداد إلحاحي.

يضع ذراعه على كتفي ونمضي..

مركبات يحمل أغلبها علامة شركة النصر للسيارات، دراجات هوائية هيكلها من الحديد وقادرة على حمل رجلين ومعهما حقيبة عند اللزوم، ملصق لفيلم الناصر صلاح الدين، وآخر لمشروب (كينا روماني الحديدية) الذي يبث الطاقة ويقوِّي العضل. ولم يكن يخلو الحال من أشياء تذكِّرنا بالزعيم، صورة معلقة على أحد الجدران، أو خطاب على الهواء يأتي من مذياع قريب.

لا أنشغل بشيء من كل هذا..

تجذبني فقط صغائر الأشياء، قطة تتمدد بحذاء جدار، لعبة تشد البصر تبرز من واجهة دكان، ولد في مثل سني يمضي بصحبة أمه فنتبادل النظر، أو صغار يدحرجون لبعضهم البعض كرات البلي المشللة بالأسود والأخضر وتبدو كالعيون.

ونصل إلى باب المقهى..

أرمق جدي وهو يدقق في الجالسين بحثًا عن صاحبه الحاج محمود العطار زوج أم حسن، سرعان ما يلمح أحدهما الآخر ويتجهان معًا صوب طاولة بزاوية المقهى، وأنا في ذيلهما تاركًا أنفي يشتمُّ عباءة الحاج محمود التي يفوح منها عطر له رائحة البَخُور. يتأهبان للجلوس على مقعدين متقابلين، وأثناء ذلك يخلع الحاج محمود عباءته ويطويها على ظهر المقعد الذي أنوي الجلوس عليه. يبدآن بالقهوة السادة حيث كان جدي يقبض على الفنجان كما الناس، أما هو فيمسك به من أذنه مباعدًا ما بين أصابعه، وكنت ساعتها أتأمل كُمَّ جلبابه البلدي الواسع وخاتم فضي بفص أزرق يلف إصبعه.

تأتي لهما النارجيلة..

فيبدو عليهما الرضا، برهة ويتطاير دخانها في سحابات كثيفة أتابع تموجها في الهواء. يرمقني الجد بين الحين والحين بطرف عينه، وعندما يلحظ أن سحابات الدخان تكاثرت حولي يهشها بكفه أو يشير لي بأن أغير جلستي.

لا أنشغل عنهما إلا إذا لمحت الرجل العجوز ذا اللحية المدببة والبيريه، فطالما شاهدته يجلس وحيدًا على منضدة بجوف المقهى يرسم بقلم غليظ، ولا يكف عن الكلام مع نفسه والناس تتحاشاه. لا يأخذني منه إلا صاحب المريلة

البيضاء عندما يغدو أمامي بأقداح القهوة والشاي وباقي الطلبات، خاصة عندما يصيح على الرجل الواقف على النصبة بنداءات ممطوطة منغمة، كانت تبدو لأذنيَّ الصغيرتين أيامها وكأن لها نكهة هي الأخرى كنكهة المشروبات. قد يسيل لعابي على سائل أحمر في كوب شفيف يرشف منه أحد الجالسين، ينتبه الجد وينادي طالبًا لي واحدًا مثله، وتأخذني الدهشة عندما يفرد هو والحاج محمود خشبة الطاولة، وتحيلهما سخونة اللعب إلى ديكة تتناقر.

هذا المقهى بالذات كان أثيرًا لدى جدي، يعرف ناسه ويرتاح فيه..

لم ينقطع عنه إلا عندما نشبت حرب سبعة وستين، وتجهم كل الناس من الصدمة واعتراهم الذهول كأنه يوم الدين. غلب عليه طبعه الحَذِر فلزم البيت، اكتفى بالجلوس في الشرفة يتابع الذي جرى من مذياع صغير، دون أن يخطو خطوة واحدة نحو المقهى يشارك روادها الملتفين حول مذياعها الكبير.

كان حزنه حزنهم وكربه كربهم، غير أنه شعر بأنه إذا اختلط وقال فقوله مجروح وأيًا كان ما يبوح به فبوحه قابل للتأويل، وقد يتعرض له بكلمة أو سوء بعض الجهَّال ممن يخلطون الأمور ويُدْخلون هذا في ذاك، حتى أمي وجدتي انقطعتا هما الأخريان عن الخروج، كنت وحدي الذي أدخل وأخرج وآتي بالأخبار..

وشعر به الحاج محمود..

ومن حبه فيه أحاط به وهون عليه، وطالما قال له: لا تأخذك الوساوس هكذا يا أبا إيزاك! فأنت منا وهم صهاينة كلاب، وأخذه من يده ونزلا إلى المقهى حيث التقاه الناس كالمعتاد، ظنوا أن غيابه لسفر ربما أو مرض أو لشاغل شغله، لا أكثر ولا أقل! وهو يبادلهم الكلام، ويلوم نفسه التي أغرقته شهرًا بطوله في التحسب والأوهام..

رحم الله جدي..

كان غلبانًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

لم تبدل أم حسن شيئًا في البيت..

حتى صورة الجد لا تزال معلقة في إطارها، وجدتي على الجدار المقابل تجلس على مقعد من الجلد ذي مسندين، وإلى جانبها خالتي بيلا بثياب المدرسة. وانا ابن السنتين ضحكاتي ترن في جنبات الشقة، وأعدو من غرفة إلى غرفة هربًا من أمي أو جدتي لفعلة فعلتها، أو أجلس على مؤخرتي بطرف الصالة، ساقاي ممدودتان وهائم في متعلقاتي، صفارة قديمة، أغطية زجاجات، بعض الفوارغ، أو ساعة معطلة زهد فيها جدي.

يفطن عقلي قليلًا، فأعرف أني مسلم يعيش بين يهود..

الأم والجدة والجد والخالة والخال..

غير أنه لم يكن لي غيرهم، وكنت عزيزًا على جدي زكي بالذات أكثر من أيٍّ من أحفاده اليهود في يهود..

هم كل ما أملك، فأهل أبي الذين يزرعون الأرض وعندهم المال والطين كانوا يقتربون مني بحساب، وإذا ربت أحدهم على كتفي مرة كانت عيناه تجوسان في عينيَّ وتسألان: هل أنا بالفعل منهم أم مخلوق غريب!

هل أنا لحمهم ودمهم فيفسحون لي الطريق، أم بَلْوَى حطت عليهم من السماء لتأكل من أكلهم وتتسمى باسمهم؟!

كلهم كانوا هكذا، العم والعمات وكل ما خلَّفوه من ذرية وأولاد، فيما عدا الجد عبد الحميد والجدة أم محمود..

عرفاني بقلبيهما وليس بشهادة الميلاد والموازين والحساب، أحس الجد بأني ابن ظهره وعِوَض عن ولده (محمود) الذي راح في حرب السويس، واشتمَّت الجدة فيَّ ريح ضناها الذي غاب. نزلت عليهما سهلًا، فاحتواني الجد بعينيه وانشطر لي قلب أم محمود، لكن وكما يقال في الأمثال: (لا يبقى على المداود إلا شر البقر)، فسرعان ما رحل الجد ولحقته الجدة، وانقطع ما كان يربط بيني وبين بلدتنا المنصورية، اللهم إلا القروش التي كان يرسلها العم إبراهيم أول كل شهر إلى أمي إبراءً للذمة، وتنفيذًا لوصية الجد قبل أن يموت.

يهفو قلبي إلى نادية بعد حين، وأمي عيناها علينا وتدبر كي لا يتعلق قلبي بها، ونلحق بجدي وجدتي وباقي أهلها الذين سبقونا ورحلوا إلى باريس. ينجح كيد

النساء ونسافر معًا، وأبقى هناك سنوات طوالَا لأؤوب ثانية بعد أن قضى من قضى، جدي زكي وجدتي إيـڤون وخديجة زوجتي التونسية التي تزوجتها هناك، غير أنها لقيت ربها عندما كنا في رحلة بمدينة (نيس)، أما أمي فلا تزال على قيد الحياة، وإن كان بعضها قد مات في قلبي يوم أن تزوجت يعقوب أبا السعد اليهودي المصري الذي استوطن معنا باريس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقوم إلى دولاب جدي..

خاوٍ لا حياة فيه، والهواء الذي يسكنه راكد ثقيل..

الأرفف كلها فراغ في فراغ، اللهم إلا زجاجة دواء تكلس الشراب الذي تحتويه، ونظارة ذراعها مكسور على مسافة منها رباط حذاء، وغلاف فارغ من أغلفة أمواس الحلاقة مرسوم عليه تمساح ظهره مقسوم إلى نصفين.

وتطلعت إلى صورة أبي حصيرة[1] التي اجتزأها جدي يومًا من إحدى الصحف ورشقها بالدبابيس في ضلفة الدولاب، كانت مائلة من أحد الأطراف وطغى عليها القِدمَ والاصفرار، والوجه كابٍ وليس الوجه الذي تركناه. وددت تثبيتها بالدبوس الذي أفلتت منه وإعادتها إلى حالها الأول غير أني لم أفعل، فما الفائدة؟! بعد أن راح الذي كان يتبرك بها صباح مساء! وتوقف عن الحركة صرصار بحجم رأس عود الكبريت، يبدو أنه أحس بي فمكث ساكنًا لا يثير الانتباه، أردت أن أقضي عليه، لم أفعل أيضًا! أغلقت عليه هو الآخر ضلفة الدولاب..

أودعت الدولاب ما أتيت به من آثار جدي، طربوشه القديم وقميصه الرمادي، أما الدبلة التي أخرجتها من إصبعه يوم أن مات لم أجد مكانًا أحن عليها من إصبعي، ولم تكن ساعته (الجوڤيال) تدور فلففتها في منديل وواريتها أحد الأدراج عسى أن أعود إليها يومًا ما.

وبتُّ ليلتي وحيدًا إلا من أطياف من كانوا يومًا في هذا المكان، يخايلونني وأخايلهم، يحدثونني وأحدثهم، ويُقْبلون ويُدْبرون.. وكأني أعيش زمنًا، غير الزمن الذي كنت فيه.. زمنًا خُلق لتوِّه، أنا الفاعل فيه والمفعول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

5

شاع خبر وصولي، وكان أبو السعد أفندي أول المهنئين..

تبدلت هيئته..

شعر رأسه نَحلَ من الأمام وغلب عليه المشيب، وثمة تجاعيد جثمت على منطقة العنق وحول العينين، وامتلأ، تكثف الشحم طبقات طبقات حول خصره وردفيه فضلًا عن المناطق العليا: صدره ومنكبيه.

أتى امتلاؤه هذا بالوبال على قامته، فقد بدا لي وكأنه أقل قامة مما عهدته. ورغم كل هذا الذي طرأ فإن وجهه كان نضرًا أما ضحكته العالية فهي هي، والبذلة السفاري هي نفسها التي طالما رأيتها عليه، وأكاد أجزم بأن النظارة التي فوق عينيه هي نظارته القديمة.

أخذني بالأحضان، وصوته يجلجل على عتبة الباب:

- أهلًا أهلًا يا جلجل، وحشتنا يا ابن الإيه، فينك وفين أيامك يا عكروت!

وعندما عرف بموت جدي سأسأ بفمه أسفًا، وجلسنا على كنبة الصالة، وجهه تعلوه مسحة حزن ويربت عليَّ معزيًا، وجدي صورته قبالتنا على الجدار وعيناه علينا.

- الله يرحمك يا عم زكي، كنت زي النسمة ولسانك الحلو عمره ما أذى إنسان!

ثم دنا مني متسائلًا:

- ودفنتوه طبعًا هناك؟

فأومأت برأسي بأن: نعم.

- لا إله إلا الله، سبحان من له الدوام.

برهة وقال، وهو يعيد بطرف إصبعه إطار النظارة الذي ارتخى منه إلى الأسفل:

- وجدتك الست إيڤون، مش بخير الحمد لله؟

- تعيش إنت.

- هي رخره! يا ألطاف الله!

وتردد قبل أن يسألني عن أمي، لعله خشي أن تكون هي الأخرى في زمرة الهالكين، غير أني طمأنته.

- والباقيين يا جلال؟ خالك شمعون وخالتك....

وتوقف مقطِّبًا حاجبيه ويتذكر، كما لو أن اسم خالتي راح منه، فلحقته وأنا أكاد أبتسم:

- قصدك خالتي بيلا!

فأجابني مسرعًا:

- أيوه أيوه هي، إزيها وإزي صحتها؟ عاملة إيه؟ مش بخير؟

وأنا عيناي تزدادان تبسمًا وأقول في نفسي: «آه يا أبو السعد أفندي يا عفريت، بقى مش فاكر اسم خالتي!»، ثم أردفت متخابثًا:

- وآه لو تشوف خالتي بيلا دلوقتي، دي هي الوحيدة اللي الزمن مقدرش عليها، كل ما تكبر تصغر أكتر وحلاوتها تزيد.

- يا سلام.. بيلا!

وزلف منه لسانه:

- آه يا بيلا يا بنت القرود، فينك وفين أيامك الحلوة؟

وأنا أمد له الحبل مستدرجًا:

- بس دي ظروفها صعبة دلوقتي، مش مرتاحة مع جوزها وكانت بتسيبه بالشهر والشهرين وتيجي تقعد عند جدي.

وسكتُّ عامدًا، وعنقه يدنو تجاهي ووجهه مستنفر ويطالبني بالمزيد:

- وبعدين يا جلال؟ وبعدين؟

- تعمل إيه حظها كده، وساعات لما تنفتح في البكا تقول: أنا إيه اللي شبكني الشبكة السودة دي وخلاني أتجوزه! أنا لا عمري حبيته ولا فكرت ارتبط بيه، إنتم اللي حلتوه في عيني وزي ما يكون غصبتوني عليه.

- بتقول كده.. لها حق! لها حق والله! آه يا هارون ياللي منتش عارف قيمة الجوهرة اللي في إيدك، آه يا ناقص يا للي مناخيرك قد مناخير الجحش.

وأنا أجاهد للسيطرة على زمام نفسي ولا أنفجر في الضحك، وعيناي تقولان له: «بقى يا أبو السعد أفندي لما نكشتك في الكلام طلعت فاكر اسم هارون، وفي الأول كنت عامل نفسك ناسي اسم خالتي!».

ويبدو أنه أدرك أنه أفصح عن مشاعره بأكثر مما ينبغي، فتوقف وعيناه ترمقانني قلقتين من أن أكون قد فهمت شيئًا أو لاحظت، فادعيت الغباء وبدوت له وكأني حمار بأذنين كبيرتين.

فقد كنت أعرف حكايته مع خالتي بيلا، فهو من سكان العمارة الأوائل وجاء للسكنى فيها قبل أن أولد، وكان ساعتها عَزَبًا وعينوه حديثًا مدرسًا للتاريخ بمدرسة النقراشي الثانوية. ورأى خالتي التي كانت تكبر أمي بعامين، وكان ما كان، وكاد أن يحدث معه الذي حدث لأبي ويصبح زوجًا لخالتي، لولا أنه كان ثرثارًا فضلًا عن أنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة، فانفضح في الشارع وطيَّر الخبر إلى أبيه بائع عرقسوس من قريتهم كان يروح ويجيء ببضاعته في شارعنا، فجاء هو وأمه وجرَّاه من ياقة قميصه إلى بلدته (أوسيم) بضواحي الجيزة، ولم يعد إلا بعدها بشهرين وفي يده الست نظيرة زوجته.

كان جدي يتابع ما يحدث، وحاول مرارًا التخفيف عن خالتي بيلا التي كانت أيامها غضة قليلة الخبرة وفي خواتيم الصبا، لا يزال ثديها ينمو وأردافها تستدير، وأبو السعد أفندي يشاغلها بحذائه الأبيض أبو أبزيم والقرنفلة التي يرشقها بعروة بذلته، ناهيك عن شعر رأسه الذي كان يفرقه من المنتصف بعد أن يكون قد سكب عليه ملعقة زيت ليبدو لامعًا، محاكيًا بذلك دون چـوانات السينما في الأربعينيات والخمسينيات.

وجدي يعزيها طالبًا منها ألا تحزن عليه، فمن لا يصون حبه ويذود عنه لا يستحق أن يُبكى عليه، وشجعها على الارتباط بأول رجل طرق بابها، وكان لسوء الحظ هارون أفندي كاتب الحسابات بشركة (شل) وابن أحد معارف جدي اليهود، غير أن المسكينة لم ترتح معه، سواءً عندما كانا في مصر أو بعد أن هاجرا، وكانت جدتي إيڤون تؤازرها وأطلقت عليه اسم (أبو زلّومة) لكِبَر أنفه على نحو غير مألوف ونكاية فيه لرذالته وقلة أدبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأقبل الكابتن فريد يطوي ذراعه على بطيخة من ذوات الحجم الكبير، ووراءه بشندي البواب يلهث ويحمل له فوق كتفه صندوق (سڤن أب)، وضعه بمدخل الشقة ووقف يتلكأ متوقعًا أن أعطيه مما أعطاني الله، فأشحت له بظهر يدي كي ينصرف.

ثوانٍ ودق علينا حسن جرس الباب، ارتمى على صدري (وهات يا قبلات) ثم أدخلَ اللفافات التي أتى بها إلى المطبخ، غير أني لاحظت شيئًا يلوح في عينيه.. كأنها نظرة تساؤل وقلق، فلم أعرف إلا بعدها أن قدومي أوقعه في ورطة، فهل يا تُرى سوف تبقى أمه (أم حسن) على حالها، أم سوف تنزل للعيش معه ثانية بعد أن أتيت؟

وزدنا واحدًا بقدوم مجدي ابن المعلم حبيب أحد أصدقاء جدي القدامى، والذي كان يمتلك محل عصير القصب الذي رأيته عند وصولي بعدما تحول إلى محل للڤيديو والكاسيت ومستلزمات سهر الشباب. ترحمت على أبيه فأومأ برأسه شاكرًا ورسم علامة الصليب في الهواء قبالة وجهه، ولما سألته قال: إنهم أخذوا (خُلُّوّ رِجْل) في المحل واستبدل هو النشاط، فتح محلًا لبيع الأشياء المستوردة بشارع الجيش، وكل شهر يخطف قدمه إلى بورسعيد ويأتي ببضاعته، عطور، معلبات، ثياب داخلية للنساء، شيكولاته، أكسسوارات..

وقبلَّ ظاهر كفه مثلما يفعل أولاد البلد، وهو يقول:

- وآهي مستورة والحمد لله.

كان زميلي في المدرستين الإعدادية والثانوية، وأعرف أنه كان يحلْمُ بأن يكون شيئًا كبيرًا، سفيرًا أو أستاذًا بالجامعة.. وكان منذورًا لذلك، فهو الأول على فصله الدراسي دائمًا واجتاز الثانوية العامة بمجموع يؤهله لكلية الطب، غير أنه آثر الالتحاق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ظنًّا منه أنها الطريق للسلك الديبلوماسي، وأنه سوف يصبح سفيرًا في يوم من الأيام!

- واتخرجت بجيد جدًا كمان، وفين بعدها بأربع سنين عينوني في وزارة الري! سنة والتانية وقلت مبدهاش ويللا يللا اتصرفت في دكان الوالد، والقرشين اللي أخدتهم شوية للمحل الجديد اللي فتحته وشوية لبضاعة بورسعيد.

وقال حسن:

- أنا لسه دكان العطارة بتاع الوالد مفتوح، لكن قلت أجرب حظي أنا راخر وبسافر مع مجدي ساعات، وأجيب لي شوية بضاعة وأبيع.

وأخذا يثرثران عن الحِيل والألاعيب التي كانا يتفننان فيها للإفلات ببضاعتيهما، فمرة يخفيانها في مكان مسحور بالسيارة التي يستقلانها، ومرة يتسلمانها في (القنطرة غرب) بعد أن تكون قد هرَّبتها لحسابيهما نسوة تخصَّصن في هذا الأمر، أو يهربانها أحيانًا في مركبة حكومية أو سيارة إسعاف!

ويُكمل حسن:

- وعرفنا دية كل واحد من بتوع الجمرك، فلان ده أبو شرز أصفر تدخل عليه متمسكن وتعمل غلبان وإنك بتجري على كوم عيال، وأبو كسكتة ده التخين تكون مربَّط معاه من قبلها، وأبو بنطلون اسود اللي هناك ده يا ستار يا رب عليه، عامل فيها إن عنده ضمير وبياخد حق الحكومة بالتعريفة والمليم!

فبدا الامتعاض على وجه أبو السعد أفندي، وأشاح بيده غاضبًا.

- آدي يا سيادنا اللي إحنا خدناه من الانفتاح والكلام الفارغ وسياسة حلَّق حُوش! مش كفاية البلاوي اللي بنسمع عنها كل يوم، لا وإيه كمان.. ولادنا نسيوا اللي اتعلموه في المدارس واشتغلوا دلوقتي في النصب والتهريب!

وبصوت ينبئ عن الخيبة:

- لا لا أبدًا.. مش هما دول الأولاد اللي كانوا بيقعدوا قدامي على الدكك في الفصول، وأقعد أحكي لهم عن تحتمس التالت وللا رمسيس وعبد الناصر وسعد زغلول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكابتن فريد هو الآخر من سكان العمارة، ورغم سنه التي تجاوزت الستين إلا أننا كنا نناديه (بالكابتن) لأنه كان مدرسًا للتربية البدنية بمدرسة إسماعيل القباني الثانوية، ويدير الآن مركزًا لكمال الأجسام وتقوية العضلات، كما كان مغرمًا بالسياسة غير أن باعه فيها كان قليلًا ويمكن تصنيفه بأنه سياسي من الدرجة العاشرة، فهو لا يتقن إلا الترويج والتهليل لما يقوله الكبار.

ظل يتابع المتكلمين ويتنقل بينهم بعينيه، حتى أكمل أبو السعد أفندي عبارته فقال له:

- يا عمنا سيبك من تحتمس وعبد الناصر، وشيل النضارة السودة دي اللي على عنيك وإنت تلاقي الدنيا حلوة والخير رايح جاي.

فقاطعه أبو السعد أفندي متأففًا:

- يا كابتن فريد الله يعْمِر بيتك خلِّينا ساكتين!

ودق جرس الهاتف..

كانت المهاتفة من باريس، من صهري السابق الشيخ منجي العياري والد زوجتي خديجة المتوفاة ومعه شريكي اللبناني أكرم أبو الشوارب، هنآني بسلامة الوصول وسألني أبو الشوارب عن ميعاد عودتي وأنا أقول له:

- بالراحة شوية ياخَيّ أكرم، أنا لسه واصل إمبارح ومش عارف هقعد في مصر لحد إمتى.

وبعد أن أنهيت المكالمة، قال أبو السعد أفندي:

- هُمَّا الجماعة هناك مش صابرين على بعادك وللا إيه؟

فأفهمته أني وأكرم أبو الشوارب هذا شركاء في تجارة بملايين الفرنكات، وكل واحد منا له اختصاص، وقد وعدته بألا أغيب.

فقال الكابتن فريد:

- يا ابني يا جلال الفلوس هنا بالكوم، وإن كان ربنا مسهلهالك كده لم حالك ومحتالك وتعالى، دي الدنيا عندنا هنا عال العال واللي عايز يغرف يغرف بكفوفه الاتنين.

فرمقه أبو السعد أفندي مستاءً:

- يا سلام! يغرف بكفوفه الاتنين! ويغرف منين بقى يا كابتن فريد؟ من دمنا ودم الغلابة وللا منين؟

ثم هب واقفًا يقول، وهو يخطو خارجًا:

- سلام عليكم، الشُّهْر وَجَب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

فين طريقك فين..

ويروحوا له منين..

يا حبيب العين قلبك فين مِدَّاري؟!

كنت كمن يطفو في فراغ.. عيناي أمسك بهما النعاس، وقلبي يرف يرف نحو النغم المتسلل من فتحات الشيش..

بيقولوا لي توب عن هوا المحبوب..

قلت هاتوا قلوب من حجر ما يدوب..

يأتيني صوت عبد الوهاب أول الأمر مشوشًا مختلطًا بصخب الشارع، نداء الباعة وأزيز المركبات وبوق لعين صمم صاحبه على تخطي الجميع، ورويدًا رويدًا أستكين وأهيم في الغناء ويروح انتباهي عن كل ما عـداه، يغمـرنـي النغم الشاكي الباكي الآتي من المذياع القريب..

وكأن نادية تلوح أمامي بثياب المدرسة..

وجهها مريح بلونه الرباني الخالي من أي طلاء، ونهدها تداريه عن الأعين بحقيبة الكتب والأقلام.. تلملم أطراف ثوبها وتهبـط على الدَّرج الخشبـي للتـرام، وأنا هنا من زمن بمحطة الترام..

أراها بعين الخيال، وهي واقفة على الطوار..

قدُّها مسبوك، وفمها حلو وهي تضحك أو وهو مَزْمُوم..

عيناها تتطلعان هنا وهناك، وكأن قلبها يتحسسني ويقول إني هنا في الانتظار..

لا تطيل.. تعبر الطريق وأنا أرمقها من الوراء، ساقاها تخطوان بوقع متزن والشعر فاحم ناعم تشاكسه نسمة هواء..

تشعر بي وأنا ألحق بها، ونخطو معًا بلا كلام إلى أن تعرج بها قدماي إلى شارع نحيل تخف فيه حركة الناس.

ويوم أن كنت أغلق باب شقتنا وهي تهبط على الدَّرج، استوقفتها، فتلفتت خائفة من أن يلحظنا أحد..

تتدافع أنفاسي وأنا أدنو منها، فتسكن وتتلقاني وعيناها غاربتان، أحس بطراوة شفتيها بين شفتيَّ، وجسدها بين يديَّ يطاوعني وأطاوعه.. كانت القبلة الأولى لنا.. ننظر بعدها في أعين بعضنا البعض مدهوشين من رحيقها وفعلها.. عطرها أوَّلي فطري وليد الخلقة والمسام، غير أنه كان لحظتها قاتلًا ولا يضاهيه أبدًا أي ترياق يعبِّئه أهل الحيلة في زجاجات.

هي لحظة..

خطفة زمن..

ودفعتني بعيدًا عنها وعيناها اللائمتان لا تصدقان ما حدث، ويأفل لونها ونداوة تطرأ على وجنتيها وجبينها، لا أعرف إن كان هذا مما كنا فيه أم من الذنب وبَغْتة الحدث..

وأيام طوال كنا فيها معًا نتكلم ونحلم ونبني معمارًا في الهواء، وإذا غلب علينا الصمت يغدو الصمت ذاته أشهى من الكلام وله حلاوة بغير انتهاء.

تزوجت الآن..

تزوجت وأنا في الغربة، خطفها مني ابن خالها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقوم إلى الشرفة..

الشارع ليس الشارع الذي أحبه قلبي ووطئته قدماي..

مقهى أبو عوف القديم التراث، وضعوا يافطة على واجهته تقول: إن اسمه الآن (كاڤيتريا مرجان)، بعد أن اشتراها هذا المرجان من ورثة أبو عوف، وعلى اليسار وأنت تهُم بالدخول لوحة خشبية عليها ملصق بالألوان، يحوي قبعة سوداء إلى جوارها كأس فارغة يتمدد فوقها سيجار.

ولم تكف أيديهم..

استبدلوا بالباب الخشبي العتيق ذي الثماني ضلفات والزجاج السميك المليء بالرسوم، استبدلوا به واحدًا من الألوميتال باردًا كارهًا للحسن والجمال، ومقاعد زمان الخشبية العفية المبطنة بالقش والخوص وتتحمل الأوزان، ألقوها بعيدًا ولم أعد أرى إلا مقاعد رخوة تؤذي البدن. وحسن الغبي عديم الإحساس لم يكلف نفسه إصلاح واجهة محل أبيه، الواجهة مزرية بهت لونها وعششت فيها عوادم الطريق. وجزارة الحاج زينهم فقدت شرفها، بتلك

الثلاجة الكبيرة المملوءة بصدور وأوراك الدجاج، ولحم قاتم مجمد مشحون لنا في كراتين من أستراليا والبرازيل.

الشارع راح لطفه وطيبته وسماحته، وشجره الذي كان يعرفنا ونعرفه، ويحتوينا بظلاله كلما اقتربنا وترمقنا من علٍ شواشيه، ويطالع كل هلَّة صبح معنا كأنها أول نور له ولنا في الحياة..

وأنتبه على زغرودة طويلة مرحة تقول إن صاحبها فرحان..

أنظر إلى باب العمارة دَهِشًا، لأجد أم حسن تخرج من سيارة الأجرة التي كانت تقلُّها، ويبدو أنها لمحتني بالشرفة فانهالت بالزغاريد، والسائق يطل عليها من نافذة السيارة ويسن أسنانه لينال الحساب ضعفين!

أهبط الدَّرج ثلاثا في ثلاث مثلما كنت أفعل في الصغر وتتبادل العناق، وتنفتح أبواب الشقق وتخرج علينا نسوة يسلمن عليها وعليَّ، منهن قدامى يعرفنني وجديدات كان بادِيًا أنهن سمعن بي وبحكايتي، نصعد في زفة حتى باب الشقة، وكأني أُبْتُ الآن فقط وليس قبل أيام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أم حسن في نصف حجمها الذي أعرفه..

راح الشحم واللحم والرسغ المتين، وتهدل الثدي المغداق العفي الذي كنت أغرز فيه أصابعي فيتقطر في فمي، وهزلت الأقدام التي كانت تدور في الشقة كالديدبان، وتروح وتجيء من عند الفرارجي والجزار والخباز والبقال.

- من السكر يا ابني، قطع نفسي وهد حيلي الله يهد حيله.

- بس يا أمي لازم تاخدي بالك من صحتك.

- أمك! أمك لسه على ضهر الدنيا يا حبيبي، ربنا يخليهالك يا قادر يا كريم.

وبحسبها أمي رفعت الطرحة السوداء من فوق رأسها، فبدت أكثر بؤسًا وهزالًا مما كانت مغطاة، وكنت ألحظ كف يدها أحيانًا ترتعش، وإذا طالت ضحكتها مرة كانت تعقبها نوبة سعال حتى إني كنت ألحقها بكوب ماء.

طفقنا زمنًا نتكلم، حكيت لها حكايتي كاملة في الغربة والشتات، وشكت هي لي مما أصابها بعد وفاة زوجها الحاج محمود العطار، وأنها صارت كالغريبة بين ابنها حسن وزوجته، فلا قول لها يُسمع أو عادت لها وظيفة غير رعاية أولادهما الصغار، فآثرت الصعود إلى شقتنا ريثما أعود، وعندما جاء ذكر جدي أخرجت منديلها تمسح دمعة علقت بجفونها:

- كانت عِشْرة يا ابني، والعشرة متهونش إلا على ولاد الحرام.

وتلتقط أنفاسها:

- كان سره سرنا وشكوتنا شكوته، وياما قعدنا أنا وعمك الحاج محمود قبل ما يموت نفتكر فيكم ونقول: يا ترى عاملين إيه في الغربة، وفينك يا عم زكي وإنتي يا ست إيڤون، وغبتي كده ليه يا كاميليا إنتي وجلال..

وسألتني عن أمي، فأخبرتها بأنها تزوجت.

فتمتمت:

- اتجوزت!

ثم تداركت مدارية ما طرأ على وجهها:

- حقها يا ابني حقها.

فأجبتها بنبرة تكاد تكون ساخطة:

- حقها! أمَّال إنتي متجوزتيش ليه يا أمي؟

- أتجوز! أتجوز بعد الحاج محمود..

ويبدو أنها أحست بما يدور في نفسي حيال أمي، فأردفت:

- بس الجواز سترة يا ابني للي زي أمك، دي ياما شافت المر في تربيتك وياما سهرت الليالي وإيديها على خدها، إوعي تشيل منها يا جلال.

وأخذها الفضول:

- واتجوزت مين؟

بدوت وكأني لم أسمع.

- واحد يهودي؟

فقلت: نعم.

- الله يسهل لها!

قالتها على نحو شعرت منه بأنها قد تكون أكثر رضاءً، لو كانت أمي تزوجت رجلًا مسلمًا مثلنا..

وتركتني إلى الغرفة التي تبيت فيها، ولما طال غيابها طرقت عليها الباب. كانت تكوم ثيابها في صرر متراصة على السجادة، وتضع أشياءها الصغيرة في حقيبة يد موضوعة على السرير، فاندفعت نحوها:

- إيه ده يا أمي؟

- ربنا يجازيك خير وكفاية لحد كده.

- هتروحي فين؟

- على بيتي.

وبصوت خافت وهي مطرقة:

- عند حسن.

- حسن! حسن إيه بيتك هنا.

وطفقنا نتجادل وهي تلين وتزداد استجابة، لم تُبْدِ مقاومة تُذكر، اكتفت بالكلمات القليلة التي قالتها، وأخذت ترمقني دون اعتراض أو تعليق وأنا أحمل أشياءها وأعيدها ثانية إلى الدولاب.

كنت أشعر بأنها تنظر إليَّ على أني ولدها، وأنها تفضل البقاء معي على الذهاب إلى حسن، والحال ذاته بالنسبة لي، فلم أتمسك بها لمجرد الشهامة ورد الجميل، وإنما على أنها أم صنعتها واصطفيتها لنفسي عوضًا عن كل ما أفتقده في أمي التي أخرجتني من أحشائها.

اختارت هي الغرفة التي كانت مخصصة لي أنا وأمي من قبل، أما أنا فنقلت حاجياتي إلى غرفة جدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

أم حسن على مقعد بالشرفة، وأمامها طاولة عليها صينية تحوي كوبًا من الماء وقدح قهوة مقلوبًا على حافته.

تشعر باقترابي..

- تعالى.. تعالى يا حبيبي..

أدنو منها وبيدي قدح من القهوة، أحسو الرشفة المتبقية فيه وأضعه مقلوبًا هو الآخر إلى جوار قدحها، فترنو بعينيها إليَّ وأدعها أنا لأميل بجذعي إلى سور الشرفة متأملًا الشارع والرائح والغادي. وكنت بين الحين والحين ألتفت إليها، فأجدها تلقي نظرة عميقة لقدحها ومحتواه ووجهها ما بين الحيرة والإحباط، كما لو أنها لم تعثر بعد على إجابة للسؤال الذي يشغلها..

وبعد أن فرغت أمسكت بقدحي، تأملته بنظرة خاطفة ثم أبعدته وقربته من عينيها مدققة في البقايا العالقة بجدرانه على شكل خطوط وتعرجات، وبرهة ونادت عليَّ، فأقبلت عليها سائلًا عن أخبار الفنجان:

- آهي حاجة بتسلَّى فيها، لا مسكت الفنجال قبل كده ولا كُتّ بعرف بيقول إيه إلا بعد ما فِضِي عليَّه المطرح.

- عايز أطمن على اللي في بالي؟

- فنجالك كله خير، الفرحة حواليك والسعد قدامك.

- واللي شاغل قلبي؟

فتفهم، ويبدو عليها أنها لا تود الخوض فيما أتكلم عنه:

- خلِّينا من إبليس اللعين وتعالى هنا جنبي، عايزاك في كلمة.

أجلس قبالتها وهي تعيد القدح إلى موضعه ثم تمسك بحُقِّ النشوق الراقد في حجرها، ترفع عنه الغطاء فتتسرب رائحة المسحوق حارة لاذعةً لمسام أنفي، وتصدر عني سعلة خفيفة فتعدل عما تقصده، وتتأملني بعينيها الكليلتين قائلة:

- نفسي أحج يا ابني..

تبدو حميتي ظاهرة في نبرة صوتي:

- تحجي.. يا سلام يا أمي، وتكاليف الحجة كلها عليَّه من أول ما تركبي الطيارة لحد ما ترجعي.

فتوقفني بإشارة من يدها:

- مش هو دا القصد أنا ليَّه إيراد من المحل والفلوس زايدة معايا والحمد لله، أنا بس بشاورك.

أجيبها دَهِشًا:

- تشاوريني..

- أمَّال! مش إبني، وإنت دلوقتي راجلي ومسئول عني.

أريح يدي على كفها النائمة على مسند المقعد، ودفقة حارة تسري فيَّ:

- وحسن عارف؟

- حسن..

ولم تُكمل..

- أصل فيه شوية ستات في الشارع ناويين على الحج، وأنا عايزة أروح معاهم بس مدتش كلمة لحد ما أسألك وأشوف هتقول إيه؟

وندخل بعدها في حديث آخر..

- وإنت ناوي على إيه يا جلال؟ زيارة والسلام وللا قاعد معانا على طول؟

- مش عارف يا أمي الدنيا هتاخدني لحد فين..

وأصمت ثم أعاود الكلام:

- نفسي أعيش هنا على طول، نفسي أكمل في بلدي لأني مهما كبرت بره لا عمري هبقى حاجة هناك ولا حد هيحس بيَّه، وتلاقيني برضه عايز ألمّ شنطي وأرجع تاني، ومن الصبح كمان! هعمل إيه مش عارف، وبعدين مصالحي اللي هناك هعمل فيها إيه..

فتغلب عليها بساطتها:

- وهي المصالح هناك وبس، انقل حالك ومالك وسط أهلك وناسك، عجباك قوي القعدة هناك، عجباك العيشة مع الخواجات، دول لا من دمنا ولا طبعهم طبعنا، وكل حي في حاله لا بيود التاني ولا بيسأل على جاره..

وتغور بعينيها في أعماقي:

- وجدك الله يرحمه آهو راح لرب كريم وأمك آهي رخرة اتجوزت، هتقعد هناك لمين؟

أسهم مفكرًا، وتتابع هي مُيسِّرة عليَّ الأمر:

- إنت بس تتكل على الله وهتلاقي باب الرزق انفتح لك هنا، وشوية شوية تعتر في بنت الحلال اللي تونسك وتريح بالك.

تأخذني دون أن تشعر إلى نادية، وعندما أسألها تجيبني باقتضاب:

- آهي كويسة..

وترمق ما طرأ على وجهي، ثم تقول:

- مش كان حسن بيبلغك أول بأول عن أخبارها في الجوابات؟ وبعدين إحنا مالنا ومال نادية دلوقتي، خليك في حالك وشوف مصلحتك فين.

أروح بعيني عنها، وهي لاتزال تضيف:

- نادية دلوقتي ست متجوزة، وزي ما انت عارف وراسي اتجوزت فؤاد ابن خالها، والراجل ظابط في الجيش ومهنِّيها ومريَّحها وعندهم دلوقتي بنت زي فلقة القمر.

وبصوت يغلب عليه التأثر:

- بس يا حسرة عليه صاحب عَيَا..

أعود إليها ببصري وإحساس بالراحة يدهمني كما لو أن عدوًا لي يأتيني خبره، وربما بدا ذلك على وجهي غير أنها لم تلحظه.

- عنده الكبد يا عيني وبيرقد في المستشفى العسكري بالشهر والشهرين، وبتبقى نادية دايخة ورايحة جاية عليه.

وأسألها عما إذا كانت نادية، لا تزال تسكن بالعمارة؟

فتقول: نعم، وتلحظ صمتي بعدها فتتأملني حانية:

- كل واحد بياخد نصيبه يا حبيبي، واللي خلق نادية خلق ستها وست ستها، بص يا ابني لقدام ومتديش ودنك للشيطان، دا اللي يبص في طبق غيره تبقى مش عاجباه قسمة ربنا.

وتنحو بالحديث إلى مسار آخر:

- هو انت مش لك أرض في البلد، هتسيبها كده؟

- أرض بس، وأخت كمان.

- طبّ يا نور عيني روح أسأل عليها وودها هي وأهلك اللي هناك، وبالمرة شوف أرضك ومصلحتك.

وبِتُّ ليلتي مشتتًا وأسأل نفسي: لماذا جئت؟ وهل أعود أم أبقى؟ وإن بقيت ما الذي أفعله؟

صحيح أني رجعت إلى بلدي، لكن أين أجد بلدي..

في حب ضاع، أخت لا أعرفها ولا تعرفني، أو عم يتجهمني..

أم في مرتع شربت فيه ولعبت، وذكرى لا تزال تسكنني، وعجوز أخالها أمي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

سوق روض الفرج يقول أنا مصر بحلوها ومرها..

والناس فيه على كل لون..

من الأرياف والبنادر والصعيد، حاسري الرؤوس أو بطواقٍ وعمائم وجلابيب. وأفندية بقمصان وبناطيل، ونسوة بملاءات سُود يجررن أولادًا، أو بثياب غالية ووراءهن خدم يحملون لهن الطلبات. وصبية كبار، ورجال أشداء بالصداري والسراويل يدفعون عربة يد، أو يحملون على أكتافهم خيرات الله في أقفاص، وعربات نقل أو كارُّو مشدودة ببغال تُفرغ حمولتها من البطيخ والشمام والكوسة والخيار.

وأكتاف تتلاقاها راضيًا، أو بقايا وفوارغ وكراتين تتعثر فيها قدماك إن لم تكن منتبهًا وفي رأسك ألف عين، ومذياع قريب تأتي منه تلاوة للقرآن الكريم، وآخر يشدو منه عبد المطلب ويقول: «يا حاسدين الناس.. مالكم ومال الناس». ومحلات على كل اتساع، الصغير والكبير وما في حجم علبة الكبريت، ومفروشة كلها برمل ناعم لين على الفاكهة والخضار، ولها أسماء أغلبها وارد من الصعيد، آل زيدان، وأولاد هريدي، والمرزوقي، والسوهاجي، وفلان وفلان.

والداخل والخارج..

من يشتري بالجملة له وللجيران، ومن يُقبل على الطازَج من الثمار، أو يرضى بالتالف طالما سعره بخس وفي المتناول، وهلافيت بخرَق يمدون أيديهم لأي عابر سبيل، ومنهم من يلتقط أي شيء يراه ويضعه في كيس أو جوال، نصف بطيخة، ثمرة مانجو معطوبة، أو بقايا طعام.

وصنبور ماء يخرج من ماسورة بجدار خلفي لأحد المحلات، أمامه رجلان شمرا جلبابيهما حتى منتصف الفخذين، ولف كل واحد منهما هذا الجزء المشمور، مخرجًا إياه من فتحة الجلباب. أحدهما محني على الصنبور وعلى وجهه رغوة صابون، والثاني ينتظر الدور، كأنما كانا يبيتان بالسوق واستيقظا الآن. وامرأة بحجم الدرفيل على بعد خطوات، يبدو أنها فرغت للتوِّ من غسل رأسها بالماء، طرحة الرأس الملقاة على كتفها طرفها يلامس الأرض مبللًا بقطرات ماء مغموسة برمل وطين، وتعتصر بكفيها شعرها الكثيب فيسيل منه سرسوب ماء.

وصخب وتهليل، وبيع وشراء بطيبة ولين، وأحيانًا بزعيق وعراك، وأصوات تصلي على الهادي الرسول، وأخرى يدفعها الضجر إلى سب كل شيء حتى الدين.

دنيا تشد البصر كما لو أنها تستحق الإعجاب، وفوضاها تبدو وكأنها محكومة بقانون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذرعت السوق جيئة وذهابًا أتلفت على محل الليثي..

الليثي زميلي القديم بالمدرسة، والذي قضى سبعة أعوام بالدراسة الثانوية بلا طائل، فلم يستطع إعراب جملة، أو نطق كلمة إنجليزية على نحوها الصحيح، أو فك شفرة مسألة من مسائل حساب المثلثات، وإن كنت أشهد له بالمروءة ووقفات الرجل، أشهد له بكل جميل إلا في أمور الدرس والتعليم.

أحببت أن أراه وأُحْيي الود القديم، وأن تكون زيارتي له زيارة وتجارة مثلما يقال، فقد أصاب كلام أم حسن هوىً في نفسي.. ومن يدري؟! فقد يساعدني الليثي في تجارة، أو أتشارك معه في مشروع.

سألت عنه أحد المارة، فأجاب:

- قصدك محل الليثي ومفتاح؟ آهو عندك قدام على الشمال.

فذهبت..

كان حاسر الرأس وبجلباب، ويجلس على مقعد خشبي أمام المحل. أشاروا لي عليه، ورفع هو النظارة (البيرسول) من فوق عينيه عندما أقبلت عليه، لبث برهة يتأملني ثم هب لملاقاتي وهو يصيح:

- مين؟ جلال!

وتعانقنا وبدأت المثلجات فالشاي والقهوة، وأشار إلى رجل يمر أمامنا حاملًا على كتفه (سَطْل عِنَّاب) إلا أني رجوته ألا يفعل، غير أنه لم يعبأ وأصر أيضًا على أن أقبض على مبسم الشيشة التي أمامه وإلا فلا كلام.

تكلمنا في القديم والحديث..

الزمن الممتع اللذيذ عندما كنا صغارًا في المدرسة، وتطرقنا إلى ما جد علينا من أحداث، أنا في سفري الطويل، وهو في محل أبيه الذي أصبح يمتلكه بالكامل إلا جزءًا يسيرًا باسم شقيقه مفتاح، الذي شق طريقًا آخر غير هذا

الطريق، مكتفيًا بريع حصته من المحل واسمه المعلق على اليافطة التي بأعلاه.

- وآديني مستور والحمد لله بركب المرسيدس وأشرب المارلبورو، وشقة لأم فتحي في مدينة نصر وشقة لأم حسين في المهندسين.

وبدأت أنا في الحديث عن الأمر الذي قدمت من أجله، فرمقني بجانب عينه وبدا وجهه جادًا وهو يقول:

- بص يا عم جلال أنا مبفهمش غير في الفاكهة والخضار، وإذا كنت حابب الشغلانة دي أهلًا ومرحب بيك بس تقولّي معاك كام؟

- ودي تفرق؟

- إلا تفرق! دي صلب الموضوع.

وأتبع كلامه بزومة تفكير، ثم قال:

- إسمع يا سيدي، السوق هنا زمنه راح خلاص وسنتين تلاتة وهينقلوه في حتة اسمها العبور، وأنا ناوي أحجز لي هناك محلين كبار، وإنت وشوقك، عايز تدخل معايا أخليهم تلاتة وتبقى شريك، بس الحكاية دي يا بطل عايزة مبلغ محترم، إشي مقدم وإشي أقساط دا غير العمولات والتوضيب.

وأنا أحدق فيه متابعًا..

- بس خلي بالك أنا مبشتغلش غير في زراعة الفلاحين، زراعة جدودنا بتوع زمان، يعني لا بيدخل دكاني زراعة (الصّوَب) ولا الحاجات اللي بتطلع في غير أوانها أو منفوخة من كتر الهرمونات، هو دا نظامي وبالعربي كده دي سبب مشكلتي مع أخويا مفتاح.

ودنا مني بوجهه:

- وللا هتقولّي أنا لسه راجع من بلاد بره، والتكنولوچيا ومش التكنولوچيا والناس كلها ماشية على الكلام ده، ساعتها هقولك يفتح الله وكل واحد من سكة، أنا صحيح راجل دقة قديمة لكن دوغري ومبشتغلش غير في المظبوط وإسأل عليَّه كل السوق، هتحط إيدك في إيدي ألف مرحب بيك، بس تفهم طبعي والشرط قبل الحرت يا ابن الحلال.

لم أعلق، تركته يستطرد:

- دا يا أول يا هادي، وإذا كنت عايزنا نتوسع أكتر وأكتر أنا جاهز وممكن نشوف لنا حتة أرض في زمام البحيرة وننزرعها لحسابنا ونورد المحصول للمحلات، بس كده هتفتح معانا بزيادة في الفلوس.

فراقت لي هذه الفكرة، وأسرعت قائلًا:

- طيب وندوَّر على أرض ليه، أنا عندي الأرض.

وأخبرته عن الأرض التي لي في حوزة عمي، وأنه يمكن إدخالها في حساباتنا ومشروعنا.

- والأرض دي فين؟

- في المنصورية.

- وجاهزة على الاستلام؟

فحرت في الإجابة، ثم قلت:

- كل اللي أعرفه إنها أرض ورثتها عن جدي، لكن هي فين بالظبط؟ معرفش، وجاهزة وللا مش جاهزة على الاستلام؟ برضه معرفش.

وهو يرمقني وبوادر دهشة تلوح على وجهه:

- وعايز تدخل بيها المشروع؟

وما إن أشرت له برأسي بأن: نعم، حتى بادرني قائلًا:

- بقولك إيه يا جلال من أولها كده تطلع الأرض دي من كلامنا، دا على اللي انت بتقوله ده تبقى حكايتها طويلة، ومسائلها هتفضل متعلقة لحد راسك ما تشيب.

دفقة دخان أخرى أخرجها من فمه، ثم نحَّى مبسم الشيشة جانبًا وهو يقول:

- إيه ده يا راجل يا طيب، أقول عليك إيه، خواجة لابس برنيطة وللا أقول واحد على نياته ولسه عايش في الطراوة!

ولحقني قبل أن أقاطعه:

- بقى انت فاكر إنك هتاخد الأرض دي، وإن خدتها هتاخدها كده بالساهل!

ثم أشار إلى قروي بائس يتربع بالقرب منا قبالة كومة من البطيخ، ويحسب شيئًا على أصابع يده.

- إنت شايف اللي مكفي على زراعته ده ويصعب عليك.

فذهبت ببصري إلى حيث يشير..

- آهو دا اللي إنت فاكره غلبان وعبيط يضحك على العفريت، وياخدك البحر ويرجَّعك عطشان، وإذا محرَّمتش وافتكرت إنك فهمت اللعبة هيقولك يللا بينا تاني وبرضه ترجع عطشان!

ومشيحًا بكف يده:

- إنسى إنسى الحكاية دي، إلا الأرض ولا هتقدر تاخدها إلا بالضالين، أنا أصلًا فلاح وطول عمري وأبًا عن جد بتعامل معاهم، هُمَّا غلابة وطيبين مقلناش حاجة لكن محدش يقدر يغلبهم في حكاية الأرض دي..

ومع بوادر قلق تتغشاني، أجيبه محبطًا:

- أغلبهم دا إيه، دا حقي وهاخده زي ما أي واحد بياخد حقه!

- كلامك على العين والراس، بس هما مش هيحسبوها كده، وكل اللي هيدور في دماغهم إنك جاي تمد إيدك في الطبق اللي بياكلوا منه.

- دي أرضي يا ليثي؟

- وهما كمان هيقولوا دي أرضنا.

- حتى ولو كان عمي؟

- حتى ولو كان أخوك ابن أمك وأبوك..

وأنهينا الحديث وهو يودعني قائلًا:

- آدينا هنشوف هتعمل إيه، وكلامي هو الصح وللا الكلام اللي في دماغك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

تركت الليثي مفكرًا فيما دار بيننا، خاصة قوله بأنه لا يحفل إلا بالفاكهة والخضراوات التي خلقها لنا الله طاهرة عفيفة تشبعنا وتغذينا وتقينا شر الأمراض، لا أن تمرضنا وتضرنا بعدما عبث بها المخاليق بالحقن والحبوب، فنجد حبة الخيار كبيرة عبيطة كحبة القِثَّاء، وثمرة الفراولة ليس لها (شمخة) أو مفعول وبحجم ثمرة الجميز، والبطيخة تحترمها وتهابها لحجمها الكبير، وفي النهاية ماذا؟! لا تفيدك بشيء أو تغنيك عن الجوع، كأنما لا تأكل بل تعبُّ وحَسْب من زير ماء..

يظن الليثي وظنه خائب أنهم في (بلاد بره) - كما يقول - يُقْبلون على هذه الأشياء، فهو لا يعلم أن قسطًا كبيرًا من الناس هناك لا يحرصون من الفاكهة والخضراوات إلا على ما هو صحي ومفيد، وأن هذه الأشياء لها عندهم مرتبة عالية وأماكن مميزة بالمحلات.. فلماذا لا أضع يدي في يده ونصدر هذه الثمار الطيبة إلى سوق الجملة بباريس، ويكون هذا هو المشروع الذي يربطني بأهلي وبلدي، ويضع لساقي مجالًا للتردد بين هنا وهناك..

الأمر الآخر الذي شغلني، هو تلك المخاوف التي بثها في رأسي عن أرضي التي بالبلد، فهل يا تُرى سوف ألقى عنتًا بشأنها من أهلي الذين هناك؟

صحيح أن الود ليس موصولًا بيني وبين العم إبراهيم، لكن ما صلة هذا بذاك؟

هذا حق.. وتلكمُ علاقات ورواسب خلَّفها زواج أبي من أمي اليهودية، وأظنها راحت مع الأيام..

فهل أُمنع من أرضي؟

وإذا مُنعت، فهل للخلاف القديم، أم لما يقوله الليثي الآن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما رجعت إلى البيت، أجريت اتصالًا بخالي شمعون..

كان قد هاتفني من باريس مرتين، مرة يهنئني بسلامة الوصول والثانية بعدها بشهر ليعاود الاطمئنان عليَّ، ويسألني أن أدبر له زيارة إلى مصر ليراها ويلقى أصحابه القدامى، غير أني لم أعر طلبه اهتمامًا..

أعاد تكرار الطلب وأنا أعده خيرًا، وفاجأني بسؤال كان قد سألني إياه في المرة السابقة، هل فرع داود عدس بشارع الأزهر الذي كان مديرًا له قبل أن يرحل عن مصر، لا يزال موجودًا؟ ومحل المالكي للألبان الذي يقع قبالة

مسجد سيدنا الحسين، لا يزال مفتوحًا هو الآخر؟ فقد كان يتناول إفطاره أحيانًا هناك..

لم أكن قد ذهبت إلى حيث يقول أو حتى سألت عنهما مثلما طلب مني، غير أني أكدت له وجودهما..

قلت له عما أجهله ليس رغبة في ألاَّ أخيب ظنه في اهتمامي بما يقول، وإنما كي أجاريه ولا أقتل ما هو حيٌّ في قلبه، ويريده باقيًا ليعود إليه زائرًا ذات يوم ويراه.

دهمني شوقه اللَّحوح، فسبقني لساني وقلت له ما يقولونه للولد الصغير عندما يُجن شوقه ويسأل عن أبيه الذي توفاه الله، فنقول له: بأنه لا يزال حيًا لكنه في سفر طويل، وعزمت على الذهاب في اليوم التالي إلى حيث يريد وبعدها لكل حادث حديث..

وسأل عن أماكن أخرى وأناس، خان الخليلي وشارع الموسكي وعن محل فيه بالذات، وعم إدريس بوابنا القديم، وعم مرزوق الذي كان يدور على البيوت حاملًا فوق رأسه طاولة خشبية عامرة باللبن الزبادي في أوانٍ صغيرة من الفخار، وقهوة أبو عوف هل أجلس عليها مثلما كان يفعل هو أيام زمان، وأنا أسايره وأقول له ما يريح، فقد كنت أحبه وأعرف أنه الوحيد من أهل أمي - بعد جدي - الذي كان متعلقاً بدنياه القديمة، ويشعر أنه بفقدها ضاع..

وعندما سألته عن أمي، قال: ألم تتصل بك؟

قلت: اتصلَتْ مرة واحدة.

قال: إنها في إسرائيل الآن هي وزوجها يعقوب، وسوف يعودان إلى هنا (باريس) خلال أيام.

وفرغ الاتصال والكآبة تكدرني من أمي هذه التي لا تكف عن زيارة إسرائيل، وليس مصر التي تربت وكبرت بها ولها فيها ألوف الذكريات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

أبو السعد أفندي على مقعده المعتاد بالصالة..

سجادة الصلاة لا تزال مفرودة أمامه، ويقرأ من مصحف بين يديه بعد أن فرغ من صلاة الظهر، وخلفه على الجدار برواز يضم عبارة بخط النسخ، تقول: الصبر مفتاح الفرج.

وعلى طاولة قريبة جريدة الأهرام مطوية، وجزؤها الظاهر يحمل كلامًا معادًا عما جرى من سلاح الجو الأمريكي في حقنا قبل يومين، وقطعه لمسار طائرة من طائرات شركة مصر للطيران أثناء تحليقها بالسماء[2]. ومذياع إلى جوار الجريدة، يمد يده إليه بعد أن طوى المصحف، يديره مستمعًا إلى نشرة الأخبار فالتحليل الإخباري ثم يغلقه، فيعم السكوت جنبات الشقة إلا من جلبة خفيفة تُحْدثها زوجته الست نظيرة التي تقف بالمطبخ قبالة أواني الطعام.

ينادي عليها، فتأتي بدينة مكبوسة الأرداف تفوح منها رائحة اللحم المسلوق.

يلتقيها بوجه باسم قائلًا:

- شدي حيلك يا أم هديل، إوعي تكسفينا النهارده اعملي معروف.

تبادله الابتسام واثقة من نفسها ومن طهيها، ثم يدق جرس الباب والخادمة تحمل فوق رأسها صينية تفوح منها رائحة السمن البلدي وجوز الهند، فيمد عنقه متسائلًا:

- ودا إيه دا كمان؟

فتجيب وهي تُخْرج خرقة من جيب المريلة التي ترتديها، وتسند بها ما على رأس الخادمة متجهتيْن معًا إلى المطبخ:

- دي صنية بسبوسة كُتّ بسويها عند أم نبيل، أصل البوتجاز بتاعنا مش فاضي وفرنه صغير زي ما انت عارف.

وتلتفت إليه قائلة، قبل أن يواريها باب المطبخ:

- مش كُتّ تغيره يا أبو هديل، وتجيب لنا واحد من الكبار المستوردين؟

وتغيب عنه وصوته يلاحقها:

- وماله بوتجاز المصانع، شغل بلدنا وعلى قد لحافك مد رجليك.

ويُقْبل بشندي البواب حاملًا أرغفة الخبز الطازجة وأكياس الفاكهة، فيقوم إليه وبعد حوار يدور بينهما ينفعل عليه أبو السعد أفندي طالبًا منه أن يحترم نفسه، وألا يكون رذلًا ولَـحُوحًا هكذا في طلب البقشيش، ومن ضجره أخذ يفتش في أكياس الفاكهة، متهمًا إياه بأنه أكل ثمرة أو ثمرتين على الأقل من كل كيس.

وبعد أن تفرغ الست نظيرة مما في يدها تأتي بهيئة جديدة، جلباب بيتي نظيف وشبشب من منتجات الصين تعلوه وردة حمراء، وشعرها يبدو أنها أعملت فيه أسنان المشط قدر ما تستطيع، غير أنه لم يسمع الكلام أو ارتدع وتموج حسبما تريد.

تجلس قبالته، سائلة عن وقت قدوم الضيوف.

- لسه بدري، معادنا الساعة تلاتة.

ويرمقها بنظرة من يدبر لأمر ما:

- إيه رأيك في جلال يا أم هديل؟

- طيب وابن حلال وعمرنا ما سمعنا عنه حاجة وحشة، مفيش بس غير الحكاية إياها.

- قصدك على حكايته مع نادية، لا لا دا كان شغل عيال.

وتلوح خالتي (بيلا) في خاطره يوم أن ترصَّد لها مرة وحاول أن يخطف منها قبلة، فأفلتت منه مسرعة على الدَّرج.

وتكاد تغرب عيناه، وهو يكمل للست نظيرة:

- ما هو كل واحد مننا في أول زمانه، بتبقى له حكاية زي دي وبتروح مع الأيام.

لحظة ويقول، وهو يميل برأسه متصنعًا الانشغال بإزاحة ذرة غبار بكُمِّ منامته:

- مش يناسب هديل؟

- هديل بنتنا؟

فيعود إليها بعينيه:

- أمَّال! اخطب لبنتك.

تأخذها الدهشة:

- دي ما شاء الله معاها بكالريوس زراعة ومحلتناش غيرها، وهو يعني..

وتسكت ثم تعاود الكلام:

- أنا فاكرة كويس إنه يدوبك خد الثانوية العامة من هنا وسافر على طول، وأم حسن اللي هي سره وزي أمه معايا على طول، ولا عمرها قالت إنه كمل تعليمه ولا حاجة من دي.

فيجيبها متكلمًا من أنفه:

- وهو محمد على باشا كانت معاه شهادة يا ست الستات، وللا عباس العقاد كان كمل تعليمه، وللا الغزالي و ابن رشد كان بيقف قدامهم مدرس ماسك تباشيرة وهما قاعدين قصاده على دكك زي التلاميذ..

- مين؟ مين؟ بتقول إيه يا أخويا؟

فيروح برأسه بعيدًا وهو يتمتم:

- لا.. مفيش.. بقول إن الله يحب المحسنين!

وتهم هي بالذهاب إلى غرفتها، غير أنها تعدل وهي بمنتصف الطريق فتقف وتسأله:

- هو فتح معاك كلام، وللا بان عليه حاجة؟

- الولد لا فتح ولا قال، أنا بس اللي مستخسره.

فتعود إلى حيث كانت تجلس، وهي تعيد حساباتها مرة ثانية:

- دا أنا سمعت إن عنده في البنوك بره شيء وشويات.

لا يعلق، فتعقد كفيها في حجرها سائلة:

- طيب والحكاية التانية؟

- قصدك على أمه وأخواله اليهود؟

فتدنو بعنقها منه..

- يا نظيرة يا بنت الناس مش إحنا اللي هنحرَّم اللي حلله ربنا، الولد مسلم زي ما انتي عارفة ودا بيت القصيد، لكن هتقوليلي أمه وأهل أمه آهو دا الكلام اللي ملوش لزوم.

ومشيحًا بظهر يده:

- بس هو يطلب..

لا تعلق، وقلبها حائر بين (نعم) و (لا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الثالثة بالضبط -وحسب الاتفاق– وجدت الكابتن فريد في انتظاري على الدَّرج حيث اتجهنا إلى شقة أبو السعد أفندي، فالتقانا مرتديًا روبًا على المنامة وفوق رأسه طاقية أشبه بالطرطور.

دخلنا فورًا إلى مائدة الطعام، وبعدها إلى غرفة الجلوس حيث لفتت نظري مكتبة بأحد الزوايا، لها أضلف زجاجية تلوح من ورائها كتب طفقت أقلب فيها لحين قدوم أبو السعد أفندي.

كتب بأغلفة جلدية وأخرى بأغلفة ورقية مقواة، ومنها ما هو مهترئ أو منزوع الغلاف، وبين ثناياها وفي الكِعاب غبار وأشياء كالهاموش ميتة من زمن بعيد، وأكثر الكتب عن التاريخ، التاريخ الفرعوني بالذات، عن خوفو وتحتمس ورمسيس وإخناتون، وكتاب (الدر النفيس في مدينة ممفيس) لأحمد باشا كمال[3] وموسوعة مصر القديمة لسليم حسن[4]، وكتب عن محمد على باشا الكبير والخديوِ إسماعيل والزعيم عبد الناصر وكتاب (خريف الغضب) لمحمد حسنين هيكل، وبالرف العلوي نسخة مجلدة للمصحف الشريف إلى جوارها كتابا طه حسين (مرآة الإسلام) و(الأيام)..

وعدت لأجلس مع الكابتن فريد نتكلم ربع دقيقة ونصمت ثلاثًا، إلى أن لحق بنا أبو السعد أفندي وبيده مذياع بحجم الكف، وضعه على منضدة عالية السيقان وتطرق بنا الحديث إلى كل شيء حتى وصل إليَّ، فحكيت لهما عن زيارتي لسوق روض الفرج وما دار بيني وبين الليثي، فقال أبو السعد أفندي وعلى وجهه الرضا:

- والله كلام جميل، ومعنى كده إنك مستمر معانا؟

فأومأت برأسي..

- ويا سلام يا جلجل لو إنت وصاحبك ده مكتفتوش بالتجارة والمحلات، وبدأتم في مشروع الأرض واستصلحتوا لكم عشرين وللا تلاتين فدان.

فقال الكابتن فريد، وعيناه تطالان أبو السعد أفندي:

- وساعتها تستفيد من خبرة بنتنا المهندسة هديل.

فزاغت عينا أبو السعد أفندي، وبصوت على وشك التلعثم عقب قائلًا:

- هديل! آه.. آه..

ورمقني بعينيه دون أن يلحظ بالطبع أي أثر يبدو على وجهي، فلم أكن أعرف ساعتها من هي هديل؟ بل وحسبتها ابنة الكابتن فريد، وكان لا يروق لي كثيرًا فلم أشرع معه في حديث عنها أو أثارني أي فضول. وحك أبو السعد أفندي دبلته الذهبية بظفره، ثم مد يده إلى المذياع وأداره لينساب صوت ليلى مراد أملس، شفيفًا معطرًا بعَبقٍ قديم لم ينسه قلبي يومًا أو سلاه.

يا طبيب القلب بقيت حبيب القلب..

يا فايتني ونستني ما داوتني من عذاب القلب..

وينساب مع الغناء صوت نادية وهي تهاتفني يوم أن حصلت على مجموع عالٍ بالثانوية العامة، وكنت أعد نفسي ساعتها للالتحاق بكلية الطب.

كانت تقول: «النهارده الجمعة الحق افتح الراديو، ليلى مراد هتغني حالًا في برنامج ما يطلبه المستمعون».

أقول لها: «هتغني إيه؟».

فتصمت خجلًا، وعندما يزداد إلحاحي تجيب بمثل ما تقوله ليلى مراد الآن:

عنيه فيها كلام آه لو قريته..

وف قلبي شوق وغرام ياما داريته..

ويعلو الصوت حولي..

فتذهب أذناي إلى الكابتن فريد، وهو يجادل أبا السعد أفندي في جدوى المشروع الذي أنويه، وأنني قد أتورط وتحيق بي الخسارة. وأعود ثانية إلى نفسي معزيًا حالي، فلا أنا صرت طبيبًا كما تقول ليلى مراد أو حتى حبيبًا للقلب، وألحظ عينَي الكابتن فريد وهما ترنوان إليَّ متوقعًا أن أشارك وأجيبه عما يقول، فتبدو على وجهي الحيرة ويتبسم هو قائلًا:

- جلال! رحت فين يا ابني، تكونش سرحان في باريس والدنيا الحلوة اللي هناك؟

أومئ برأسي له مجاريًا، ويستطرد هو:

- مش كنت توفر الفلوس وتعب القلب ده، وتخطف رجلك أحسن لحد الصين تشتري شوية بضاعة وتيجي توزع وتبيع، والمكسب يا ابني في الشغل اللي زي ده كويس ومضمون.

فيضرب أبو السعد أفندي بكفه على ركبته متبرمًا:

- يا سبحان الله عليك يا كابتن فريد، صين إيه وبتاع إيه!

ويرفع صوت الراديو مشوشًا على كلامه، حيث ليلى مراد في الختام يعقبها حوار يجري مع رجل من رجال السياسة الكبار، يسألونه عن رأيه فيما فعله العم سام بطائرة مصر للطيران، وهو يجيب بكلام رزين عما خسرته أمريكا بطيشها وما كسبته مصر بحكمتها وسماحتها، وكأننا نستمع لحكم في مباراة أو لسياسي من تنزانيا أو الفلبين لا تجري في عروقه من دمائنا دماء! وتزداد ثائرة أبو السعد أفندي:

- يعني ولاد الإيه دول يقلوا أدبهم ويتجرَّءوا علينا كده، وحضرته يقول إننا بسكاتنا بقينا قدام العالم كبار وعاقلين!

فيرد الكابتن فريد:

- وكنا هنعمل إيه؟ دي أمريكا يا أستاذ!

فيلتفت إليَّ أبو السعد أفندي ضاربًا كفًّا بكف:

- بيقول هنعمل إيه! يادي الخيبة!

ويستطرد بكفه الذي يشيح في الهواء:

- دا مفيش حد نطق بكلمة ولا حتى بعتوا لأمريكا مذكرة احتجاج! دا إيه ده روح روح كده يا شيخ!

واستأذنت أنا صاعدًا إلى الشقة، وتركتهما ملتحمين في هذا الجدال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ وكانت مصر قد نجحت في إنهاء عملية الاختطاف هذه التي وقعت بمياهنا الإقليمية، وأرسلت الطائرة المشار إليها وعلى متنها هؤلاء الفلسطينيين لمحاكمتهم بمقر منظمة التحرير الكائن بتونس وقتئذ، غير أن الرئيس الأمريكي رونالد ريجان لم يقبل بذلك، وكلف طائراته الحربية باعتراض طائرتنا في السماء. وقد أصاب هذا الحادث أهل مصر بالخيبة والإحباط، وقام الشباب الغاضب بالتجمع والتظاهر في الجامعات متهمًا أمريكا بالقرصنة والإرهاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

11

- وبعد ما تخلص من عند البقال الله يسترك تعدي على الفرن، وتشتري لي كيلو وللا اتنين قُرصْ على قراقيش على كعب الغزال.

- حاضر.

- بس توصِّيه يا جلال، الحاجة تبقى طازة وابعد عن الناشف أنا مليش سنان.

- حاضر.

أم حسن في قمة الانشغال، فبعد باكر الصبح سوف تقلع بها الطائرة إلى الحجاز.

تتربع على الأرض بغرفة النوم، حبات عرق على جبينها ويداها مشمرتان وإلى جوارها حقيبة من حقائب زمان، ناهيك عن الأشياء المبعثرة أمامها، جلابيب وطرح بيضاء، سجادة صلاة، فردتَيْ شبشب وغيارات، صرر مربوطة بفتلة دوبارة أو زيق قماش، ومصحف تمد يدها وتأخذه من فوق سطح الكومدينو، وتدسه بجيب الحقيبة الداخلي هو ومسبحة بشراشيب خضراء.

وترفع رأسها إليَّ:

- مش كُتّ قايلالك على دستة علب فول خليهم دستتين، والتونة والسردين بدال خمس علب خليهم عشرة.

أسمع وأسكت.

- واللمون كيلو، والبلوبيف والمربى هما هما الست علب زي ما قلت لك.

- فيه حاجة تانية؟

- فيه! دا لسه فيه وفيه! إنزل إنت بس اشتري دول وكل ما افتكر حاجة آديك هتروح تجيبها، ولسه فين لما عمك زغلول البقال يقفل، دا بيفضل قاعد لنص الليل.

لفت نظري بطن الحقيبة المهول، ناهيك عن الصدغين الحديد والرزتين والأقفال والسير والأبازيم، فأشرت إليها قائلًا:

- دي زي الرزية وهتبهدلك يا أمي، وعلى حد علمي لا هيرضوا يقبلوها على الطيارة أو يوقفوها على ميزان.

- خليك إنت بس في الطلبات، وسيبك من الشنطة.

- يا أمي دي عاملة زي الصحاحير اللي كانوا بيحملوها على ركايب ويزفوها مع الحجاج، أيام ما كان الحج بالبر وبيركبوا جمال.

- بقولك إيه يا جلال إلا الشنطة دي، دي مبروكة وراحت الحجاز بدال المرة عشرة.

وخلَّت ما في يدها، وأخذت تعد على أصابعها:

- عمك الحاج محمود الله يرحمه حج بيها مرة سنة ستة وخمسين وحج بيها بعدها بعشر سنين، وأبو نبيل عمل بيها عُمْرتين، دا غير كام واحد في الشارع استلفوها وهما مسافرين.

لم أعلق، وقبل أن أدعها قالت:

- آه والنبي افتكرت، اتصرف لي يا ابني في حزام جلد يكون عريض وله جيوب وكَبَاسِين أحط فيه الفلوس وأتحزم بيه.

- تتحزمي بيه؟

- أيوه أتحزم بيه، أمَّال هحرص على فلوسي إزاي!

وتركتها وهبطت إلى الشارع وقد اتخذت قرارًا بأن أعود بطلباتها وأطير من هنا، فهي لن ترحمني وسوف أهبط وأصعد هكذا طوال الليل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشارع يعرفني الآن..

بشندي البواب، والرجل الأكتع الذي يقف بقِدْرة الفول، وصبية فرن أبو عجوة، والأفندية الذين يقدمون (المشاريب) بكاڤيتريا مرجان، ناهيك عن عم زغلول البقال الذي يعرفني منذ الصِّغَر ويتلقاني الآن ببشاشة يسمع مني ويرص الطلبات:

- وآدي علب التونة والسردين، عايز إيه تاني يا سي جلال؟

- إيه تاني.. إيه تاني..

ولبثت مفكرًا في باقي الطلبات التي حمَّلتني إياها أم حسن، وراح هو ببصره نحو رجل دخل المحل ووقف بحذائي.

تبسَّم له قائلًا:

- أهلَا يا سي فؤاد، ثانية واحدة الله يخليك.

نظرت إلى حيث ينظر فأشار لي الرجل برأسه محييًا، وبدت الدهشة على عم زغلول ووجه إلينا الحديث قائلًا:

- وهو انتوا متعرفوش بعض وللا إيه؟ دا انتوا جيران!

وأشار إليَّ:

- دا جلال أفندي ابن الشارع، كان غايب في بلاد بره ورجع آديله تلت أربع شهور.

ثم راح نحوه بعينيه:

- ودا الأستاذ فؤاد جوز الست نادية اللي ساكنة فوقيك بدورين.

فتلقفته كل حواسي بانفعال..

رمقته وقلبي حذر ويدق، وتلقاني هو بابتسامة ثم مد كل منا يده إلى الآخر. شجعتني حفاوته وحرارة سلامه فأخذت أهز يده مثلما يفعل، غير أن عينيَّ خرجتا عن السيطرة وطفقتا تلاحقانه.

لم أفلح في كبح جماحهما وهما تتنقلان من حذائه الذي يبدو كالأحذية الميري، إلى بنطاله الذي ينزل منفوخًا بلا كسرة تضبط إيقاعه، حتى الحزام الذي يلف خصره ولون القميص لم يفلتا من عيني، في المجمل بدا لي ضامرًا ووجهه بلون التراب وانتفاخات وهالات سوداء تحيط بعينيه.

وكما الصاروخ اقتحمت علينا المكان طفلة بنت خمس أو ست سنوات، احتضنت ركبته ورفعت رأسها إليه تذكِّره بالشيكولاته وباكو اللبان، فخمنت أنها ابنته ورمقتها بمشاعر متضاربة، حُنوّ وشوق وحسرة في ذات الوقت، وربت هو عليها وسألها عن (ماما)، فقالت: إنها بفرن أبو عجوة وحالًا قادمة.

التفت إليَّ بعدها مبتسمًا:

- دي بنتي (ريم)، ويا ريت تشرفنا يوم بعد الضهر نشرب فنجان شاي سوا.

راق لي ما يقول وخف توجسي من أنه ربما يعلم شيئًا مما كان بيني وبين نادية، وكانت ابنته ريم تتململ من انشغاله عنها فحملها إلى صدره وأردف قائلًا:

- وحضرتك كنت مسافر فين؟

- فرنسا.

- وغبت كتير؟

- حوالي عشر سنين أو أكتر شوية.

فرفع حاجبيه:

- ياه.. دا عمر بحاله!

العم زغلول يعرف حكايتي مع نادية كاملة، ظل يتابعنا بأذنيه رغم انشغاله مع زبائن آخرين، ورمقني بجانب عينه وأنا أجيبه بصوت خافت:

- ظروف..

- خير خير إن شاء الله، وعلى العموم نورت وأهلًا وسهلًا بيك.

فأيقنت أنه لم يسمع بي من قبل، وقال عم زغلول:

- أِلِفّ الحاجة يا سي جلال؟

فأومأت له بالإيجاب، وقال لي الأستاذ فؤاد:

- خلاص أنا مستنيك، بس إوعى تنسى تجيب لريم الشيكولاته اللي بتحبها.

فأشارت إلى أحد الأرفف، وهي تقول:

- شيكولاته من دي.

فقال هو:

- وإن جابها هتحبيه قد إيه؟

ففتحت ذراعيها على اتساعهما، وضحكنا..

وربت عم زغلول على يدي وأنا أعطيه ثمن البضاعة التي اشتريتها، فرفعت عيني إليه، كانت نظرته حانية أو ربما مشفقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأقبلت نادية..

فوجئت بي فوقفت لحظة على باب المحل، ثم تقدمت خطوة وعيناها عليَّ، أما أنا فطاشت عيناي، هبطتا إلى حيث موضع قدمي، وبلفتة خاطفة ذهبتا إلى زوجها الأستاذ فؤاد، ثم إلى رف بجدار المحل يحمل علبًا محفوظة وأكياسًا

للشاي إلى جوارها حزمة من أمشاط الكبريت، ولم يفطن عم زغلول إلينا، انشغل عنا بالتشويح في وجه قطة تطل برأسها من الباب.

ترهلت قليلًا وغطت شعرها، ولم ألحظ شيئًا آخر..

عيناي لم تتجاسرا، لا أكلتا وجهها أكلًا مثلما فعلتا من قبل مع الأستاذ فؤاد، ولا سقطت على نهديها وعنقها أو حامت على مواضع كنت يومًا أحوزها..

وقطع علينا اللحظة زوجها قائلًا:

- دا الأستاذ جلال جاركم القديم، أكيد فاكراه.

فمددت يدي مُسلِّمًا، ثم استأذنت خارجًا.

وغفلت بالطبع عن فرن أبو عجوة وعن كيلو الليمون، بل وحتى عن الأشياء التي ابتعتها من عم زغلول، وصعدت مسرعًا إلى أم حسن أقص عليها ما حدث وهي تقاطعني متململة:

- يا دي الخيبة! أمال فين الطلبات؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

منذ هذا اليوم راق لي البقاء بمصر، كما لم أفكر في ترك شقتي القديمة والنزوح إلى مصر الجديدة أو المهندسين..

كانت عزيزة عليَّ..

صحيح هي جماد في جماد، غير أنها جماد له مساكن في القلب.. ولو أنصفت لقلت إني منها ولو كانت جمادًا، وهي مني وإن صورني الله على هيئة إنسان.. فعلى كل بلاطة فيها حبوت بيديَّ وقدميَّ، ومن شرفتها هذه رأيت الدنيا أول مرة، وفوق هذا الفراش دثروني بأول غطاء، وأمام هذا الحوض طالما شببت بهيكلي الصغير لتصل يداي إلى الصنبور.

هذه الجدران الحميمة..

والزوايا التي راح عنها الطلاء..

هذه الصور والخدوش والتعاليق..

والأثاث القديم..

هذا الحيز الضئيل..

الغرفتان والصالة والملحقات..

هو بيتي..

فيه جَدي وهزلي، ودقات على الباب من أصحاب، وموطن سترني بعدما عز على أهل أبي حتى السؤال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المشكلة الآن: هي كيف أدبر المبلغ الذي سوف أبدأ به مشروعي مع الليثي؟

بدأت بالأمر السهل، اتصلت بشريكي اللبناني (أبو الشوارب) في باريس وأبلغته بما عزمت عليه، فأجابني متبرمًا:

- شو ها الحَكِي الفاضي يا جلال!

ولما ضجرت من إقناعه وصممت على أن يرسل لي من رصيد الشركة مبلغًا من المال، بدا الغضب في نبرته:

- مصاري مصاري! من وين راح جبلك مصاري يا سيد جلال؟ ما عندي سيولة بالحساب وما بحتكم على فرنكات، كل مصارينا بضاعة بالسوق.

واحتدم الجدال بيننا إلى أن قال:

- إذا كل مرة راح تجي وعلى لسانك ما في إلا مصاري مصاري، خلينا نصفي الشركة يالليّ بيناتنا وكل واحد ياخد مصارياته ويعمل فيا (فيها) يالليّ بَدَّه.

ودخلنا في شوط آخر من تبادل العتاب وتذكُّر الأيام الخوالي، وهو يختتم حديثه بنبرة مؤثرة:

- يا خيّ جلال، إنت شب طيوب ومعزَّتك بقلبي كبيرة، حط عقلك براسك وما تخرب لنا ها الشركة وها التجارة يالليّ عدنا سنين طويلة نبنيها، وإوعى تسمع كلام الناس عندك بمصر من فليتان وعليتان (من فلان وعلان) وللا أزعر من هُونْ وأزعر من هُونِيكْ.

وكان آخر ما أكد عليه أن أمسح مسألة المصاري هذه من رأسي بممحاة، وأن أعود في الحال، فيكفي أنه فعل كذا وكذا في غيابي وأنه تصرف وحده في مخزون بضاعة الخريف، وها نحن على أعتاب رأس السنة، ويلزم أن نجلس معًا ونقطع الأمر فيما سوف نعزم على شرائه من (مرتجع) المحلات من بضاعة الشتاء، وأنا أعده بالنظر فيما قال وعقلي يدبر ويبحث عمن يمد لي يده بالمال.

ولم يكن أمامي من حل، إلا سؤال أهل أمي..

أول من لاح لي منهم خالي شمعون، غير أني نحيته على الفور فهو (كما خلقتني يا ربي) و(على الحميد المجيد)، وهارون زوج خالتي بيلا رجل نذل بشهادة الجميع، كذلك خالي إيزاك خارج الحساب فهو ثقيل الظل ويمقتني وأمقته.

لم يبق أمامي إلا أمي..

أمسكت سماعة الهاتف، وما إن بدأت في الحديث حتى قاطعتني ساخرة:

- شمام إيه وخضار إيه يا جلال، عايز تسرح بعربية شمام على النواصي، وللا تبيع لك زِرِّين كوسة للي رايح واللي جاي..

- يا ماما!

- يعني بعد العمر اللي إنت عشته في باريس ومعارفك اللي هناك، وتجارتك في حاجات جاڤينشي وشانيل وكريستان ديور، عايز تفتح دكان وتبقى فكهاني

وللا بتاع خضار! افطن لعقلك يا حبيبي ويللا يللا لِمّ شنطك وارجع أنا مستنياك.

ولما أفهمتها أن جوهر الموضوع ليس في الشمام والبطيخ، وإنما أرغب في إنشاء مشروعًا يربطني ببلدي، مشروع يكون لي موطأ قدم أذهب منه وأعود، أجابتني حانقة:

- بلدك! إذا كانت الحكاية حكاية بلدك زي إنت ما بتقول، إحنا كمان ناويين نستثمر في مصر، بس إحنا يا شملول لا بنزرع أرض ولا بنبني مصنع، ولا عايزين نفتح شادر فاكهة وخضار.

فأعض على شفتي، وهي لا تزال تُكمل برتمها السريع:

- خلاص الموافقات على كازينو القمار اللي إحنا ناويين عليه في شرم الشيخ قربت تطلع، بيع أرضك اللي في البلد وصفي تجارتك هنا في باريس وادخل معانا شريك.

فقلت بضجر:

- يا ماما أنا محطش فلوسي في حاجة حرام، ومش هعمل إلا اللي نويت عليه.

ودخلنا في جدل ممض، إلى أن قالت:

- خلاص خلاص إنت حر، وإحنا كمان لا تلزمنا فلوسك من أصله ولا محتاجين لك معانا في مشاريع، أنا بس صعبان عليَّه العبط اللي إنت فيه، وكنت بفتح لك باب رزق محترم وفي بلدك زي إنت ما بتقول، بدال ما تحط مشنة على راسك وتنادي على السبانخ والقرنبيط!

وتجادلني وأجادلها ثانية لتحثني على أن أعود، وأن مصر لم تعد لنا وطنًا حتى نقوي ما لنا فيه من رابطة أو نبحث لنا فيه عن جذور، وأنا أترفق بها بقدر ما أستطيع ثم يشتد غضبي وأقول لها: لا تزوفيني معكِ ولا تتحدثي هكذا بصيغة المثنى، وكلام آخر يخايلني ومنه من صعد حتى سقف حلقي.. كلام له وزن وأذى الأحجـار، غير أني غالبت نفسي ومعقته ثانية إلى جوفي، فهي قبل كل شيء أمي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تعد (أم جلال)، بنت (7) شارع كذا بحي الظاهر..

الشارع الذي طالما ذرعته جيئة وذهابًا، والشقة التي كانت تخرج منها كل صباح إلى المدرسة وتعود، وجارات عرفتهن، من كانت كالأخت الشقيقة أو كالعمة والخالة، أحببنها وأحبتهن، وطالما ضربن المثل بأدبها وانكسارها، وأكبرن تعفُّفها عن الزواج بعد أبي كي لا أضيع وأتفرق بين البيوت.

كبر عودها واكتملت استداراتها على الخبز البلدي وجبن وزيتون عم زغلول البقال وأقراص الطعمية وحبات الفول، وطالما رمقتها تهيم بعينيها مع أغنيات عبد الحليم وليلى مراد وأم كلثوم، وهيا بنا يا جلال إلى السينما نشاهد فيلمًا للريحاني أو عمر الشريف، أو إلى خالتك أم حسن فقد دعتنا للإفطار عندها أول يوم في رمضان.

وماذا الآن..

أصبحت خلقًا آخر، وسنة تلو السنة حتى صارت تاجرة وصاحبة مشاريع وأرصدة في البنوك، وطبع كطبع الذئاب..

تبدلت من النقيض إلى النقيض..

ولا أبرئ نفسي فلعلها تظن بي ما أظنه بها الآن، وأني الذي كنت أسكن أحشاءها وأتمدد بحجرها أصبحت عاقًّا، وغفلتُ عن أنه من جرائي وبسببي طمس الزمن أجمل سنين عمرها بممحاة.

وطال الصمت على سماعة الهاتف، حتى حسبت هي أن شيئًا يحول دون تواصلنا:

- جلال! جلال! إنت رحت فين؟

ولما سمعت سعلتي المصطنعة، أردفت بنبرة من يختتم الحديث:

- أنا قلت لك على المفيد، وشاور إنت نفسك ورد عليَّه بعدين.

- أنا لا بشاور نفسي ولا ليَّه دعوة بالقمار والحاجات اللي تغضب ربنا، وحابب الفاكهة والخضار ومش ناوي أسيب هنا.

- تغضب ربنا!

فعلا صوتي:

- أيوه تغضب ربنا! في شرعنا القمار حرام وكمان في شرعكم، وإذا مكنتيش عارفة روحي اسألي أي كاهن عندكم وللا حتى الحاخام.

فهمت بمقاطعتي، غير أني أغلقت عليها الطريق حتى أفرغ كل ما عندي:

- وعلى فكرة، أنا عارف كويس إن حضرتك وجوزك أونكل يعقوب لو قادرين تفتحوا الكازنيو ده في إسرائيل لكنتوا فتحتوه، إنما إنتم عارفين إن القانون هناك مانع الحاجات دي، ومفيش في إسرائيل كلها ولا كازينو واحد للقمار.

فأجابت متهكمة:

- شرعنا إيه وشرعكم إيه يا متخلف! دا بيزنس وتجارة وفلوس بتشتغل في السوق، والفلوس يا شاطر لا لها ملة ولا عندها دين ولا بتعرف إلا إنها إزاي تكبر وتزيد، فوفر كلامك لنفسك وخليك إنت في الفاكهة والخضار، وإحنا بيك وللا من غيرك كلها كام شهر وجايين.

وبنبرة أشد تهكمًا:

- وناوي بقي حضرتك تقابلنا لما نيجي مصر، وللا دي هي رخره حرام..

وانقطع الاتصال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

ولم ترحمني أم حسن..

فمرة تكلفني بالنزول وشراء علبة دبابيس، ومرة إبرة وبكرة خيط تحسبًا لمزق أو قطع بأي ثوب فالاحتياط واجب كما تقول، ثم تسألني إن كان بالسعودية (نشوق)؟!

تعتريني الدهشة وأقول: لا أعرف..

- خلاص ما دام متعرفشي يبقى انزل اشتري لي حُقين، وعلى فكرة القراقيش طلعت ناشفة، كعب الغزال هو بس اللي طازة ويتاكل.

أقول في سري: أمري إلى الله! وأضع قدميَّ في الحذاء تأهبًا للنزول.

ولم تكف عن إلقاء اللوم على ولدها حسن، الذي استبدل لها الريالات السعودية بسعر أعلى من سعر السوق، وتطلب مني أن أطل من الشرفة على الدكان، ألا يزال مفتوحًا أم أغلقوه؟ وإن كان مفتوحًا هل قليل الأدب (حسن) لا يزال فيه؟

ووقعت الطامة على رأسي عندما شرفت الجارات..

تسع نسوة بطرح وجلابيب، واحدة منهن تجر وراءها عيلين، وأم حسن تتربع على الكنبة تمسك بقدح القهوة وفي حجرها مسبحة محترمة، وأنا بينهن كالمكوك.

- وهات لنا يا جلال الكراسي اللي في الترسينة علشان اللي لسه جايين، وحط شلتة على الكرسي ده علشان خالتك أم نبيل عندها ولا مؤاخذة..

ولا تكمل..

- وبص يا جلال على بشندي البواب واشخط فيه، علشان يطلع صندوق البسبس قوام.

ومن تذكِّرها بمطحنة البُنّ والخلاط، وتضع يدها في عبها لتخرج كيس النقود فتقول لها أم حسن:

- عيب يا حاجة سامية عيب، خير ربنا كتير ولما ارجع يبقى يحلها ألف حَلاَّل، وإنتي بالخصوص مش هاخد منك ولا مليم، إنتي ناسية لما جبتيلي في حجتك اللي فاتت ست أمتار ديولين ومرضتيش تاخدي حقهم إلا بالخناق.

ومن صرفت النظر عن الجلباب القطيفة والشال، استبدلت بهما خاتمًا من الذهب الأصفر عيار 21.

والبخور..

- ومش أي بخور والسلام، بخور من بتاع عطر الكعبة وللا بلاش.

ناهيك عن الطلبات الأخرى، سجادة صلاة، حناء، طُرَح وشيلان، أو مسواك.

- وتعالى هنا جنبي يا جلال واعمل لي كشف بالطلبات، وكل طلب قدامه اسم صاحبته ودفعت كام.

فتنظر النسوة إلى بعضهن البعض بنظرات مشفرة، ويدركن أن أم حسن عازمة على أخذ الحساب مقدمًا أو على الأقل مقدمات وعرابين، فتحجم من تحجم وصادقات العزم يخرجن أكياسهن ويبدأن في عد النقود.

وتجفف امرأة بمنديل من الورق حبة عرق على جبينها، وتقول:

- وصيتك يا أم حسن والوصية أمانة، تقفي على باب الكعبة وتقري لي الفاتحة سبع مرات على اللي في نيتي.

وتتلفت أين تقذف بالمنديل، وهي تعيد:

- آه.. على اللي في نيتي.

أرمق أم حسن بعيني قائلًا:

- أكتب دي كمان؟

فتجيبني دَهِشَةً:

- تكتب إيه! دي حاجات متنكتبش، هي فاتحة واحدة للجميع والسلام عليكم، عليكم السلام.

فتتبرم المرأة قائلة:

- لا لا يا أختي أنا طلبي لوحده وعلى اللي في نيتي بالخصوص، مش أي فاتحة والسلام.

فتشيح أم حسن بيدها ضجرة:

- خلاص خلاص اكتب لها اللي هي عايزاه.

فأمسك بالقلم متمتمًا: والفاتحة لِست أم لبيب على اللي في نيتها.

وأدور ببصري بين النسوة، عسى أن تتحفني واحدة منهن بطلب جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد أن انْكَشَحُوا من البيت وخارت قوى أم حسن أسرعت إلى الفراش، وأول ما وضعت رأسي أقبلت نادية على خاطري.

أقبلت بحاجبين رفيعين على مجرى العيون، واللون الزهري للفستان والمربعات والدوائر والنجوم.. وخاتم يطوق قصبة الإصبع، وذرات نمش على الخدين لا تُرى إلا بعد فحص وتدقيق..

أتت بالأوصاف التي التقتني بها اليوم بدكان عم زغلول البقال، فأين كانت من عيني ساعتها هذه الأوصاف؟! وأنا الذي حسبت أني لم أحظ منها سوى بطرفة عين، وكأني كنت أراها بعين تتحسب وتساير الحال والعين الثانية تعمل في الخفاء!

فهل فينا شيء يعمل بمعزل عنا؟!

شيء بصره حديد، يرى لحظةً ما نرى، غير أنه يرى لنا ما لا نراه، وعندما تكون الساعة ساعة خاطر وتذكُّر يلوح لنا بما رآه..

أم كل هذا الذي أراه وأقوله الآن هوس وخيال، أشغل به دروبًا في القلب خاوية..

ويدنو مني زوجها فؤاد..

يدنو بلباس وسَمْتُ وكلام الناس الطيبين، أراه بعين الخيال وهو يحثني على أن أعوده لنشرب معًا قدحًا من الشاي، يقترب مني ويلاطفني بحلو الكلام وأنا الذي من بضع ساعات عين معه والأخرى على زوجته!

ويهدني التفكير حتى يأخذني السُّبات، لتجيئني في المنام زوجتي خديجة المتوفاة..

أتى الـحُلْمُ على مشهدين..

مشهد تطرق فيه عليَّ خديجة الباب وهي بملابس الحداد، أقف أمامها دهِشًا وهي تداري عينيها عني وتميل بوجهها إلى بعيد، لا أفطن إلا بعدها أني كنت عاريًا وبهذا المنظر الكئيب فتحت لها الباب. ويغيب عن بالي في الـحُلْمِ أنها ليست على قيد الحياة، وأسألها متى سوف تأتي إلى مصر حتى أستخرجَ لها تأشيرة القدوم.

المشهد الآخر كانت فيه بملابس الإحرام، وتقودني إلى المقبرة التي واريناها بها ذات يوم بضواحي باريس.

أقول: من المتوفاة؟

فتشير لي نحو شاهد قبر، مكتوب بأعلاه (نادية بنت الجيران).

وأظل نائمًا إلى الضحى.. لم أصحُ إلا على حركة أم حسن وهي تجر الحقائب نحو الباب، أرى الحقيبة إياها فأقول:

- لا حول الله يا رب! برضه هتسافري بالبلوى دي؟

يغمر وجهها الرضا والاتكال على الله، وتقول:

- قول يا باسط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم جديد ويصل باص شركة الحج والتسفير، ليقلَّها هي وأربع حاجَّات أخريات، وتعلو الزغاريد والتشويح والطل عليها من النوافذ والشرفات، أما صاحبات أم حسن المقربات فقد وقفن أمام باب العمارة، الذي تحدد مسبقًا كمركز للتجمع والانطلاق.

كنا حوالي سبعين نفرًا أو أزيد قليلًا، وعربات صمم أصحابها على مرافقة الحاجات المسافرات حتى أبواب المطار، وعيال يمسكون بمصاصات وبذيل أمهاتهن في آن، أو غلبهم النعاس فبدءوا في البكاء، ومنهم من جلس على باب العمارة وأسند رأسه على كفه ودخل في النوم، ولولا أننا بعد الفجر بقليل لأصبنا حركة المرور في مقتل، وأغلقنا الشارع ومعه شارع آخر أو شارعان.

أم حسن تطل علينا من نافذة الباص، وتوصي الست نظيرة وزوجها أبو السعد أفندي بأن يهتما بي حتى تعود، فيردان عليها في نَفَس واحد:

- جلال في عنينا يا حاجه بس التفتي إنتي لروحك.

ويوصيها أبو السعد أفندي بأن تبتعد عن شمس القيالة، وأن تكثر من شرب الماء قدر ما تستطيع، فتتذكر الزمزمية وتهبط برأسها باحثة عنها وأبو السعد أفندي يقول:

- بتدوري على إيه يا حاجة، تلاقيها مرمية تحت رجلك وللا مزنوقة في الكرسي، ما هو سيرها لافف أهه على رقبتك يا بنت الحلال.

تكتشف أن كلامه صحيح، وتضحك وتُشيح بيدها ساخرة من (اللخبطة واللهوجة) التي أصابتها وتعود برأسها إلينا ثانية، وأنتبه أنا إلى (فلقة القمر) التي تقف إلى جوار أبي السعد أفندي، وتروح عيناي إليها فيلحظ ويقول:

- دي بنتي الباشمهندسة هديل.

أمد يدى مُسلِّمًا وتخفض هي بصرها، وترمقنا الست نظيرة بربع عين ويسعل أبو السعد أفندي سعلة كاذبة، وأم حسن هي الأخرى معنا وتتابعنا من النافذة بعين راضية، وعندما تلمح ابنها حسن خارجًا علينا من باب العمارة بجلباب البيت تصيح فيه غاضبة:

- بقى جاي تتمخطر وتسلم عليَّه دلوقتي يا قليل الحيا والدين! وفينها مراتك والعيال؟ بتشاور لي بسلامتها من الشباك زيها زي الأغراب! هو أنا رايحه أجيب كيس مخلل وللا عند بتاع الطعمية والفول، دا أنا هركب الهوا وأعدي بحر طويل عريض!

فتهدئ منها جارة عجوز وتذكرها بأنها منذ هذه اللحظة في ذمة الرسول، والحج ليس فيه رفث ولا فسوق أو كلمة واحدة تغضب الله، ويقطع علينا المشهد سائق الباص منطلقًا بالحاجَّات ووراءه رهط من المركبات لا يكف عن الزمير، وأصعد أنا إلى الشقة لألملم نفسي وأتجهز للسفر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

عندما وطئتُ زمام البلدة، لم أجد شيئًا مما كان في الذاكرة..

لا وابور الطحين بقامته التي يتصاعد منها الدخان، ولا الساحة التي كانت تعج بالنسوة حاملات قُفَف الحَبِّ أو من يأتي به في أجولة على ظهور الحمير، والحركة والوسع والفرحة بخيرات الله التي تطحنها لهم أضراس الوابور.

رحل..

ورحلت معه العجائز اللائي كن يجلسن أمامه بمشنات الترمس والفول النابت وحَبِّ العزيز، والنصبة التي بجانبه البحري حيث كان أنفار الوابور يشربون الشاي والدخان، أو من يفرش منهم ساعة القيلولة حصيرة في ظل شجرة أو بحذاء جدار، مريحًا جسده من المناهدة والنقار مع النسوة اللائي لا يكففن عن الثرثرة والفصال في أجرة الطحين.

وغاب الرجل الأكتع الذي كان يقف على الميزان، محركًا بذراعه المثنية وكتفه المرفوعة رمانة المؤشر إلى اليمين واليسار، ورفيقه ذو النظارة الملحوم ذراعها بالغراء الذي كان يسجل الأرقام بريشة في يده على قصاصة ورق ويسلمها لمن عليه الدور.

لعلهما رحلا إلى رب كريم، هما والعجوز الذي كان يقعي إلى جوارهما وأمامه حزمة من أعواد الخيزران، يبيع منها لمن يريد أن يؤدب دابته أو يحثها على المسير.

أقاموا محلَّ الوابور أربع بنايات..

بنايات من تلك التي نسميها مساكنَ شعبية، ونسوة من أهل البندر ممن استوطن البلدة يجلسن في شرفاتها بجلابيب النوم، ومن تدلي بسبت من الخوص ليضعوا لها فيه الخضار والطلبات، وتفاصل من أعلى في الأسعار، واللائي يثرثرن بصوت عالٍ أو يحدقن في المارة بجرأة لا تعرفها الفلاحات. وفي الأسفل محلَّ للبقالة يبيع الجبن الرومي والبسطرمة وعلب الفول، ورجل يشوي الدجاج، ودكاكين على كل لون، الذي يعلق على واجهته بعضًا من موديلات العم سام أو من له ڤاترينة معروض بها سجائر المارلبورو والسلاسل والولاعات، والملبوسات النسائية لها هي الأخرى نصيب، بلوزات وعطور وأحذية ذوات كِعاب وثياب تحتية مشدودة على هياكل لأفخاذ وصدور نساء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلفتُّ باحثًا عن شيء أريح جسدي عليه..

مقهى تتناثر أمامه المقاعد والطاولات، ونادل بجلباب بسفرة ومريلة بيضاء يتنقل بين خليط من الأفندية والفلاحين، وعلى مسافة وبحذاء طريق فرعي يؤدي إلى الغيطان عشة بسياج من الغاب المضفور خالية إلا من رجال أنهوا جلستهم ويتأهبون للرحيل، قصدتها وأنا أتابع بعيني صبيًا ساقه مشمورة يرش أمامها بحفنة يده من جردل ماء، وعجوز يتفقد المصاطب الخالية ويرفع عنها الحصير ناكثًا ما علق به من غبار.

ترك العجوز ما بيده، ورمقني وأنا أقترب.

يبدو أنه ظن أني قد لا أميل إلى الجلوس على المصطبة، فأسرع وأتى بمقعد من الجريد، وضعه في ظل شجرة صفصاف كثيفة الأغصان على بعد خطوات، وفور أن جلست قال وهو يحدق في ثيابي:

- بس احنا هنا يا أستاذ معندناش غير المعسل والشاي.

رفعت عيني إليه دون أن أعلق، فأردف وعيناه ترنوان ناحية موقف السيارات:

- الحاجات الساقعة والطاولة والسحلب وكل اللي بيعجب الأفندية، عندك هناك في القهوة الأفرنجي.

وتأملني ثانية:

- ماشي يا أستاذ؟

- ماشي، شاي.

- الله يفتح عليك..

وصاح في صبيه بالمطلوب، ثم قعد بالقرب مني يتحسس ساق الشجرة التي نستظل بها، ويقصف بمطواة أخرجها من سيالته بعض نتوآتها البارزة. لم أسأم منه، تركته لما يفعل وجُسْتُ أنا في الأيام القليلة التي قضيتها بالبلدة وأنا صغير.. أمي تتوجس مما حولها وتحتوى رسغي بقبضة يدها، وأنا مسحور بدنيا الريف.. الشوارع المتعرجة، وبنايات بالطوب النيئ من دور واحد أو دورين، وطيور أبو قردان التي تحوم على شواشي الشجر ساعة الغروب، والبهائم بنعيرها الممطوط الكسول، أو الأغنام الصغيرة التي تلهث وراء أمهاتها بمأمأة لا تنقطع.

أتيت هنا مرة ثانية وأنا في أول الشباب، أتيت وحدي ولم أمكث سوى نصف نهار، لألقى العم إبراهيم وأبلغه بعزمي على السفر إلى فرنسا للحاق بأهل أمي هناك.

العم! العم! فكم أتحسب من لقاء هذا الإنسان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هو الأستاذ ساكن هنا جديد؟

أخرجني سؤال العجوز مما كنت فيه، التفتُّ إليه مشيرًا بالنفي وأقبل الصبي قابضًا بيده على طاولة خشبية فوقها قدح الشاي، وضعها أمامي وطفق عائدًا ثم رجع حاملًا جوزة مشتعلة سلمها للعجوز، فمسح طرف الغابة بكفه واختبرها بفمه مخرجًا دفقتَيْ دخان، ارتخى بعدها إلى جذع الشجرة مربعًا ساقيه، والجوزة بين يديه تكركر بصوت رتيب.

برهة ونظر إليَّ بعينين دامعتين من لفح الدخان:

- أصل الأغراب ملوا البلد زي مانت شايف، اللي من امبابة واللي من الوراق وللا بولاق الدكرور، والناس بَنَتْ لهم عمارات بتتأجر بالشيء الفلاني.

وأشاح بعود حطب في الهواء مهددًا كلبًا يقترب منا، ثم قال:

- هو اسم الكريم إيه؟

- جلال.

- عاشت الأسامي يا سي جلال، أصل يا ابني عمرنا ما عرفنا حكاية الإيجار دي قبل كده، كل واحد غني حتى وللا فقير كان له داره، يعني مطرحين وزريبة وحوش للطيور وباب يتقفل عليه هو وحاله وماله وعياله ولا الضالين آمين، وإذا طب علينا غريب كانت البلد كلها تعرف، وإنت مين؟ وحكايتك إيه؟ ورايح على فين؟ مش اللي جاري اليومين دول!

وطفق يسخر من اللكنة الناعمة التي يتحدث بها هؤلاء الأغراب الذين قدموا إلى البلدة هربًا من ندرة السكن وغلاء الأسعار، والنسوة التي لا تختشي، ورجال منهم كالبغال يجوسون الشوارع بجلابيب إفرنجية تشف عن سيقانهم وسراويلهم التي بحجم الكف.

- ولا بيستحوا يا أستاذ! نكت وقلة أدب وكلام مكشوف، وعيالنا الأوساخ عايمين على عومهم!

برهة وسألته عن وابور الطحين؟

فتنهد مشيحًا بيده:

- ماهَدُّوه يا ابني.. هدوه من سنين، والفلاحين الغلابة اللي زي حالاتي بيشتروا الدقيق دلوقتي من الحكومة، والأعيان وحتى الفلاحين النص نص معدوش بيخبزوا في البيوت، بقوا بهوات دلوقتي وبيشتروا العيش الجاهز زيهم زي الأغراب!

تنهد مرة ثانية:

- فينك وفين أيامك يا حاج كساب؟!

ولعله ظن أني سأستفسر منه عمن يتكلم، فسبقني قائلًا:

- الحاج كساب ده كان صاحب البابور، وإيه! ييجي على الضحى كده راكب البغلة بتاعته.

ويشرح:

- وينزل عمنا الحاج كساب من على البردعة الجوخ، الجلابية إيه! والشمسية تحت باطه والعمة دورين، ووسع يا ولد وإنتي يا بت ويجروا يحطوا له الكرسي الخرزان، وهو بسم الله ما شاء الله عينه على اللي بيجرى قدامه، ويشاور بالخرزانة على الولية اللي مش واقفة في الدور ولا النفر من دول اللي بيتبصص على النسوان، وإيه يا فندي! يندە على أي واحدة خارجة ويجس بإيده الطحين اللي على راسها، وإن مكنش ناعم ومطحون بما يرضي الله، كان يدخل على الأنفار وهات يا زعيق.

نَفَس جديد وعاود الحديث، والدخان يخرج من فمه مع الكلام:

- كان الخير رايح جاي والست من دول اللي ممعهاش حق الطحين يسامح، والمعذور يمد إيده في جيبه ويدِّيه، والكل يرجع على بيته متراضي أربعة وعشرين قيراط.

كنت أنصت وشيء بداخلي يعافر ويعافر، حتى التقط من قاع القاع ركام رجلٍ كهذا رأيته مرة أمام الوابور وأنا صغير، قصير وسمين، له شارب تتخللهُ شعرات بيضاء وخيزرانة كلما أشاح بها تدلى كُمُّ جلبابه، وبدا ذراعه البض مكسوًّا بشعر أصفر وخاتم بفص ياقوت.

لا أعرف إن كانت هذه الأوصاف كانت نائمة بداخلي بالفعل، أم أن خاطري يشاكس ويضيف من عنده إلى مخزون الذكريات؟!

وهل هي للحاج كساب الذي يتكلم عنه هذا العجوز، أم لشخص آخر؟ شخص هجين بعضه من عندي وبعضه مما يوحي به هذا العجوز..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت مؤتنسًا بالحديث وتمر علينا بين الحين والحين أوقات يُطْبِق فيها الصمت، فنتبادل النظر دون كلام أو يدع كل منا بصره لما يجري أمامه. فلاحون يُعْمِلون مناجلهم في أعواد زرع، حماران عن بعد يتبادلان الركلات، أو حتى أشعة الشمس التي تنفذ من بين أوراق شجرة الصفصاف متناثرة على هيئة بقع، تصغر وتكبر فوق قماش البنطال الذي أرتديه كلما اهتزت الأغصان والفروع.

سألت العجوز عن العم، فرمقني بجانب عينه:

- الشيخ إبراهيم، إلا أعرفه!

ودفعه الفضول:

- وإنت بقى ياسي جلال ولا مؤاخذة كده، جاي للشيخ إبراهيم ذات نفسه وللا لحد من عياله؟

- للشيخ إبراهيم ذات نفسه.

- خير إن شاء الله، فيه معاملة بناتكم؟

لم أشف فضوله، قلت وأنا أتهيأ للقيام:

- موضوع كده.

فأجابني محبطًا:

- موضوع، طيب!

ونهض يشير بيده واصفًا لي الطريق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

طغى بيت العم على البيوت التي تحاذيه..

أربعة طوابق وسور من الدبش تعلوه قضبان سنونها كسنون الحراب، ناهيك عن البوابة الحديد.

بدا كالخازوق بين الدُّور الطيبة المسالمة التي حوله، فكلها لا تعلو عن وجه الأرض إلا بقليل ويهفو بك طوبها اللبِن إلى الزمن القديم، ونوافذ ليس عليها رسم أو زخرف أو لها قضبان ومتاريس. نسوة بالطبع تكمن وراءها لكنهن لسن بعبط وسفور النسوة الأغراب، فهن محنكات ويرونك من (ساسك لراسك) دون أن تلمح لهن إصبعًا أو لفتة رأس. والأبواب مواربة، تجتاز عتباتها جيئة وذهابًا طيور وأولاد صغار في حمى كلاب تعطلت أنيابها من طول العِشْرة ومعرفتها للأصول.

أُقيم بيت العم على أنقاض البيت القديم..

الدار الرخية التي تبسمت لي يوم أن أقبلت عليها وأنا صغير، ولا تزال تقاطيعها محفورة بصدري إلى الحين..

البوابة المطبوع بأعلاها من اليمين كف يد وهلال، الكلب العجوز الممدد بحذاء الباب ولا يعبأ بأحد أو يسمع كلامًا إلا كلام الجد عبد الحميد، الدهليز حيث كان يحلو للجد الجلوس على دكة يرمق منها الداخل والخارج، وفي آخر البيت كانت هناك شونة يقعي على عتبتها كلاف عجوز وذبابة تحوم حول وجهه دون انقطاع، وهو يهشها بطريقة آلية وعيناه مغمضتان وبين الحين والحين يتثاءب بصوت مسموع ويعود إلى غفوته من جديد.

أغافل أمي متسللًا إلى الحوش، وأنا أعمل ألف حساب للديكة الرومية التي تتبختر بخيلاء وكل واحد منها له لُغد كبير ومنقار كالسكين، أتحاشاها كي لا تقوقئ في وجهي، مثلما فعلت مرة وهاجمتني ولم ينقذوني منها إلا (بالضالين). وأرمق كوانين عليها قدور تتقلقل أغطيتها من شدة البخار، والجدة جالسة أمامها هي وبناتها فوق قوالب من الطوب. أتوقف محدقًا فيما يفعلون. تراني الجدة. تشير إليَّ بأن أدنو منها، وتهم واقفة ترفع الغطاء عن إحدى القدور. يلفحها البخار فتميل برأسها وتهشه بكف يدها، ثم تُخْرج لي قطعة لحم أو كبدة إوزة. تنفخ فيها حتى تبرد وتضعها في كفي، وهي تحثني على أكلها في الحال كي لا يخطفها مني كلب الجد الذي يرمقنا ويهم بالاقتراب. تلتفت عماتي إلينا ومعهن زوجة عمي إبراهيم، يرمقنني باستغراب كأنما أنا لست ولدهم، وإنما مخلوق غريب نزل عليهم من السماء.

راح بيت الجد..

راح هو الآخر مثلما راح وابور الطحين، وخرج علينا العم بهيكل كبير من الإسمنت والحديد، لا أحسب أنه سوف تربطني به يومًا أية قربى أو وصال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يبدو أن وقفتي أمام بيت العم طالت قليلًا وأثارت فضول صبية يلعبون، إذ أقبل عليَّ واحد منهم جلبابه مشمور حتى أعلى الفخذين، وبين ساقيه عصًا طويلة متوهمًا إياها حمارًا يمتطيه.

سألته: هل هذا بيت العم إبراهيم؟

أومأ برأسه، وتركني مسرعًا وهو يطلق من بين شفتيه صوتًا كبوق السيارة، ويجري هنا وهناك والغبار يلاحق ساقيه العاريتين، وخرج إليَّ فحل بشارب كث، عرَّفته من أكون فقال وهو لا يزال يتأملني:

- يعني إنت ابن عمي؟

أمَّنت على قوله، وهو لا يزال متعجبًا من المفاجأة:

- على كده تبقى إنت أخو ليلى اللي مسافر بلاد برة بقالك سنين!

وبنبرة لا خير فيها ولا شر، دعاني إلى الدخول.

ولجت الباب في إثره، لأصعد على سلم عريض على يمينه تعريشة صغيرة أسفل منها مقعدان من الخيزران، وعلى اليسار حيث المساحة أوسع زكائب مرصوصة فوق بعضها البعض على هيئة صفوف، وثمة غرفة فسيحة في مواجهة الصاعد أجلسني فيها وتركني خارجًا.

الجدران طلاؤها عديم الذوق، والساعة المعلقة في مواجهتي عقربها الذي يشير إلى الثواني معطل، وهي ذاتها تشير إلى زمن غير الزمن الذي كنا فيه. وخليط من كنب الجد القديم وآرائك مذهبة لا تزال بزهوتها، وعلى الجدار صورتان متجاورتان للجد عبد الحميد والعم إبراهيم، والاثنان بالعمامة وعباءة مزمومة عند المَنْحرِ تخفي ما وراءها من ثياب.. الجد تقطيبة على وجهه وحدقتا عينيه متسعتان، ربما كانتا تركزان ساعتها على آلة التصوير.. والعم على شفتيه ابتسامة، وعيناه تقولان إنه يدبر لأمر ما.. وفي زاوية بعيدة ثلاجة مقبضها شديد الاتساخ، على سطحها علبة دواء وطبق غويط، وعندما هبطت بكتفي لأُحْكِم عقدة رباط الحذاء، لمحت برتقالة أسفل الكنبة وبجوارها فردة (شراب).

أقبل ابن العم يحمل صينية عليها كوب به شراب أصفر اللون، كان لاذعًا فأصابني بشرقة في الزور غير أني تحاملت على نفسي وازدرته دفعة واحدة كأنه دواء، وابن العم الجالس قبالتي يرمقني دون تعليق.

سعل سعلة خفيفة، أظنها مفتعلة، ثم عاد بمنكبيه إلى الوراء واضعًا ساقًا على ساق، فجرت عيناي على قدمه البارزة من ذيل الجلباب. الأصابع كلها قوامها غليظ، وبطن القدم مستوٍ بلا تجويف كما الناس، وعندما لاح لي الإصبع الكبير نحيت بصري على الفور، فقد كان هذا الملعون (مدوحسًا) ومنظره مستفزًا. ورفعت عينيَّ، ليبدأ هو الآخر بالتحديق في سحنة وتقاطيع هذه البَلْوَى التي حطت عليهم، أمضينا وقتًا لا بأس به في الفرجة على بعضنا البعض، إلى أن سألته عن البيت القديم.

- قصدك بيت جدي عبد الحميد، ما اتهد بقاله سنين!

وأردف بحماس:

- دا كان بيت فقري ومخوَّخ، شوف البيت عامل إزاي دلوقتي، زي السراية! مَضْيَفة ودور للوالد، ودور لبَّيه، ودورين لخواتي فريد والشحات.

وأنا تراودني رغبة في التبول، غير أني كبحتها وطفقت أتابع كلام هذا البغل وذراعه التي تشير حتى أقبلت عليَّ ذبابة، دفعتها بيدي فولت هاربة نحوه واستقرت على كتفه. تابعتها وهي تلعق نسيج الجلباب، ثم وهي تحلق ثانية وترف بجناحيها حوله إلى أن هبطت فوق رأسه بسلام.

- والشونة؟

- شونة إيه يا سيدنا البيه، ما اتهدت هي رخرة ودخلت في زمام البيت الجديد.

وتبسم:

- دي الكنبة اللي إنت قاعد عليها دلوقتي ولا مؤاخذه كده كانت مطرح ما بتنام الحمير.

لم أعلق، دهمتني نوبة عطس حادة لم أفلح في السيطرة عليها، عطسات قوية تنطلق من فمي، مخلفة وراءها رذاذًا كثيفًا طال بعضه جلباب ابن العم، فرمقني بضجر وطفق يزيحه متأففًا ولما فرغ أردف قائلًا:

- والشباك ده اللي إنت راكن يدك عليه كان مطرح ما بيرتاح الطور، إحنا لا عاد عندنا في البيت دلوقتي شونة ولا يحزنون، البهايم اسم الله عليك بتبيت في الغيط وجنبها غفير.

تأملت ابن العم للمرة العشرين، ثم تطلعت إلى صورة العم وسألته عنه فقال:

- عمك بعافية حبتين.

فسألت بفمي متضامنًا..

- والله تعبان، وَدِّناه لحكيم واتنين وبرضك مفيش فايدة الحال هو الحال.

وأظنه أدرك أنه حان الوقت لرؤية العم، فسبقني قائلًا:

- على فكرة أنا دخلت عليه علشان أقول له إنك جيت، لقيته يا ولداه في سابع نومة.

واندفع الباب عن امرأة برداء لا تعرف منه، إن كانت من أهل البندر أو من الريف، قلت في نفسي إنها أختي، وهي تهلل وتسرع نحوي فاتحة ذراعيها:

- أهلًا أهلًا بالحبيب! أهلًا بالغايب! كل واحد عنده اللي مكفيه، وأنا لوحدي النهارده اللي عندي عيد.

وأنا كمن نزل عليه سهم الله وانحاش عنه التعبير، لم تسعفني مشاعري لحظتها بردة فعل أو حتى بأي انطباع، أو وافتني بحل للموقف الذي أنا فيه.. وقفت فارغًا متيبسًا، غير سهلٍ أو ليِّن بين يديها وأسارير وجهي على الحياد..

لم أتهيأ لتلك الدفقة الـحَنُون، أخلت بتوازني، فلا أنا أعرفها كما يعرف الأخ أخاه، أو حتى رأيتها من قبل إلا مرة أو مرتين، أو جاء لي طيفها يومًا على بال..

وكيف يأتي وأنا لا أعرف لها وجهًا أو هيكلًا، أو ميزت لها نبرة صوت..

كل ما كنت أعرفه أن لي أختًا، أخت من أب تسكن عالمًا غير العالم الذي أعيش فيه، أخت في حالها وأنا في حالي، لا أكثر من هذا أو أقل..

حسبت أن ما بيننا مصمت جاف كحالي مع ابن العم الآن، أغفاني البعد والفراق عن أن بيننا أبًا واحدًا، دمًا واحدًا، يُتمًا واحدًا، وبلا وعي مني.. أو لعل شيئًا بداخلي تحرك وثاب فأبدلني إلى النقيض، ولقيت نفسي ألقي بجسدي عليها مثلما فعلت هي قبل لحظات، وأقبلها على خديها ويديها ومفرق شعرها الذي يلوح من وراء طرحتها السوداء، أسلم كل منا نفسه للآخر، كأننا لحم وعظم يعاود الالتئام.

وأقسمت هي بالله أن تأخذني إلى بيتها في الحال، أقسمت مثلما يقسم الرجال وابن العم يقول:

- طب بس ارتاحي وخدي نفسك يا أم جلال.

وقبل أن تأخذني الدهشة، نظرت إليَّ قائلة:

- أصل أنا سميت ابني على اسمك، هو فيه أعز من اسمك، جوزي على اسم أبويا وابني على اسم أخويا.

وخرجت في كعبها، دون أن ينطق ابن العم بكلمة تدعوني إلى البقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

فراش أختي ليلى مريح، والجلباب الذي أعارني إياه زوجها (محمود) أكمامه واسعة ومليء بالفتحات.

هو من عائلة من نواحي كفر الشيخ، استوطنت بلدتنا منذ عقود.

أناس بسطاء، أبوه يمتلك دكانًا للبقالة ولعمه محلّ لبيع الطُّرح والكُحْل والنشوق وباقي مستلزمات النساء، والعم الثالث اشترى سيارة (تيوتا) نصف نقل ويعمل عليها ليل نهار ليسدد الأقساط. لا يعرفون كار الفِلاحة، ولا عزوة لهم إلا بيوت قليلة الحظ في الجاه والمال صاهروها وصاهرتهم، ولذا كان زواج ابنهم محمود من أختي ليلى بنت البيت الكبير أمرًا غريبًا ومثار حديث البلدة عدة سنوات.

ليلى ومحمود كانا معًا في المدرسة الإعدادية، ويبدو أن لطف محمود وأدبه الزائد عن الحدود كانا مرساله إلى قلب ليلى، فخفق له من بعيد لبعيد، اتجه هو بعدها إلى المدرسة الثانوية فكلية التجارة وهي إلى البيت، افترقا غير أن قلبيهما كانا على اتصال.

تقول ليلى: إن محمود بعد أن حصل على الشهادة الجامعية وعينوه في الجمعية الزراعية، جاء لخطبتها بصحبة أبيه، وأنها رأتهما يومها من وراء الشباك وهما يطرقان على البوابة الحديد، الأب بجلباب مكوي ومداس جديد ومحمود بقميص أبيض وبنطال.

بهدلهما العم في هذا اليوم..

لم يقدم لهما كوب ماء، أو حتى ردهما بكياسة ولين! كان شرسًا، تهجَّم على محمود مشيحًا بيده: من أنت؟ وابن من حتى تتجرأ وتطلب مصاهرتي يا عديم التمييز! ألم يعلموك في المدرسة أن هذا عيب!

وبسبابته التي كادت أن تنال من أنف محمود، استمر في التأنيب: أنت يا جبان تريد النوم في فرشة واحدة مع بنات الأصول، يا سبحان الله! تزفَّت كما تشاء، لكن ليس من بناتنا يا ابن عبد الرؤوف! اذهب لفلان بائع الفول الحراتي أو علاَّن الذي يبيع المقاطف والحبال، فعندهما تجد العروس التي تليق..

وكلما هم الأب بدفع الأذى عن ابنه أخرسه العم بعينيه، ثم استدار له وسمم بدنه بكلمتين، والرجل يتكفأ وينحني على مداسه، ومن ربكته ارتداه بالمقلوب، اليمين في الشمال والشمال في اليمين.

ولم يكتف خرج وراءهما حتى الباب، وبعصاه طفق ينخس بطن عبد الرؤوف والد محمود ويقول: ألا تستحي يا عديم التمييز! ألا تفهم في الأصول يا عويل! أتريد أن تقف بنت الحسب والنسب معك في الدكان، تبيع الصابون والسكر والزيت!

فطفقا يهرولان، الأب يتلفت وراءه خوفًا من أن يقذفه العم بفردة مداس، ومحمود لا يصدق أنه لا يزال في الدنيا مثلُ هذا الحيوان!

ملأ زعيق العم بعدها كل البيت، وأم ليلى -رحمها الله- تخفيها عن عينيه، وهو يبحث من غرفة إلى غرفة وبيده (فرقلة) لها لسانان تكهرب الجسد، ولا يقول الواحد بعدها إلا.. آمين.. آمين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يقف الأمر عند هذا الحد..

فبعدها بأشهر أمسك أحد أولاد العم بخادمة البيت العجوز (أم الكوز)، وهي تخفي رسالة في عِبِّها أرسلها محمود لأختي ليلى، فقد كانت هذه الحيزبون بنت الثمانين مرسال الغرام، تأتي لها بالأوراق المعطرة وتعود بالرد كالحمامة إلى محمود، وأهل البيت غافلون.

شبت النار بالطبع في الجميع..

أولاد العم بالخصوص، اعتبروها إهانة لا تُرد إلا بقطع رقبة محمود، غير أن أباهم ناشدهم ضبط النفس حتى لا يثار حول البنت (كلام وحديت)، وبدأ هو بالعمل في الخفاء، دس على محمود ثلة من أنفاره، افتعلوا معه مشاجرة وأمسكوه من قفاه وغطسوا رأسه في حوض تشرب منه الدواب، ولولا أن تكاثر عليهم الناس لكان محمود الآن في عداد الأموات أو بالقليل من أصحاب العاهات.

مضت ثلاث سنوات بعدها والجميع يظن أن الموضوع مات، إلى أن أوعزت ليلى لأخوالها بالقدوم والكلام مع العم في مسألة الميراث. هم الآخرون من عائلة كبيرة، لكنهم ليسوا في بأس وجبروت العم إبراهيم، كبيرهم كان عاقلًا، أخذ العم باللين ولوح له باحتمال التساهل في أمر الميراث إذا لان هو ووافق على زواج ليلى من محمود، فسال لعاب العم وتمت المقايضة، أخذ هو أرض ليلى بفتافيت، مقابل أن يغض الطرف عن زواجها بهذا الذي اسمه محمود.

فالكُرْه والحنق متأصلان في قلب ليلى حيال العم إبراهيم، صحيح أنهما يلتقيان في المواسم والأعياد وكلامًا مثل هذا يقال:

- سلامات يا ليلى.

- أهلَا يا أبا إبراهيم.

أو من تحت ضرسه يقول:

- وإزي الواد محمود؟

فتمصمص شفتيها وتجيب:

- بخير وباعت لك السلام.

لكن ما في القلب في القلب، وليس لأختي من حيلة إلا الدعاء عليه بالخراب..

قلت لها:

- وتضيعي كل أرضك؟

- ما هي كانت ضايعة ضايعة هو اللي بيدخل حنك السبع بيطلع تاني!

وزفرت:

- وهو كان حتى بيديني الإيجار! ولما اسأله يقول: ما انتي واكلة وشاربة وعال العال، عايزة إيه تاني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان غداء أول يوم بالذات يسيل اللعاب، ذكَّرني بالطعام الذي كانت تعده لنا جدتي عندما أتينا أنا وأمي إلى البلدة أول مرة.

أم الكوز - مرسال الغرام - التي خصصوها لخدمتنا أيامها تدحرج الطبلية حتى تضعها بمنتصف الغرفة التي نبيت فيها، تخرج بعدها لتعود وعلى رأسها صينية الطعام، وأنا أخمن وأسأل نفسي عن المفاجأة التي أعدوها لنا اليوم هل هي لحم مسلوق، أو زوجان من الحمام؟ أم ضجروا منا وسيكتفون برغيفين خبز وحفنة مِشّ!

وتزداد لهفتي وأتابع من ثقب الباب، وإذا طال غياب الصينية كنت أغافل أمي وأخطو عدة خطوات خارج الباب لأتقصى خبر أم الكوز، ولا أشعر إلا وأمي خلفي وتجرني من ياقة القميص وزُغد هنا وزغد هناك، وإذا شعرت مني بمقاومة وأني أتملص منها لأتابع حركة الصينية من جديد، كانت تقرصني في أذني أو تنزل على ظهري باللكمات..

ظلمتني أمي، لم يكن هذا الذي أفعله سوى لعب عيال وطاقة أفرغها، فقد كنا أنا وهي كالأسرى في الغرفة لا نخرج أو يكلمنا أحد إلا بحساب، وأولاد عمي ومعهم أولاد عماتي يزومون في وجهي كلما اقتربت للعب معهم.

أيام.. وها أنا بعد عقدين من الزمان، آكل من طعام البلدة من جديد.

طاولة وعدة مقاعد وليس طبلية زمان، وعلى الجدار المواجه لي لوحة بالألوان لسلة فاكهة، إلى جوارها طبق فارغ عليه شوكة وسكين وضعتا خِلْف خلاف..

الطبق المخصص لي عليه هو الآخر شوكة وسكين كما في اللوحة بالتمام، فضلًا عن ملعقة بجوارها فوطة بيضاء. ولم يحظ زوج أختي الذي يجلس قبالتي بأي شيء من كل هذا اللهم إلا طبقًا مشروخة حافته، وأختي بجلباب البيت وتدفع بالطعام كله أمامي، وابنها جلال يحبو في ذيلها وكلما انحنيت عليه اكتساه الخجل وولى بعيدًا.

الدنيا بخير..

وأنا تغمرني متعة وقلبي مستريح من دفقة الحنان التي تختصني بها أختي، وكفها التي ربتت على كتفي اليوم عشرات المرات..

وآه من الطعام الذي تقدمه لي الآن، فقد تضاءل أمامه طعم البط الفريكاسيه أو بعصير الخوخ وشرائح الرومي المطهوة بعصير البرتقال وكل ما كنت آكله في باريس، وكان الأرز المُعمَّر الذي أعدته لوجبة العشاء أشهى على لساني من المارون جلاسيه وتورتة البلاك فورست أو المارشال.

- وإيه دا يا ليلى؟

- اللي في إيدك دي عكاوي.

- ودي؟

- دي فضلة خيرك مخاصي على شوية كلاوي.

- بس لو كنا أكلنا على الطبلية؟

- ما راحت الطبالي وراحت أيامها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت أيام وليلى ترعاني، ولا شيء يسعدني أو يحبب لي البقاء إلا فعلته، غير أني كلما تطرقت بالحديث إلى من كنت أعرفهم صغيرًا كانت تجيبني باقتضاب، سألتها مرة عن العم إمام خادم جدي عبد الحميد، فقالت:

- عم إمام! هو انت لسه فاكره لحد دلوقتي! ما خلاص كبر وضهره انحنى ومعدش بيطلع من البيت.

أعتدل في جلستي لأستمع إلى المزيد، وأسألها عن عمي وعماتي وأولاد عمي، فقد مضى أسبوع ولا حس ولا خبر أو حتى جاء من طرفهم مرسال يقول أين أنت!

وشعرت بإيقاع الحياة البطيء، وأن ما يجب أن نفعله اليوم لا مانع من أن نفعله بعد يومين، وأن ما نتجهز له غدًا ما الذي سوف يحدث في الدنيا لو استمهلناه أسبوعًا أو حتى أسبوعين.

وكان يلح عليَّ طيف أم حسن، مرة وهي تطلق الزغاريد أول يوم رأتني فيه بعد أن رجعت، ومرات وهي تجلس معي بالشرفة تحتويني بعينيها ولا تقول إلا ما تراه صالحًا لي، كأنما أنا ابنها الذي أخرجته من أحشائها إلى هذه الحياة، وأسأل نفسي مَنْ أقرب إلى قلبي هي أم أمي التي ولدتني؟! وإلى أي من هذين القلبين أنا قريب؟

واتصلت بأبي السعد أفندي فسألني إن كنت قد أحرزت تقدمًا، أجبته محبطًا بأني لم ألق عمي إلى الآن.

- ياه! خمس تيام يا جلال ولسه مقابلتوش! ليه هو إنت طالب مقابلة الملك خوفو وللا الخديوي إسماعيل!

وحثني على أن أكون طويل البال وأن ألتفت إلى كل كلمة تقال، فأمثال عمي من أهل الريف ليسوا بسطاء وإنما هم أساتذة في فن الكلام، وإن كان لهم مقصد أخفوه في طيات الحديث وابتلعته أنت بسيف الدهاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

جلسنا أنا وزوج أختي نحتسي الشاي بالنعناع، وليلى تحكي لي عن هذا العم الذي ترك له الجد ثلاثين فدانًا ودارًا وقطعة أرض فضاء، وأوصاه بأن يراعي الله في أخواته البنات وأولاد أخيه.

- وبعد ما مات جدك ويأول يا هادي راح بايع حتة الأرض الفضا، وبنى بفلوسها بيت جديد مطرح بيت أبوه، السرايا اللي إنت شفتها! وبالعافية كده وزع التلاتين فدان على ولاده الصبيان، كل واحد منهم التلت يزرع ويقلع فيه، واتربع هو على فرشته والناس تيجي له من هنا وهناك، اللي يشاوره في حاجة واللي عايز مصلحة، ويا شيخ إبراهيم إحضرنا النهارده في قعدة صلح وللا شرفنا عندنا كتْب كتاب..

وبظفرها تحك ركبتها من فوق الجلباب، وتقول:

- وسنة ورا سنة وهو وولاده فاكرين إن الزمام زمامهم والأرض أرضهم، وجدي عبد الحميد مخلفش غيرهم!

وترمقني مشيحة بيدها:

- يمكن يكون فريد أطيبهم، اتربى في المدارس وكل الناس بتشكر فيه، لا له في زراعة ولا يعرف حتى غيطه فين! وسلطان أخوه الكبير هو اللي شايف له مصالحه وبيزرع له أرضه.

- سلطان؟

فتذكرني به:

- سلطان! الجحش ده اللي إنت شفته أول ما جيت.

ألحظها وهي تحرك قدمها بحثًا عن الشبشب ويبدو كما لو أنها تتهيأ للقيام، فأستوقفها سائلًا:

- وبعدين؟

- بعدين إيه! توتة توتة فرغت الحدوتة.

أقول دَهِشًا:

- وحقي أنا وعماتي.

- عمتك نفيسة عيني عليها، ماتت وهي بنت بنوت لا طالت أرض ولا حتى جواز! مفضلش غير اتنين هانم وأم الخير، إدَّا كل واحدة منهم قرشين ودمتم يا محسنين!

أشعر بجفاف في حلقي فأمد يدي إلى كوب الماء، وتعاود هي الكلام:

- عمتك أم الخير ولَيَّة صاحبة مرض ومفيهاش حيل للمناهدة، رضيت وسكتت، هانم هي اللي فضلت تناطح فيه ييجي سنتين وبرضك مفيش فايدة! ولما غلب حمارها قالت له: حقي برقبتي، وخدت هما هما القرشين. تقول له: طيب زودهم شوية؟ يقول لها: وهو أنا راجل ليه ذمتين، اللي خدته أختك الكبيرة هو هو اللي هتاخديه، تقول له: يا اخويا يا ابن أمي وأبويا ارحم، السعر مش كده الله يخليك! يقول لها: وهو انتي رحمتيني علشان أرحمك، دا انتي فضحتيني قدام الخلق وخليتي سيرتي على كل لسان.

وبنبرة خافتة:

- وأرضي إنت عارف حكايتها..

ثم يعلو صوتها:

- دا حتى بناتـه، عايـدة وساميـة وزينات منجيوش من ظلمـه! قال لهم: بعد حياة عيني كل واحدة فيكم لها عند إخواتها عشرين ألف جنيه، وتدخل وتطلع من البيت زي ما هي عايزة، وعلى هلة رمضان هتروح لكل واحدة حمارة محملة شيء وشويات، وفي العيد الكبير خروف صاحي دا غير العديات، واللي يتقـرص في ودنه فاكر إنه بكـده عمل اللي عليه! وهما التلاتة جتهم وكسة يوطوا على إيده يبوسوها ويقولوا له: حسك في الدنيا يابا ولك العمر الطويل، ومن بعدك كفى الله الشر البركة في إخواتنا معمرين البيت والغيط.

ويقول زوج أختي:

- بس يا ليلى لسه الدنيا فيها خير وناس ولاد حلال، عندك الحاج حسنين أبو عوف أهه مدخَّلش على ولاده مال حرام، وللا الحاج عبد الغفار المنشاوي وآهو قريبكم وإنتي عرفاه، مش قال: اشهدوا عليَّه يا ناس، كل واحدة من إخواتي البنات هتاخد حقها في الدار قبل الغيط، وفوق دا كله حلال عليهم دهب أمهم وكل اللي يخصها من متاع.

فتجيبه وعيناها تتنقلان بيننا:

- إن كان ده وللا ده، دول يتعدوا أوليا ومن أهل الله، شاور لي كده على ناس تانية عملت اللي عملوه، سِلْو بلدنا كده! يا البنت متاخدش اللي حكم بيه ربنا

يتاخده ناقص حتة..

وتفلت دمعة من عينيها:

- مش حتة واحدة، قول حتتين تلاتة..

وتتجهم صفحة وجهها فجأة، وتقول لزوجها محتدة:

- وبعدين ملكش صالح إنت يا محمود، وحسك عينك تنحشر في اللي بيني وبين أخويا.

يذهب ببصره إليَّ فأنظر إلى ليلى، لا تبدو مكترثة بالحرج الذي أوقعته فيه، ويتشاغل هو بالكوفية المتدلية على صدره، يعبث بها ثم يعيدها إلى حالها الأول، وبرهة ويتركنا.

أسأل ليلى أن تدعوه وتطيب خاطره، تشيح رافضة:

- شوية كده وهو هييجي من نفسه، أصل أنا ممشياه على نظام لا يحوِّد منه يمين ولا شمال.

لا أعلق، وتضغط هي براحتها على ركبتي:

- ناوي على إيه بقى يا جلال؟

- ناوي على إيه، ناوي آخد حقي بالخردلة.

فتلحقني مسرعة، وعيناها تلمعان:

- اسم الله عليك آهو دا الكلام.

وتتسارع أنفاسها:

- إحنا يا خويا تَلَتْ منابات، هو مناب وأبوك الله يرحمه مناب وعماتك الاتنين مناب، وكل مناب عشر فدادين، أنا منابي راح في عب الله لا يربَّحه، وشوف إنت بقى اللي فاضل لك كام؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مكثت بعدها تشد أزري..

وأن أدخل على عمي يقظًا لكلامه الملفوف، فهو داهية يرمي الكلمة ليرى ردة فعلها، يقولها كي تبتلعها أنت ويبني هو عليها بعد حين. يأخذ الذي أمامه في طريق غير مأهول وانحناءات والتواءات إلى أن يخور، وعندها يربت على كتفه ويخرج به إلى حيث يريد.

نبرتها وهي تتحدث حادة قاطعة، بل كانت تدفعها الحماسة أحيانا إلى الدخول في منطقة الصياح، وتبدو لي وكأنها لا تشير عليَّ وإنما تقبض على أذني وتأمرني بالذي أفعله أو ماذا أقول، وأنا قبالتها أستمع، ويطوف في خاطري أن حميتها هذه ليست كلها خالصة لوجه الله! بل ونكاية في هذا العم الذي غلبها على أمرها يومًا ما، وكأن النار قادت فيها من أجلي غير أن أجيجها لم يكن لي بقدر ما هو لها..

فجزء من ليلى ولعله الجزء الظاهر كان يعمل في هذه الساعة لصالحي، والجزء الخفي المطمور الذي يعمل لحسابها كان يشفي غليله من العم، وكأن كل حفنة طين تؤخذ منه لتعود إليَّ هي قطرة ماء تطفئ نارها.

قد تكون معذورة..

فليس لها من نصير إلا واحد من أهلها، وكنت أنا هذا الواحد..

فزوجها محمود وكما يبدو لي لا وزن له ويكاد يكون إمعة، رداء تتدثر به أو مجرد حاشية ترخي عليها منكبيها وترتاح. وأحسب أنها هي التي تزوجته وليس هو الذي تزوجها، رغبت فيه فعقدت عليه وأخذته من يده إلى دارها، فلا حرفة لهذا المسكين إلا الرضوخ وهو في هذا لا يُبارى (وخده مداس)..

وأقرباؤها من الأب وكما فهمت أيدوا العم في فعلته، فأكثرهم لا يزال يظن أن وقوع أرض المنشاوي في يد زوجها الهلفوت سابقة قد تحتذى بها نسوة العائلة الأخريات. وكان أقرباؤها من الأم يخشون بأس العم، ولعلهم قالوا فيما بينهم: طالما أن الأرض ذاتها والتي هي مربط الفرس لن تدخل في حوزتنا وإنما ستئول للغريب، فلماذا الدخول في شجار مع هذا العم فالت الزمام؟ والمقايضة التي باركناها كانت برضاها ورضاه، هو أخذ الأرض وهي رضيت بابن عبد الرؤوف..

لم يبق أمام ليلى إلا أنا فاستماتت لنفخ صورتي، وأنا أسأل نفسي: هل سأكون بالفعل عند حُسن ظنها، أم سأفشل وأضع يدي على خدي مثلها؟

ظللنا على هذا الكلام إلى أن دقت علينا الباب أم الكوز (مرسال الغرام)، ومعها الست (بهانة) والدة محمود.

أم الكوز هذه أعجوبة من أعاجيب الزمان..

العمر على أعتاب التسعين، تجاعيد الوجه لوحة ربانية تقصم ظهر أي رسام، وإن حاكاها ولو حرص تخونه الفرشاة. والعينان لا تراهما إلا بعد مجهود وتدقيق، وتعجب أن صاحبتهما تراك، أما الأصابع الممدودة للسلام فهي لهيكل

مسجي منذ عقود، والغريب أن قوامها ممشوق، والحركة واللفتات كأنها لامرأة على وشك الستين.

عرفتني (بنت الإيه) بمجرد أن قالت لها ليلى: إني جلال أخوها غير الشقيق، ولما دسست في كفها ورقة بنكنوت، أخذت تدعو لي بصوت متعرج وفم لم يبق به سوى ثلاث أسنان..

ومددت يدي مُسلِّمًا على الست بهانة..

لا تقل أبدًا إنها مثل ليلى، شيء مختلف، جلبابها من القطيفة الرخيصة التي توَّبر نسيجها، وطرحة سوداء مربوطة على رأسها ربطة أشبه بربطة العمامة، والأذنان شحمتاهما مشقوقتان حتى آخرهما ويتدلى منهما قُرْط من الصفيح. ولم يكن جلبابها طويلًا، يصل إلى فوق الكَاحِل بقليل، وفي إحدى ساقيها خلخال من الفضة غليظ غشيم، يبدو جلد القدم من حوافه محمرًا وبه تشققات من أثر الاحتكاك. ولا (مَلَس) من الغالي الثمين أو إسورة تحيط بالمعصم أو خاتم بفصوص كنسوة البيوت، أو حتى رائحة طِيب بدلًا من رائحة العجين الخامر هذه التي تفوح، غير أن وجهها كان رخيًا يشع طيبة وفي نبرة صوتها حنو الأمهات.

بدأنا أنا وهي في الكلام حتى أنس كل منا للآخر، وتأتي في بالي أم حسن من جديد، ومعها فنانتنا الكبيرة (فردوس محمد) التي أتقنت دور الأمهات على شاشة السينما في الخمسينيات والستينيات، حتى إني في صباي كنت أخالها أمي أو على الأقل خالتي بدلًا من خالتي بيــلا أُمّ راشيل.

أحببت أن أحنو على الست بهانة في الكلام لأرمم النظرة التي لاحت على وجهها، عندما قالت لها ليلى بامتعاض قبل قليل:

- أهلًا يا خالة، اتفضلي ارتاحي ما هو برضه بيتك ومطرحك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

أخيرًا أدخلوني على العم..

غرفة أشبه بالقاعة يتوسطها سرير يتسع لثلاثة أشخاص يتمددون عليه بكل راحتهم، وقد جُليت أعمدته النحاسية على ما يبدو منذ وقت قريب، فبدت زاهية وتضوي بلون أصفر مع ضوء النهار. وفي الأعلى (داير) من قماش شفيف، وناموسية بيضاء كالحليب ملمومة ومربوطة على هيئة عقدة كبيرة عُلقت بناصية أحد العمدان. جاءت فوق رأسي مباشرة عندما جلست، وكنت أشعر بأنها سوف تسقط في حجري كلما هزتها نسمات الهواء الآتية من الشباك.

عرفت السرير على الفور..

سرير الجد عبد الحميد الذي طالما تأملته برهبة وأنا صغير، وما زلت أذكر يوم أن صعدت عليه مرة ألعب وأتقلب، وكأني في أرض فضاء وليس على سرير. ولاح في خاطري أيضًا عندما كنت أتسلل إلى غرفة الجد ساعة القيلولة، فأجده قد فرد ساقيه وتمدد عليه. كانا يبدوان لي ساعتها وكأن كل منهما خلق للآخر، السرير لا يضاهيه في الحجم سرير، والجد هيكله يفوق هياكل الناس.

ينام عليه العم الآن..

رأسه مُغطّى بطاقية بيضاء، والوجه هزيل منطفئ والعنق ضامر يخب في فتحة الجلباب، وما تبقى من العم مغطى فيما عدا أصابع قدميه التي كانت تطل أحيانًا من ذيل اللحاف.

حاول النهوض فأشفقت عليه وأسرعت لأثنيَه، فتأملني مليًّا وهو يمد لي يده في وضع التقبيل. لم أشأ إحراجه، قبلت يده ودنوت من رأسه مقبلًا جبهته وملوحة تسري في لساني مما بها من عرق جاف، وأراح هو ظهره إلى عارضة السرير وثنى ركبتيه أسفل اللحاف.

وأقبلت فتاة تحمل صينية عليها ثمار عنب لونها قاتم وغليظة القوام، فدعاني ابن العم سلطان لأن أمد يدي:

- دا صنف جديد جاي هدية للوالد من الباشا صاحب العزبة اللي في ريحنا.

ففعلت ومد العم أصابعه هو الآخر إلى حبة عنب ولاكها في فمه، غير أنها لم ترق له فبصقها في كفه ثم رفع عينيه لابن العم:

- مش هو ده برضه زرع الجماعة اليهود، اللي جايبهم الباشا بسلامته من إسرائيل.

- أيوه يا حاج وولاد الذينَ دول بيتكلموا عربي زينا، وواحد منهم اسمه (عزرا) ساعات يلبس طاقية ويعمل زيه زي الفلاحين!

والعم يرمقه ضجرًا:

- يا سلام! وبعدين!

فسكت ابن العم، العم هو الذي استرسل:

- جته خيبة الباشا هو وهما في ساعة واحدة، دا عنب مزز ويشرخ الزور! فينه من العنب الفيومي وللا بز العنزة، دي الحباية منهم ما يعلاش عليها عند اللي يفهم!

ويلتفت إليَّ:

- أهلًا يا ابني.

وبدأ في الحديث، وأنا اكتفي بالإيماءات.

تكلم عن الزمن والصحة التي ولت والجدة والجد عبد الحميد، والدنيا التي تسير بالمقلوب! ويصل لسانه إلى ليلى فيتكدر وجهه، رعاها ورباها مثل بناته ثم ماذا؟ تعصي أمره، وتتزوج هلفوتًا لا يسوى شيئًا في سوق الرجال.

يصمت بعدها ويدخل يده أسفل اللحاف، أشعر بها وهي تصل إلى ركبته وبأظافره التي تحك سمانة القدم. يلحظني فيتوقف ويرمقني، فأبدو أمامه وكأني منشغل بأمر آخر، أحني رأسي وتعبث أصابعي في الزرار العلوي للقميص، تخرجه ثم تعيده. يخرج يده هو الآخر ويريحها على صدره ويبدأ ثانية في الكلام عن أحوال الزراعة، الطماطم والبازلاء والفول وزرعة البصل التي أكلها الدود، ولم يأت من ورائها لا أبيض ولا أسود هذا العام.

صوته يمضي على أذني واهنًا خافتًا، وبرِثْم واحد ليس فيه ذرة انفعال وبلا علو أو انخفاض، يمضي على خط مستقيم دون تلعثم أو توقف أو أية مطبات. جسده منهك بالفعل غير أن عقله موزون، يخرج من موضوع ويدخل في آخر بلا خلط أو التباس، عبد الناصر والسادات وشركة المحاريث والهندسة التي علَّت أسعار الجرارات، ومع كل هذه الثرثرة لم يتطرق بكلمة عن أرضي التي عنده، أو سأل عن أمي أو كيف كنت في سنوات البعاد.

طفق يتكلم حتى أنهكه الحديث، وأحسست كما لو أنه على مشارف نوبة إعياء، وتوقف فجأة وهو يزوغ ببصره، وحبة عرق تتسلل من حافة الطاقية وتنساب على جبينه مخلفة وراءها أثرًا تلحظه العين، ثم مدد ساقيه وحبك اللحاف عليه حتى حافة ذقنه. لم يعد يبدو منه إلا تقاطيع وجهه، وعيناه اللتان يتغشاهما النعاس وتستحلفانني بالله أن أرحل الآن، فنهضت مستأذنًا وهو يتبعني بعينيه إلى أن واراني الباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

أبدت ليلى دهشتها، عندما رجعت إليها فارغًا بلا أي جديد..

- عيَّان! وهو العيان فيه حيل علشان يتسامر معاك ييجي ساعتين!

وبحنق:

- دا بيتصلبط يا جلال..

ومضى يوم فآخر حتى دخلنا في أسبوع، دون أن يسأل عني أحد من طرف العم، فرحت أنا إليه بإيعاز من ليلى كي (أقطع عرق وأسيَّح دم) مثلما يقال.

رحت عدة مرات، وفي كل مرة أدق فيها على الباب كان ينقطع نَفَس البيت، يبدو كما لو أنه مهجور، وكنت أقع في حيرة وأتلفت حولي، وإذا رفعت بصري لأعلى ألمح خيالات تلوح خطفًا وراء خصاص الشبابيك، وكأن ألف عين ترمقني من أعلى وتتفحصني بالتفصيل. وإذا طال بقائي بالباب وشعروا بتصميمي على الدخول، كانوا يدفعون إليَّ بغلام من غلمانهم يرتدي صندلًا وجلبابًا بسفرة وعينه حولاء، لكنه والحق كان محنكًا ومتمرسًا في اللف والدوران.

يلقاني عابسًا، ويسألني عما أريد؟

ويتأملني بعينه السليمة، أما عينه المصابة فتلتبس عليَّ، ولا أعرف إن كانت معي أم تتجه لشيء بعيد. لم آخذ منه حقًا ولا باطلًا، فبعد أن يدخلني إلى غرفة الجلوس، مرة يقول: إن العم نائم وليس في البيت سوى الحريم، ومرة إن عنده (الحكيم)، أو يأتي بحجة لا تخطر لي على بال.

أعض على شفتي، وأقول: أريده في أمر هام..

- ما قلت لك يا أستاذ إن عنده الحكيم، عايز تدخل عليه وهو قالع وبيكشفوا عليه!

- طيب أغيب ساعة وأرجع؟

- هيكون نام.

- أفضل قاعد؟

- أنت وشوقك، بس حلني بقى لما يطلع الحكيم.

فألعن خاشه وخاش أبيه في سري وأظل منتظرًا، وهو على الكنبة التي أمامي ينخر بقشة في ضرسه الخلفي المثقوب، وعندما يصل بي الملل ذروته وأسأله أن يتصرف، يقترح عليَّ العودة من حيث أتيت قبل أن يحل الظلام..

في المرة الأخيرة من زياراتي المكوكية هذه، تصادف وأن لقيت ابن العم سلطان واقفًا بالباب ويجهزون له (ركوبة) يمتطيها، فأسرعت إليه وباغتُّه بكفي الممدودة للسلام. حاول إخفاء ضجره غير أن عينيه فضحتاه، ولما سألته عن العم قال:

- هو ولا مؤاخذة كده بيحلق، يدوبك الحلاق لسه داخل له وبعدها هيستحمى وأنا كُتّ رايح مشوار زي ما انت شايف، إيه رأيك يا ابن عمي تتفضل إنت بالسلامة دلوقتي وتشرفنا يوم تاني؟

فرددت بحنق:

- لا تاني ولا تالت ولا خامس، أنا خلاص تعبت.

- تعبت..

وسبقني داخلًا، وأنا وراءه إلى حيث الكنبة التي كان يجلسني عليها غلامهم الرذل الأحول.

بقينا زهاء ربع الساعة بلا كلام، سوى:

- إزيك؟

- الحمد لله.

- بيتك ومطرحك.

- بارك الله فيك.

ابن العم ظله ثقيل، والذبابة إياها التي كانت معنا المرة السابقة، تطن حائرة حول زجاج شباك مقفول، ظللت أتابعها وهي تفشل للمرة الألف في تخطي الزجاج، وعندما أقبلت الخادمة بأقداح الشاي نهرها ابن العم على التأخير، وأنها أخرته عن ميعاده مع الحاج لملوم تاجر الفول.

لم يَخْفَ عليَّ بالطبع أن الرسالة موجهة لي، وأيضًا لأهل البيت ليتخذوا اللازم إذا لم أفهم وتعشمت في خروج الحلاق، لكن على من؟! طفقت جالسًا (وودن من طين وودن من عجين). وأسقط في يده، فلا أنا في نيتي مبارحة الكنبة التي أقعد عليها، ولا هو قادر على التصريح بتبرمه من وجودي، والوقت

يمضي بطيئًا كأنما أصابه الكساح، والذبابة المسكينة يزداد يأسها ويخفت طنينها من الإجهاد.

ويبدو أن أهل البيت الذين كانوا معنا على الخط فهموا المطلوب، فلم يتوانوا عن تقديم العون لابن العم، وهم في هذه الأمور لا يعدمون الحيلة، إذ برهة وأدخلوا علينا ولدًا يقول:

- سعداوي أبو كف عايزك بره يا عم سلطان.

فأجابه وعيناه عليَّ:

- خليه يستنى أنا جاي له على طول.

برهة ثانية وأتى قائلًا:

- الأنفار خلصت عزيق وعايزة ترَوَّح.

ولما اشتد ضجرهم من كلاحتي شددوا الهجوم، إذ اقتحم علينا الغرفة أحد الخدم يصيح وعلى وجهه غضب الله:

- الطور بتاعنا نطح واحد ماشي على السكة القبلية والراجل بيفرفر، يللا يللا ياسي سلطان قبل ما نخشوا في سين وجيم.

فهب ابن العم واقفًا وينظر إليَّ، ففهمت أنه استنفد معي كافة الوسائل السلمية وعليَّ أن أحترم نفسي وأدع المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدأ حنقي يزداد وأشعر كما لو أنها حرب أعصاب تُمارَس معي، حتى أكِلَّ وأستجير وعندما ألقى العم أكون قد استويت فيفرضوا عليَّ شروطهم..

غير أنه غاب عنهم أن هذا الذي يفعلونه معي جاء على عكس ما يضمرون، فلم يفتّ في عضدي بل زادني إصرارًا، والأهم أنه حسم التردد الذي كنت فيه، فبعد أن كان موقفي مذبذبًا ولا أعرف ما الذي أبدأ به مع العم، هل أعرض عليه أرضي كي يشتريها ولو بأقل من ثمنها وأرتاح، أم أطالبه بها ثم أتصرف فيها على النحو الذي أراه..

بعد أن فعلوا الذي فعلوه خليت من رأسي تمامًا مسألة بيع الأرض للعم، وأصررت على أن آخذها من يده وبعدها لكل حادث حديث. وأحببت أن أستشير أبا السعد أفندي، فهاتفته ليقول لي:

- هو دا الصح، لأن طول ما الأرض في عِبّه هياخدها بتراب الفلوس، خش عليه وتِّبت في الأرض ولم عليه الناس.

- بس يمكن الحكاية دي تطول؟

- تطول تطول إنت وراك إيه.

- ومشروعي مع الليثي؟

- كله بأوانه يا جلال.

وسألني: إن كنت قد زرت قبر أبي؟

فسكت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

بدا الطريق إلى المقابر، غير الذي رأيته من قبل..

كانت شواهد القبور آنذاك لا تُرى بالعين، إلا بعد أن نكون قد تركنا البيوت وأوغلنا في السير لمسافة، والزرع حولنا يترامى حتى نهاية البصر، والطريق ذاته ليِّن تحت أقدامنا ونتهادى عليه.

تبدل حال الطريق..

صار كئيبًا غريبًا ليس بكرًا أو ابنًا للطبيعة، بعد أن جاس فيه بالرصف والتعبيد مقاولو وأنفار هذه الأيام، امتلأ بشروخ وفجوات لا ترحم، حتى اضطررنا أنا وأختي إلى المشي على حواف الغيطان التي بني عليها بعض الموسرين بيوتًا تخلو من الذوق، فلا هي بيوتَ ريفية من الطوب النيئ كبيوت الأجداد، ولا هي بيوت كالتي تشيد في المدن، أشياءً لا طعم لها أخذت من هذه وتلك أرذل ما فيهما.

ولا أعرف أين راحت أشجار الكافور العالية التي كنت أتأمل شواشيها وهي تدور وتلعب في السماء، ولا المصرف القديم حيث كان صبية زمان يمدون أقدامهم في مياهه أو يسبحون، وعندما تنعس الشمس وتولي وجهها للمغيب، يأتون بجلابيبهم ويتحلقون حوله بأعواد الغاب والصنانير.

جف المصرف وامتلأ قاعه بما ترميه فيه الريح عند هبوبها من غبار وأشواك وأوراق شجر ميتة، فيما عدا بعض المواطن التي تلقي فيها النسوة بمخلفات الغسيل وماء الحموم، فلا تزال رطبة ويجرى حولها الماء في مسارات حتى تبتلعه الشقوق، وبعضه راكد آسن له ريم يعج بفُطْر وطحالب خُضْر وذرات روث منها ما تحلل أو تكلس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تصادف أن كان اليوم الذي ذهبنا فيه يوم خميس، وهو ميعاد زيارة من قضوا حدينًا.

فعلى طول الطريق أسراب وأسراب من النسوة بجلابيب سود تحف أذيالها بالأرض مثيرة الغبار، العجائز منهن ضمرت أبدانهن، وطمست التجاعيد ملامح وجوههن حتى تماثلت وبدَوْنَ وكأنهن مستنسخات من بعضهن البعض، وسيقانهن العليلة تجبرهن على المشي على مهل، كما كن وبحق عاقلات رزينات، لا يتكلمن إلا لضرورة والأكثر مهابة على الطريق.

أما الصبايا فذوات استدارات وأجسادهن عفية، ويحملن على رؤوسهن سلالًا مغطاة بخرَق قديمة، أو بشاكير تحوي القُرَص والمِنِين والبلح الجاف، قلة منهن صامتات مؤدبات، والباقيات لا يعنيهن حزن ولا هذا المشوار من الأساس، يتغامزن أو واحدة تقرص الأخرى في فخذها، وتصدر عنهن فجأة ضحكات يعقبها سكون، ولما يتناهى ضجيجهن إلى الكبار وتلتفت إليهن إحداهن، كن يسرعن الخطى بعيدًا عن بعضهن البعض حافظاتٍ توازنهن بلمسات خفيفة على السلال، وكل واحدة تثبت عينيها على الأرض مدعية الأدب والاحترام، ولسان حالها يقول إنها ليست كالأخريات اللائي يحدثن الضجيج، والعجائز المحنكات لا ينطلي عليهن الأمر، يلسعنهن بالشتائم والتوبيخ، أو يُشِحْن في وجوههن بأعواد زرع يلتقطنها من الطريق.

وصاحبت الكلاب مسيرتنا، بعضها مفتون بما تحويه السلال وعازم على اقتفاء أثرها ولو حتى كانت ذاهبة إلى بلاد (واق الواق)، وبعضها يمل من طول المسافة أو يتحسب لاقترابه من مناطق نفوذ كلاب أخرى، فيزوم بامتعاض ويتركنا متمددًا على الأرض، وعيناه ترمقنا ونحن نبتعد.

وكانت أختي مشغولة بي..

تتأبط ذراعي على غير عادة أهل الريف، وتدير وجهها إليَّ وكلامًا في كلام وأنا في شأن آخر، أعيرها أذني وقلبي شارد في ذلك اليوم البعيد، حيث كان جدي عبد الحميد يجلس فوق مقعد من الجريد..

أدنو منه فيحيط كتفي بيده ويشير لي بإصبعه على قبر أبي، وأمي وجدتي كانتا تركنان ببدنيهما إلى جدار المقبرة تتنسمان ريح أبي، وكلما زاد دمعهما تواري جدتي وجهها في طرحتها السوداء، وتكفكف أمي دمعها بمنديل تقبض عليه بيدها، وأنا يزوفني جلال الموقف وأشعر بالرهبة وأن شيئًا كبيرًا يلفنا، وأرمق وجه أمي لعلي أفهم ووجه جدي وجدتي، إلى أن تشغلني حصاة لعينة اندست بين باطن قدمي والحذاء، فأقعيت على التراب أخرجها وهم يستحثونني كي أسرع فقد حان أوان الرجوع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلحظ النسوة حال أختي التي تتدلل في مشيتها حسب عرفهن، وأنا الآخر الشخص النشاز الذي يمضي بينهن بلباسه الإفرنجي ونظارته (الريبان). ينظرن إلينا بشغف أو تميل واحدة على رفيقتها وتتفل في أذنها عنا بكلام، واللائي خلفنا كن يسرعن الخطى ليتجاوزننا بالتفاتة سريعة غير أنها محنكة، ويجاهدن كي يبدون أمامنا وكأنهن لا يقصدن تقصِّي خبرنا وإنما هي مجرد نظرة عين.

وأول ما أشرفنا على المقابر ازدادت الهمهمة، وسرت روح جديدة في الجميع، ابتعدت العجائز عن بعضهن البعض كل واحدة تتلفت وراءها على بناتها، ومنهن من سبقها دمعها فتفتش في عبها عن خرقة أو منديل، أو تمسح عينيها بذيل الطرحة التي على رأسها.

ويبدأ النداء على الصبايا اللائي بالخلف منشغلات بالعبث والثرثرة، وعندما لا تحدث استجابة، تصاحب النداء إشارات حانقة بالأيدي فتنتبه واحدة وتسرع إلى اليد التي تشير، فالثانية والثالثة. يهرولن كلهن للحاق بالكبار، ولكن بحساب كي تظل السلال على رؤوسهن ثابتة، ورغم ذلك تسقط منها أشياء، فطيرة، قرصة، أو عدة بلحات، فتتردد صاحبتها بين أن تمضي في السير أو تميل لتلتقط ما سقط، يحسم لها أحد الكلاب المشكلة، يسرع بالتقاط ما وقع ويعدو به إلى قاع المصرف وفي ذيله رهط من الكلاب ليبدأ بينها العراك.

ونسمع صوت الصراخ والنواح فجأة، تفعلها واحدة ووراءها الأخريات، واللائي يزداد انفعالهن يشحن بأيديهن إلى أعلى وأسفل، أو تعري إحداهن رأسها فتبدو على هيئة غريبة، شعرها المخفي يبين منكوشًا ويخَطُّه بياض مخلوط بالحناء، ووجهها مصفر وكئيب.

الصبايا حناجرهن أكثر صحة وتشعر بأن صراخهن أقرب إلى الجلجلة ويشق الهواء، أما الكبار فكن أكثر حنكة وقدرتهن على التلوين والترجيع والبُحَّة التي تسري في أصواتهن تجعل نواحهن أدق تعبيرًا.

يختلط هذا بذاك ونحن نجوس بين القبور، ويبدون كلهن وكأنهن يبكين ميتًا واحدًا لا أمواتًا متفرقين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أشعر بأختي وهي تجذب يدي، عيناي تتبعان أصابعها التي تشير إلى المقبرة التي يسكن بها أبي، ونسوة حولنا يهمسن بما يحفظنه من آيات وأدعية، ورضع في حجور أمهاتهن، منهن من تغفل عنه أمه فيحبو بعيدًا، تنبهها رفيقه لها فتقوم إليه ضجرة وتقبض عليه من ساقيه وهو يعاند مستمرًا في الحبو على يديه. وعجوز من عمر أم الكوز تجلس أمام المقبرة التي بحذائنا، تحدق فيَّ مستغربة وجودي بين النسوة، أصمد لنظراتها محدقا فيها أنا الآخر، فتستحي وتهبط بعينيها منشغلة عني، ومقرئون على عجلة من أمرهم، يجلسون أمام كل مقبرة يتلون (رُبعًا) بالكاد وأحيانًا لا يكملون، وأعينهم على أي يد تشير، وهلافيت ممن اعتادوا الحضور في هذه الأيام يتابعون حركة السلال، ويمدون أيديهم أول ما يُرفع عنها الغطاء، وأنا أتوسد قالبًا من الطوب أمام قبر أبي وقبالتي مقرئ أتت به أختي.

كان ضئيلًا، عمامته أكبر ما فيه وعيناه بين الحين والحين ترمقانني، وإذا التقت نظراتنا ينزل برأسه متشاغلًا بالتلاوة، كان يتلو سورة (الرحمن)، يتلوها على عجل فلم أستطع متابعته، ولا هو توقف عن التسلل بعينيه تجاهي، وقبل أن يفرغ من تلاوة السورة كاملة غافلنا قائلًا: «صدق الله العظيم».

قلّبت كفي طالبًا منه أن يكمل وزجرته أختي، غير أنه هب واقفًا وهو يقسم لنا بالله العظيم إنه قرأها كاملة كما أُنزلت، نحن اللذان كنا غافليْن! فناولته ليلى ورقة مالية، إلا أنه ردها رافضًا وعيناه تدعواننى أن أتدخل، أخرجت من حافظتي عدة ورقات فخطفها، وكاد أن ينكفئ على وجهه وهو يسرع نحو مقبرة يتلفت أهلوها على أحد المقرئين.

وتأملت الشاهد الرخامي الذي يعلو المقبرة، عيناي ساهمتان وقلبي صامت لا يفصح عما به من انفعال، شريط حياتي هو الذي كان يدور، يدور بحلوه ومره ومشاهد منه تثقل عليَّ وتمضي بالبطيء، وأسأل نفسي: تُرى لو لم يرحل قبل الأوان هذا الراقد خلف الجدار، أكان حالي هو نفس الحال؟! أم كنت أكملت دراستي وصرت طبيبًا، وتزوجت من نادية ولعلّي كان لي منها الآن أولاد، ولم أرحل وراء أمي أو هي تزوجت باليهودي يعقوب..

وتطوف أمامي أيام الصغر.. والأولاد وهم يسيرون صحبة آبائهم، وجدي زكي وليس أبي الذي يوقع على الأوراق التي تخصني، ومن يحنو عليَّ فأحسبه مشفقًا، وراحة يد آه لو كان صاحبها على ظهر الدنيا ومسح بها على جبيني أو لفها حول معصمي..

فلا يعرف اليتم إلا من جربه..

إحساس بالخواء، كأنك قطرة ماء تسربت فتشربتها الرمال، نبتة أخذتها الريح وألقت بها حيثما كان لتطأها قدم أو يلعقها كلب أو يتبول عليها عابر سبيل.

وتهفو نفسي إلى أمي التي هناك، بيني وبينها هي الأخرى بحر كبير، وبلاد وراء بلاد، وحراس يقفون على الحدود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسأل أختي عن قبر جدي؟ فتقول: إنه مسجى مع أبي.

وعن جدتي؟ فتشير إلى نفس المقبرة، وتقول: إنه يفصل بينها وبين ولدها وزوجها من الداخل جدار.

ونقوم راجعين مع نسوة ممن أتين معنا، ونسوة أخريات لا يزلن جالسات على الأرض يتكلمن، أو من توبخ ابنها الصغير الذي فعلها هكذا بلا حياء أمام القبور، والتي تفاصل المقرئ في المعلوم وهو ضجر، نثار ريقه يخرج من فمه

ويلوح بيده ويقسم بالمصحف الشريف: إنه يعرفها هي وأمثالها اللائي يستحللن عرق الغلبان، ويعيد القسم: بأنه لن يتزحزح من موضعه إلا بعد أن تملأ كيسه بالقُرَص وتمنحه جنيهين.

ولا ألحظ على النسوة حزنًا أو آثار بكاء، تفتر الدفقة والحماسة التي صاحبت قدومهن، ويبدأن في لملمة أشيائهن للرحيل.

نصل إلى أول الطريق فأرى عربات كارو تصطف وراء بعضها، وأصحابها الذين كانوا يتمددون في ظلها هبوا واقفين، تُقْبل نسوة ويمتطين أسطح هذه العربات، ونسوة تستحي وتُؤْثر السير على الأقدام، وأخريات يتجهن نحو دواب تقف خصيصًا لهن، وألحظ الصبايا وقد سبقننا بمسافة ويتغنين بأغنية جماعية خلف واحدة منهن صوتها عذب وله إيقاع.

وتخف الحركة بالتدريج، فهما ساعتان وينتهي كل شيء ولا يقترب أحد بعدها من هذا المكان وتعود القبور إلى الصمت الذي كانت فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

وعلى غير توقع، طبّ على بيت أختي مرسال يدعوني للقاء العم..

كنت مستلقيًا على الفراش، وفوجئت بليلى تلج الباب مسرعة وتنبئني بهذا الخبر، وبدون أن تسألني عما إذا كنت مستعدًا الآن للذهاب أم لا، أسرعت إلى الدولاب تخرج لي ملابسي ثم الفرشاة لأمشط شعري، ولسانها بين هذا وذاك لا يكف عن إسداء النصح.

وتتأملني مزيلة بحافة يدها شعرة على كتفي، وخطوة إلى الوراء محدقة في هيكلي وهيئتي، كأنما أنا موظف في الدرك الأسفل من السلم الإداري، واتته الفرصة للقاء أحد مسئوليه الكبار يرجوه علاوة أو ترقية.

وخرجت، وهي تتبعني بعينيها من النافذة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوقت ليس نهارًا، والليل لم يأت بعد..

رحل النهار تاركًا بقاياه تتسكع لكنها سرعان ما تخبو وتنسحب، والليل لا يزال في الأفق غير أن الطريق أمامه سهل وفَرْكة كعب ويصل، فقد كنا في آخر الشهر العربي تقريبًا ولا بادرة تنبئ بطلوع القمر.

أذان المغرب رُفع قبل قليل، والشوارع تخلو من الدواب والبشر، اللهم إلا إوزة تخلفت وتتحسس الطريق، ورجل عَجُول على باب زاوية يخطو مسرعًا بعد أن فرغ من الصلاة قبل الجميع، وسحلية في حجم الإصبع تهبط فوق جدار وفي لمح البصر تتوارى في كومة حطب، وهمس وحركة تأتي من وراء النوافذ والأبواب الموارية..

الدنيا أكثر طيبة ووداعة الآن، وابن عم آخر اسمه فريد يقف بالباب، وأنا أحمد الله أني لم ألق هذه المرة أخاه سلطان ولا الملعون صاحب العين الحولاء.

التقاني فريد مرحِّبًا وصعد بي إلى الدور الثاني الذي يسكن فيه، حيث العم عنده الآن بغرفة الجلوس.

الغرفة ليس بها شيء يجذب النظر سوى العم، ولوحة من ورق الحائط تغطي مساحة لا بأس بها على أحد الجدران، بدت كأرض خضراء منبسطة حتى الأفق وجمع من الخراف ناصع البياض يقتات، وفي الصدارة اثنان من الفلاحين الخواجات بالچينز والقبعات، أحدهما ساقه مثنية والآخر بيده سوط ويشير إلى شيء بعيد.

شدتني اللوحة..

غير أني خليت بصري عنها أول ما شعرت بعينَي العم تلاحقان ما أفعل، كان في مواجهتي نحيفًا مسكينًا أهلكه المرض، وبانت علاماته على جسده الذي كان مستورًا باللحاف يوم أن زرته، بدا خاليًا من الدهن والعضل بل ومن كل شيء، ولا يشغل حيزًا يذكر على الأريكة التي يجلس عليها.

قال بصوت خافت، أول ما رمق كل منا الآخر:

- عجباك؟

وأشار إلى فريد:

- أصله بيحب الصور والتعاليق، والمَغْنَى والمزيكا وكل الهجص اللي داير في مصر!

وبنبرة هازئة:

- دا غير الكمنجة اللي عنده جوه وبيقعد يلعب عليها طول الليل!

احتويت فريد بعيني فبادلني النظر ممتنًّا، وسألته إن كان قد أكمل دراسته، فقال: إنه خريج الكونسرڤتوار.

وقال العم:

- ولما خلص وخد الشهادة قلنا الحمد لله ارتحنا من الكمنجة والعود، يقوم بسلامته يشتغل لي منشد وكل يوم ورا مغنواتي شكل!

يبدو أن فريد كان معتادًا على طباع أبيه في الكلام فلم يبد عليه أي حرج، وأفهمني وهو يبتسم بأنه عضو في كورال فرقة الموسيقى العربية، وأخرج العم قدمه اليسرى من المداس وأراحها على السجادة.

الأصابع عليها آثار دهان بلون أسود، ويبدو أنها كانت تأكله إذ حكها بضجر ولعدة مرات في نسيج السجادة، وكلمة من الشرق وأخرى من الغرب حتى دخل في الموضوع:

- طلباتك يا ابني؟

لم أحضر إلا لهذا الغرض، ورغم ذلك ارتبكت وبدوت أمامه بل وأمام نفسي وكأني فوجئت بالسؤال، ولم يسعفني ارتباكي بكلمة أمهد بها للحديث، دخلت مباشرة في صلب الموضوع:

- الأرض اللي ليَّه؟

فأبدى دهشته:

- أيوه أنا عارف إنك جاي علشان الأرض، إنما عايز إيه من الأرض؟

سكت، لم أفهم السؤال ومن ثم الإجابة التي تُقال، واستمر هو:

- بص يا ابني إحنا لو مسكنا الورق هنلاقي إن لك في ذمتنا حسبة ست وللا سبع فدادين، الشرع بيقول كده وإحنا وراه بنقول آمين..

وأسند ذقنه على قبضة يده:

- لكن هتعمل إيه بالأرض؟

فحرت ثانية في الإجابة، وتمتمت: هعمل بيها إيه..

ونظرت إلى فريد، والعم يرمقني ثم يقول:

- أيوه هتعمل بيها إيه؟ يعني بالعربي كده إيه اللي جواك من ناحيتها؟

وشرع فريد في الكلام، غير أنه أشاح له قائلًا:

- خليك إنت في حالك، وبالمرة كده قوم شوف لنا الشاي اتأخر كده ليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واختلى بي العم معاودًا طرح السؤال، فقلت:

- شيء يخصني وعايزه، أمانة وجاي آخدها..

فهبط بعينيه مدعيًا الانشغال بإعادة قدمه إلى جوف المداس، وبصوت أقرب إلى التمتمة قال:

- أمانة!

وأكمل وهو يحك شَحْمة أذنه بظفره:

- والأمانة دي إن شاء الله عايز تبيعها وللا تزرعها وللا تأجرها؟!

وعاد ابن العم يحمل صينية الشاي ووراءه رضيع يحبو على أربع، حبا عدة حبوات وتوقف، أفلتت فردة (اللكلوك) من قدمه فجلس على مؤخرته يحاول ارتداءها غير أنه فشل، فضربها بكف يده وتركها ماضيًا في إثر ابن العم الذي مال علينا ممسكًا ببراد الشاي يصب منه في الأقداح.

أقبض على القدح وعيناي تنالان من العم..

يقبض على قدحه هو الآخر ويميل برأسه تجاهي فتلتقي أعيننا، ويسارع كل منا بالذهاب في اتجاه. أكبح عينيَّ ولا فائدة، تروح إليه، وألحظ عينيه وهما تناوران لاصطيادي. تمران بطيئًا على ما يدور أمامهما وتأتيان إليَّ. أكون في الانتظار فتوليان بعيدًا. والرضيع لا يهدأ، يشد جلباب أبيه مرة بعد مرة فينهره، يمتثل ويعاود الحبو بطول الغرفة جيئة وذهابًا وضحكات عالية تصدر عنه بغير سبب.

أشار العم إلى فريد بأن يحمله بعيدًا، فأحس الرضيع وحاول الإفلات غير أن أباه تمكن منه، وهو يصيح فوق كتفه ويشير إلى فردة (اللكلوك) الملقاة على الأرض.

وبعد أن خرجا، أمسك بي العم:

- متآخذنيش يا ابني في السؤلات بتاعتي، أصل مش معقول واحد غريب يطب علينا كده على غفلة ويقول إدوني أرضي، ومقعدش أسأل وأستفهم وأتقصى.

أثارتني كلمة (غريب) وأبديت له دهشتي منها، غير أنه لم يحفل وقاطعني قائلًا:

- خلينا في المهم واسمع مني المفيد، إن كنت يا ابن الحلال ناوي تزرع وتقلع معانا أهلًا وسهلًا بيك، ومن الصبح أجيب لك القيَّاس وتعرف إيه اللي ليك وأفرزهولك على جنب.

وبإصبع السبابة:

- بس يا بطل علشان أعمل كده لازم في الأول تنفض الهدوم دي اللي عليك، وتعيش عيشتنا آكل شارب نايم زيك زينا.

ويروح عني بعينيه مكلمًا نفسه:

- معلوم تقعد معانا، أمال هتخلي بالك من حاجتك إزاي..

ويعود إليَّ:

- وتشتري لك بهيمة ولا اتنين وحتة بيت كده على قدك، يعني بالمختصر المفيد تفلح في الأرض، إيه قولك؟

ويتأمل وجهي ثم يردف:

- والست بتاعتك مش معقول هتسيبك لوحدك، آهو تيجي تآنس وتنور تعجن وتخبز وتقعد قدام الكوانين زيها زي حريمنا.

تمالكت نفسي وقلت:

- وإن كان مش عاجبني ولا حرف واحد من الكلام اللي حضرتك بتقوله يا عمي!

- عداك العيب، يبقى عايز تبيع؟ أصل مش معقول عايز تأجر! إيجار بإيجار إحنا أولى من الغريب، وللا يكون في خاطرك تبوَّر الأرض؟ وده ميرضيش ربنا، أرض عفية تنساب كده ومحدش يستنفع بيها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورجع فريد..

حاول أن يعرف ما دار في غيابه، غير أن العم أشار له بأن يغلق فمه، وقال لي بنبرة لينة:

- متقولي على اللي في ضميرك وأنا أريحك.

لم أبال بكلام العم، درت بوجهي نحو فريد أعيد عليه الكلام الذي جرى، فسأسأ بفمه ثم قال:

- إيه الكلام ده يابا!

فانتفض العم بنصفه العلوي خارجًا من الأريكة ويشير بيده نحو فريد، وبصوت مستهزئ ورنة خنفاء أعاد عليه الذي قاله: «إيه الكلام ده يابا!!»، وأنا أحدق في تقاطيع وجهه. جبينه الذي تعرج، عيناه اللتـان أُغمضتا إلا قليلًا وأنفه الذي تدلى مُخْرجًا كل هذه الخنافة، وتوتر الجو، وبدا الغضب على وجه فريد:

- فيه إيه يابا؟ هو اللي يقول الحق يبقى دا جزاته! أرضه يابا أرضه! يزرعها يبورها يولع فيها، يعمل اللي يعمله!

- بتقول إيه يا مزيكاتي يا بتاع آه يا ليل يا عين، إنت تشوف لك طبلة تطبل عليها، زمارة تزمر بيها، آدي اللي إنت فالح فيه إنما لحد الكلام التقيل...

وفعلها قبل أن يكمل عبارته..

أصابه شيء أسكته مرة واحدة، فأسرعنا إليه..

أنفاسه تخرج متقطعة، ورعشة بأصابع يده التي تشير لفريد بأن يسرع إليه بالحبة التي توضع أسفل اللسان، فأسرع خارجًا وشرعت أنا في الاقتراب منه

فأشار لي براحة كفه بأن ألزم مكاني!

ثوانٍ ورجع فريد ووراءه امرأة كما الفيل، أظنها زوجة عمي، ناولته حبة الدواء وأنا في حيرة من أمري، هل هو مريض بالفعل، أم (يتصلبط) مثلما تقول ليلى؟

صاحت فينا زوجة عمي:

- بالراحة! بالراحة يا أستاذ جلال على عمك! وإنت يا فريد إخص عليك إنت عايز تفرفر أبوك؟!

وتكومت على الأرض تدلك ساق العم، من كَاحِل الرجل حتى مفصل الركبة.. الساق عجفاء لا طراوة تجري فيها ولا دماء ولا أي شيء يريح النظر، جلد على عظم على آثار خراج ببطن الساق، وهي تقرأ الصمدية والمعوذتين وتستعيذ بالله من إبليس اللعين، ومن الظَّلَمة المجرمين وكل من يتجرأ على عمه ويؤذيه..

وهكذا على مدار ربع الساعة إلى أن فتح العم عينيه وتأملنا بدهشة، كأنما كان نائمًا واستيقظ ليُفاجأ بنا إلى جواره، وبعد أن اعتدل في جلسته أشار إلى امرأته أن تذهب الآن وتدعنا معه، فترددت لحظة ثم أذعنت خارجة وهي تعاود الصياح:

- على مهلكم يا ناس! على مهلكم الراجل مش حمل كده، إنتوا عايزين تودروه!

ومضت برهة والعم يسبل عينيه تارة ويفتحهما تارة أخرى، وفريد قَلِق ويشعر كما لو أنه تسبب فيما حدث لأبيه فلزم الصمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

وبدأت الجولة الأخيرة..

رمقني العم بكآبة وقال:

- اسلك معايا الله يخليك، وقبل ما ناخدوا وندوا في الكلام عايزك تفطن لحاجة مهمة، هي إن اللي يفرط في أرضه ميتعدش من الرجالة ويتعاير بكده زيه زي اللي يفرط في عرضه وشرفه.

فقلت وأنا أصطنع بسمة تؤازر كلامي:

- وإيه دخل العرض والشرف في كلامنا يا عمي؟

- لك حق تقول كده، ما هو إنت أفندي لا عارف طبعنا ولا إيه اللي يفرحنا أو ينكد علينا ويخلي رقبتنا قد السمسمة.

ثم يرقق من نبرته:

- إسمع يا ابني، أرضنا كلها ومن أولها لآخرها سوا اللي معايا ولا اللي إنت بتقول عليها بتاعتي هي أرض المنشاوي الكبير.

ويتلاعب بنبرة صوته:

- من زمن وهي في حضننا، عندنا أُجَريَّة بتزرع وتقلع ومحرات واتنين بيمرحوا فيها وكل موسم تتبدر تجار رايحين جايين على المحصول، وبناكل ونشرب منها ونفرد قلوعنا على الناس ونلبس الوبر والكشمير، يعني بالمختصر المفيد هي شرفنا وعزوتنا قدام الخلق، ولما انت تشد منها حتة وغيرك يشد حتة الأرض هتروح من أيدينا، وشوية شوية هنبقى أجرية زينا زي باقي المخاليق.

ويدنو مني برأسه قائلًا:

- ترضى لنا بكده..

ويسكت وعيناه تفتشان في وجهي عن ردة فعل لما يقول، فيجدني ساكنًا محدقًا ولعله ظن أنه على الطريق الصحيح وأني أكاد ألين، فيرخي قسمات وجهه مكملًا:

- وأنا مش هظلمك، هريَّحك على الآخر زيك زي أختك، إنت يرضيك إني كُتّ أسلم الأرض للبت الخايبة دي علشان جوزها المايع ده أبو بنطلون وحزام يبرك على أرض المنشاوية عيني عينك وقدامي!

وبيمناه التي تشوح في وجهي:

- والله ما تحصل أبدًا! دي كانت تروح فيها رقاب.

- يا عمي دا شرع ربنا!

- أعوذ بالله وهو حد قال كلمة في شرع ربنا، هو أنا لا سمح الله نكرت حقها وللا قلت محدش له عندي حاجة.

وبكف يده يمنعني من المقاطعة:

- هتزرع بأيدك وعرقك خد أرضك، هتأجر إحنا أولى، وآدي كل اللي ليك عندنا.

- يعني مقدرشي أتصرف فيها؟ مقدرش أتصرف في حقي؟

- حقك! ويا بتاع المدارس ياللي بتقول حقي، الأرض هي كمان لها حق عليك.

لم أعلق تركته يفرغ كل ما عنده.

- أيوه لها حــق عليك، إنك متبـددهـاش، متـفرطـش فيـها لفـلان وللا علاَّن علشان يكايدونا بيها وينزل فيها فاس وللا محرات غريب، عايز تفرط فرط لأقرب واحد لك.

فسأسأت بفمي..

- بتسأسأ ليه.. وهو إنت جبتها بعرق جبينك يا سي جلال، علشان تتصرف فيها زي مانت عايز؟ مانت واخدها من المنشاوية!

- منشاوية؟ ما أنا منشاوي زيي زيكم!

- منشاوي بالاسم، لا حالك حالنا ولا عوايدك عوايدنا، لا شاركتنا في فرح ولا دفنت معانا ميت ولا وقفت معانا في انتخابات أو حتى قعدت معانا في دَوَّار، وبعدين جاي مشمر هدومك وعايز تاخد الأرض وتجري! يا صلاة النبي!

واشتدت حميته:

- تعالى هنا قولِّي إنت جيت البلد هنا كام مرة؟! ومين اللي يعرفك فيها؟! وجيت لوحدك كده على بيت عمك وللا حد دلك عليه؟! دا ابني سلطان الله يكرمه قالِّي: إنكم مكنتوش عارفين بعض، وبلاش سلطان، أختك ليلى إنت عمرك سألت عليها وللا بعت لها مرة جواب من بلاد بره؟ ولا احنا كنا نعرفوا لك سكة علشان ناخدوا رأيك في جوازها؟

ويعود بمنكبيه إلى ظهرِ الأريكة:

- طب ويالله بتقول أنا منشاوي زيي زيكم! تعرف إن لك قريب اسمه مرزوق، لقيوه مضروب عيارين على السكة من ييجي شهرين وإخواته عايزين ياخدوا بتاره، وأنا عَمَّال أهدي فيهم وأشوف هنطلعوا من المغرز ده إزاي؟! وللا ياسين وآهو قريبك هو راخر ومات فطيس، غرق يا ولداه وقعدنا تلت تيام على حرف الرشاح لما قَبّ على وش المية؟!

وبحدة تستفز:

- إنت تعرف إيه عننا، وللا عن الأرض اللي بتتكلم عليها دي؟ هي فين؟ في آني حوض؟ ومزروعة إيه؟ وجاي لنا حضرتك بالبدلة والنضارة وحاطط لي ريحة، وبتقول سلمولي أرضي أتصرف فيها كيف ما بدالي؟! يا أخي دا إيه ده!

ويتأمل وجهي مسددًا آخر أسهمه:

- الأرض دي يا ابن أخويا مش أردب قمح وللا قنطار قطن تبيع وتشتري فيه، دي زي النَّفسَ الواحد يفضل متثبِّت فيه لحد ما روحه تطلع، اتولدنا وكبرنا عليها وعلى خيرها، وأنا لما بروح الغيط وأنا في السن دي مبيرحش من خيالي لما كُتّ عيل صغير ماشي في ديل أبويا، وهو بيشاور هنا وهناك على اللي بيبدروا التقاوي وللا اللي نازلين عزيق وللا اللي شايلين المحصول وخارجين بيه على ضهر الحمير، وتلاقيه هو كمان كان بيفتكر نفسه لما كان بيمشي في ضل أبوه وجده وهما رايحين جايين عليها، إصحى يا جلال، وإن مكنتش يا ابني قادر تصون أرض المنشاوية سيبها لأقرب الناس لك وهما يصونوها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنا ندور في حلقة مفرغة، وعم (رجله والقبر) يمسك بتلابيبي بيد من حديد..

هيكله كهيكل العظم وقد يضيع في لحظة انفعال، ومع ذلك الأرض الأرض حتى آخر نفس. الأمر كما أفهمه مجرد مال ومصلحة أحققها من وراء بيع الأرض، أما بالنسبة له فهي الحياة والشرف والعرض، صحيح أنه طماع ويريد (التكويش) على كل ما تركه الجد عبد الحميد، لكن هل كل المبررات التي يسوقها لي الآن تنبع من جذوة طمعه هذه، أم فيها شيء من الحقيقة.

ليس الحقيقة في جوهرها، وإنما الحقيقة التي تخصه هو..

هل يذود بالفعل عما يظنه صحيحًا، أم أن المسألة طمع في طمع؟!

سؤال لا إجابة عنه إلا إذا سبرت أغوار نفسه، تدليت إليها وعلى عيني نظارة مكبرة وبيدي منكاش وباليد الأخرى مصباح مما يُستخدم في أعماق الماء

المظلم البهيم. وحتى لو فعلت ذلك، من هذا الذي يقدر على البحث في صدر هذا العم الواعر الكهين، الذي يذهب بك إلى حافة الماء ويعود بك ظمآن..

عم في السبعين ولا يفهم إلا الذي يقوله، ولا يبتعد قيد أُنْملَة عن ابتلاع أرضي، وأنا أمامه كالكسيح سواءً بسواء. دنيا غريبة عليَّ، ولا سند لي إلا أخت ليس في مقدورها إلا الكلام، وزوج أخت هو والعدم سواء.

هل كنت أثور عليه؟

كان سوف يتهمني بقلة الحياء، ويطردني من البيت.

أتماشى معه وأقبل بالفُتات مثلما فعلت ليلى وعماتي؟

وهل أقبل أن تنكسر إرادتي، ويؤخذ مني حقي غصبًا.

ضاقت بي السبل وأصابني الإعياء من هذا الجدل الممضّ، فقلت بيأس:

- هات من الآخر يا عمي؟

- عليك نور من الآخر، زراعة مش هتزرع؟ صح؟

- صح.

- إيجار، هتأجر لنا مش للغريب؟ صح؟

- ومأجرش للغريب ليه؟

- علشان مش هتقدر، لإن مفيش حد يستجري يهوِّب من الأرض إلا برضايا، وإلا تنكسر رجله ويندفن هو وفاسه ومحراته على راس الغيط.

- والحل؟

- يبقى عايز تبيع؟

- افرض.

- تبيع لنا؟

- وبرضه للغريب لأه.

- ولا بني آدم فيكي يا منصورية يقدر يقرب ويقول أشتري.

- ولو حبيت أبيعها تشتريها بكام؟

- الفدان بعشر تلاف، وأنا مقدرتي أشتري في السنة فدان واحد، يعني السبع فدادين على سبع سنين.

- بس يا عمي أنا سمعت إن سعر الفدان تلاتين ألف.

- اللي بقولك عليه ده هو سعر البيع والشرا، وكلام ليلى وجوزها أبو بنطلون محزَّق ميدخلش في ذمتي بمليم.

- وإن موافقتش على الكلام ده؟

- توافق متوافقش، إعمل اللي يريحك.

- وإن مرضتش أبيع من أصله وعايز أرضي؟

- يبقى تاخد الواجب بتاعك وطريق السلامة مطرح ما انت رايح، وكل سنة يجيلك إيجارك.

- دا آخر كلام يا عمي؟

- عن إذنك أنا داخل أنام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما رجعت إلى ليلى، وضعت يدها على خدها.

قلت:

- مفيش غير المحكمة.

فرفعت رأسها إليَّ، وقال زوجها:

- وحتى لو خدت حكم مش هتعرف تنفذه، وإن قدرت تنفذ لا هتعرف تبيع ولا تأجر لغيرهم.

فكبَّبت ليلى في وجهه قائلة:

- اسكت اسكت! حط لسانك جوه بقك وملكش دعوة، وإنت يا أخويا على المحكمة دوغري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

23

في مكالمة سريعة أبلغني أبو السعد أفندي بأن الأستاذ فؤاد زوج نادية في حال خطر، وأنهم نقلوه إلى المستشفى العسكري بكوبري القبة.

فقلت بصوت خافت:

- الأستاذ فؤاد..

- وف غيبوبة، ربنا يستر..

لبثت ساهمًا بعدها والأستاذ فؤاد يلوح أمامي عندما التقينا بدكان عم زغلول البقال، السماحة تغمر وجهه والوداعة تبدو في نظرات عينيه، واعتراني الأسى. أشفقت عليه، فهو لا يستحق الألم أو لبدنه طاقة على مكابدة المرض، ورغم ذلك خايلني خاطر يحبب لي ما وقع وأنه ربما يلحق بي الخير من جرائه، فقد يذهب الأستاذ فؤاد ويخلو أمامي الطريق..

خاطر ألح عليَّ وأنا أقصيه، أقصيه والخزي يملؤني، وأسأل نفسي من أين جاء؟ فأنا لا دعوته أو حتى شاركت في صنعه..

خُلق بمعزل عني..

نفثته مضغة في القلب دون أن أُستشر، مضغة لا أسايرها فيما تقول، غير أني لا أملك زمامها أو أحول دون ما تبوح به..

خاطر جاء وراح مخلفًا كآبة على الكآبة التي كنت بها، فقد كنت قادمًا للتوِّ من عند العم إبراهيم ويغمرني إحساس بأني لست ابنًا بين أهل، أو حتى صاحب حق بين كرام وأصحاب فضل، وما أنا إلا امرؤ له خبيئة بأيدي لئام و(أولاد حِنت)، وأردت الرجوع ثانية إلى القاهرة، إلا أني آثرت التريث ليوم أو يومين للقاء العم إمام خادم جدي عبد الحميد وتابعه الأمين.

ذكرياتي في الصغر تحمل له الكثير، فهو أول من علمني مفردات الريف..هذه حبة قمح وهذا عود برسيم، والتي غسلها الآن ويحملها لي بحفنة يده ثمار توت أو حبة جّميز. ولم ينقطع عن زيارتنا بشقة الظاهر، إما لتسليمنا (الشهرية) التي التزم بها العم تنفيذًا لوصية الجد، أو يكون بالقاهرة لغرض آخر فيمر علينا للسلام.

كان خفيف الروح لا تهدأ حركته، ولم أسأله مرة شيئًا إلا قال: حاضر ياسي جلال، على عيني وراسي يا ابن الناس الطيبين، أما هو وجدي فتلازما صباح

مساء، وكان يفعل له الشيء حتى قبل أن يفكر فيه، وإذا تصادف مرة ورأيت الجد يجلس وحده، تثور دهشتي وأقول: فأين إذًا العم إمام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذني زوج أختي من حارة إلى مصرف إلى زقاق، حتى وصلنا إليه.

حال البيت أشبه بحال رجل مسكين.. الجدران بطوب نيئ باش بعضه بفعل المطر، وبقر القيظ وندى الفجر بعضه الآخر مخلفًا فجوات عميقة يمكن لدجاجة أن تلَّبد فيها وفي حضنها ثلاثة كتاكيت. والسقف بأفلاق نخيل وسيقان شجر غير متساوية، فمنها ما يبرز بروزًا ملحوظًا عن حافة البناء ومنها ما يصل إلى الحافة بالكاد، وأكوام حطب ناشف وأقراص (جِلَّة) جافة رُصَّت بعناية، ومساحة لما لم يجف منها ولا يزال بلون وطراوة الروث، وثمة نخلة بائسة تقوست ساقها على نحو ملفت، وتدلت من سَعفَها المتهدل ثمار بلح جفت قبل أن تنضج.

يطرق زوج أختي على البوابة، فنشعر بيد ترفع السقاطة من الداخل، ورجل على رأسه عمامة يطل علينا من فتحتها المواربة، يلقانا بِبِشْرٍ وتصافحنا يده.

يقول لي زوج أختي: إنه الشيخ مسعود ابن العم إمام، اكتفى بإعدادية الأزهر ونصَّب نفسه شيخًا لأحد الكتاتيب.

ويشير بإصبعه إلى بناية بالطين على مرمى حجر، فأفهم أنه الكُتَّاب الذي يتكلم عنه، ثم يشير إليَّ معرفًا إياه من أكون فتزداد بشاشة الشيخ مسعود ويخلي يده عن البوابة، لتعود إلى الوراء مصحوبة بصرير ويبدو البيت من الداخل مكشوفًا. يلتفت إلى الخلف قبل أن يدعونا إلى الدخول ويسعل سعلة تحذيرية، فيطفو شعاع عيني إلى حيث تتجه رأسه فألمح نسوة تتحلق بطست غسيل، يفهمن الإشارة وينفضن أيديهن على عجل من رغوة الصابون، ويهرولن بأقدامهن الحافية متواريات عن الأنظار.

العتبة متهالكة، والمدخل تليه وسعاية تتوسطها طلمبة ماء أمامها حوض بجواره مواعين بعضها مقلوب على حافته، وفرن على قبته عدة مقاطف تعلو بعضها البعض وفأس وبعض الكراكيب، وجاموسة ترقد بأحد الأركان رمقتنا بعينيها الواسعتين ثم هبطت برأسها تلوك أعوادًا ملقاة أمامها، وجمع من الإوز والدجاج يرفع أعناقه صوبنا، لا يطيل، يعود إلى ما كان فيه، الكلب هو من لم يرتح لقدومنا، ملأ نباحه الأفق بل وحاول التهجم عليَّ أنا بالذات فشخط فيه مسعود.

وفي نهاية الوسعاية (مندرة) على اليمين دلفنا من بابها، ومسعود يسبقنا بصوت أقرب للتهليل:

- دستور، دستور يابا دستور، معايا ضيوف جايين يشقوا عليك.

كان ممددًا على فرشة بآخر (المندرة)، وكنبتان كل واحدة منهما لها مسند يرتكن إلى الحائط وعليها حاشية يعلوها حِرام، ولا شيء بعد ذلك سوى الحصيرة التي نطؤها بأقدامنا. وعلى الجدار آية قرآنية محفوظة في برواز، بحذائها نتيجة ورقية من النوع الرخيص لا تزال تشير إلى يوم سبق قدومنا بشهرين، وعندما فتح مسعود النافذة حتى آخرها اقتحمتنا أشعة الشمس مضيئة المكان، وبدا العم إمام كآدمي آتٍ من زمن قديم.

سنده مسعود حتى أجلسه على إحدى الكنبتين، وأشار لنا أن نجلس على الكنبة الأخرى وعاد هو إلى أبيه، أراح ظهره إلى المسند وساعده في تدلية ساقيه. كانتا عاريتين حتى السمانة شديدتَي النحول، وفردة شبشب مكفية على وجهها، والفردة الثانية معلقة بطرف إصبعه، لحظة وهوت هي الأخرى إلى جوار أختها، كما لم أتبين عينيه جيدًا إلا بعد أن دققت النظر في وجهه، كانتا وبحسب تقديري لا تريان أبعد من كف يده.

يقول له مسعود، وهو يشير إلى زوج أختي:

- محمود أفندي بتاع الجمعية الزراعية.

فيومئ له العم إمام بأنه يعرفه، ولما جاء الدور عليَّ رفع مسعود صوته قليلًا:

- جلال أفندي ابن المرحوم محمود.

يتأمل العم إمام وجهي ويميل برأسه نحو مسعود، فيفهم أنه لم يسمع بعد ويعاود بصوت أقرب للصياح:

- جلال أفندي بتاع مصر، جلال أفندي! جلال أفندي!

لم يسفر صياحه عن أية نتيجة فاضطر للإعادة، دون أن ينتبه إلى أن أباه ليس معه وإنما معي، يميل برأسه نحوي محدقًا والصمت يستغرقه. بدا كمن يفتش عني في قاع سحيق من مخزون ذكرياته، ومسعود لا يزال مشغولًا بتكرار النداء، ولما ضجر اعتذر لي قائلًا:

- لا مؤاخذة يا جلال أفندي، أصل الوالد ودنه شوية كده.

والعم إمام يبدو أنه عرفني، هش مسعود بكف يده وصوت خافت يخرج من بين شفتيه:

- سي جلال..

- أيوه يابا جلال.

وعاود التحديق في وجهي:

- بتاع الضاهر!

- لا إله إلا الله، أيوه يابا بتاع الضاهر!

- ابن الست...

ولم يكمل، ومسعود الذي فرغ صبره:

- أيوه يابا هو! واله العظيم هو! وهو إحنا من الصبح بنقرا في سورة (عَبسَ)، أيوه جلال!

فهب واقفًا - لا أعرف كيف - وأنا معه، طوقني بذراعيه ضاغطًا على صدري مرة، ومُرْبِتًا على كتفي مرة أخرى، ومسعود ومعه زوج أختي يرمقانه بدهشة، متعجبيْن من جذوة النشاط هذه التي حلت به، وتركنا مسعود ثم عاد ووراءه بنت صغيرة تحمل أقداح الشاي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليس من منضدة نضع عليها الأقداح، فأمسك كل منا بقدحه..

بخار طيب يتصاعد من الفوهات، والعم إمام يرفع إحدى قدميه ويريحها على حافة الكنبة، وكف على عظمة الركبة والأخرى منشغلة بقدح الشاي، ومع حركته التي لا تهدأ ينحسر الجلباب كاشفًا عن سرواله الداخلي، فيسرع إليه مسعود ضامًا له إياه ثم ما يلبث الجلباب ثانية في الانحسار. وشعاع جذل يطل من عينيه كلما مال على القدح نافخًا عنه البخار، يكرر الأمر عدة مرات على نحو طفولي، ومسعود لا يروقه ما يفعل ويحثه بعينيه كي يتوقف، أو يقوم بغيظ ضامًا له الجلباب مرة ثانية.

وأشعر أنا بسخونة قدح الشاي في يدي، وألحظ العم إمام وهو يتململ منها هو الآخر ويتمهل بالقدح قرب شفتيه كي لا ينسكب شيء من حوافه، غير أنه لا ينجح ويتساقط الشاي على صدر الجلباب. تختلس حفيدته النظر وتكتم ضحكاتها بكف يدها، فيتورد وجهه ويرمقها غاضبًا. تتطلع إليه عاجزة عن السيطرة على ضحكاتها فينهرها لقلة أدبها، ويطلب من أبيها تأديبها بالعصا، والآن فورًا وأمامنا!

ثم يبدأ في الحديث معي:

- الله يرحمك ياسي عبد الحميد، رحت وراح الخير معاك..

أنتقل إلى جواره.

- وإزي الست كاميليا والدتك؟

أرفع صوتي كي يسمع:

- الحمد لله..

وكلمة في كلمة حتى عرف ما دار بيني وبين العم إبراهيم.

- وسكت له؟

فتدخل مسعود:

- خلينا في حالنا يابا، دُول أهل مع بعض.

لم يبال به، طفق يقول:

- عمك إبراهيم دا راجل ضلالي لا يعرف ملة ولا دين، ومتغركش التَّلَت حِجَّات ولا شباك الرسول اللي حط إيده عليه زي ما بيقول.

ومشيحًا بيده:

- عندك المركز عندك المحكمة، روح اشتكيه.

ومسعود متبرمًا:

- يابا! يابا!

- جاك بَوّ، دخلك إنت إيه؟ ضيفي وبتحدت معاه!

- يابا إنت هتشعللها نار ليه؟ إنت نسيت اللي اتعمل فيك بعد ما مات سيدي عبد الحميد!

والتفت إليَّ:

- لا مؤاخذة يا سي جلال حَكم أبويا ده..

فأوقفه العم إمام:

- حكم إيه يا دُونْ! ونار إيه اللي هشعللها يا قليل الأدب! وهو كَرَشْني ليه من النص فدان اللي كتّ بزرعه يا عديم التمييز؟ مش علشان كلمة الحق، مش علشان قلت له: يا سي إبراهيم سيدي عبد الحميد وصاك قبل ما يموت على

إخواتك البنات وولاد أخوك، وقال لك بعضمة لسانه: إوعى تظلمهم واديهم حقهم زي ما بيقول الشرع والدين.

وعاد إليَّ:

- وللا أنا غلطان يا سي جلال؟

ولم ينتظر مني إجابة:

- دا أنا كان قلبي بيتقطع على اللي عمله في أختك ليلى، ولو بيدي وللا كُتّ في صحتي كتّ شلت تَبُّوتي ووقفت له.

ومسعود:

- يابا.. يابا.. يادي النهار اللي مش فايت!

هشه العم إمام بيده مكملًا:

- وهي علشان ما كان قلبها موديها هنا وهناك، يقوم يبهدلها بالشكل ده وياخد أرضها بتراب الفلوس!

تنزلق منه الطاقية على حافة المسند الذي يتكئ إليه، فيمد يده إليها بضجر ويكبسها على رأسه وهو لا يزال يتكلم:

- لأ وإيه! يقول للناس أنا مَحُطِّش إيدي في أيد ناس أغراب وهفية زي دول، ومَجوِّزش بنت أخويا لواحد عويل ملوش أصل ولا فصل.

ومسعود محرج من زوج أختي، ويضغط بأسنانه على شفته محذرًا أباه وهو لا يعبأ. مضى في الكلام عن سوءات العم إبراهيم وسيرته (البطالة)، وتطرق ثانية لإرث ليلى وزواجها من محمود، قائلًا: بأن العم بما فعل كأنما أكل نارًا في بطنه، فإلا حق الله وما شرعه في كتابه الكريم عن المواريث، ثم ما دخله هو إن تزوجت هلفوتًا أو جربوعًا أو حتى كلبًا من كلاب السكك! فهي التي اختارت وهي في النهاية التي سوف تشرب الصديد!

والمسكين مسعود (في نص هدومه) وينظر إلى أبيه محبطًا، وزوج أختي إلى جواره، وجهه بلون رماد الفرن ولا يعرف ما الذي يقوله أو يفعله، والعم إمام انفتح في الكلام ولا يعطي فرصة لأحد. لم يتوقف إلا عندما لمح تهكمًا على وجه مسعود، ضرب الدم رأسه وهبط باحثًا عن فردة شبشبه يقذفه بها، لولا أن أسرعت وأمسكت به وأعدته إلى موضعه، ومسعود يتقلقل حذرًا، وعيناه تحتاطان وتقيسان المسافة بين يد أبيه وفردة الشبشب الملقاة أمام الكنبة كي لا يؤخذ على غرة.

وشاع خبر المشاجرة في البيت بالطبع..

ولاحت خيالات نسوة ووربت أبواب، ورأيت من موضعي أولادًا يتوقفون عن اللعب في وسعاية البيت ويأتون إلى أسفل الشباك يتسمعون. وبعد برهة صمت وتوتر هدأ العم إمام، وبدأ ثانية في الحديث:

- بص بقى يا ابن الناس الطيبين، قطعة الأرض اللي حِدَا المصرف هي دي حقك والحتة اللي...

لم يكمل، أخذه مني مسعود عندما قلّب كفه قائلًا:

- لا حول الله يا رب! يابا خلينا ساكتين واللي بيته من قزاز ميحدفش الناس بالطوب.

- طوب! طوب إيه يا فقي ياللي بتطلع على الترب كل يوم جمعة تقرا الربع من دُول علشان يحدفوا في حجرك قرصتين.

ومسعود الذي بدا الغضب على وجهه:

- كده يابا كده! الله يسامحك، بس وعلى عينك يا تاجر أهه حُقّ نفسك الأول قبل ما تحق غيرك!

وانفتح في الكلام:

- مش جدي عبد العظيم كان سايب لك البيت وأربع قراريط ولك أختين، خدوا إيه هما كمان؟! مش ساقوا عليك أمة لا إله الا الله علشان ياخدوا حقهم وإنت ودن من طين وودن من عجين!

فنظر العم إمام إليَّ ثم نحو مسعود، وصاح فيه:

- بتقول خدوا إيه! ما هم يا أعمى العين داخلين طالعين على البيت، ولما الواحدة بتزعل مع جوزها بتيجي هي وولادها وترقد عندي بالشهر والشهرين، وبعدين إيه اللي حشرك بيني وبين إخواتي البنات، هما داريين بحالي وراضيين ومسامحين.

وأفلح هذه المرة في التقاط فردة الشبشب وقذفه بها، فتركنا مسعود ثائرًا واقتحمت علينا زوجة العم إمام تخب في جلبابها الواسع وتصيح في وجهه:

- الله ينكد عليك يا إمام ويفضحك زي ما فضحتنا قدام الضيوف، كل يوم عامل لنا غاغة وهُلّيلة! إمبارح تعض البت سنية من ودنها، وأول إمبارح تتسحب ساعة الفجرية وتحلب الجاموسة وتشرب لبنها كله وتفضل العيال

على لحم بطنها وتكاكي طول النهار من الجوع! روح يا شيخ ربنا ياخدك وما يطلع عليك صبح وتفطس زي ما بتفطس الفراخ.

وتكهرب الجو، فخرجنا أنا وزوج أختي مسرعين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24

عندما رجعت من عند العم إمام وجدت العمتين في انتظاري..

قامت العمتان من فوق الأريكة أول ما دخلت، لبثنا برهة أنا أقف ساكنًا على عتبة الباب وهما قبالتي، وليس من شيء نفعله سوى التحديق في بعضنا البعض..

العمة هانم رشيقة فارعة الطول، ورِدَّة فعلها بلقائي أسرع وأدفأ، أما العمة الثانية فمكثت في موضعها مستندة على قائم الأريكة براحة يدها، والاثنتان (بالَملَس) الأسود والطَّرَح المعصوبة على الرأس وكردان حول الرقبة.

لا علاقة بتقاطيع أي منهما بالأخرى، ولا تقل أبدًا إنهما أختان، العمة هانم تقاطيع وجهها كحبات السمسم وبياضها مشوب بحمرة، والنضارة والبريق الآتي من العينين يقولان إنها أكثر شبابًا حتى من أختي ليلى رغم أنها تكبرها بعشرين سنة. العمة أُمُّ الخير شيء مختلف، أنفها مفلطح وجبهتها عريضة، وكل شيء فيها تقريبًا منفوخ كدببة الباندا التي تعيش في الصين، بل وحتى تحاكيها في بطء الحركة والعينين اللتين تخلوان من التعبير.

تبسمت العمة هانم قائلة، وهي تُقبل عليَّ:

- صلاة النبي! قرب يا أخويا قرب، إنت مستغرب يا حبيبي!

وأخذتني بين ذراعيها ووراءها العمة أم الخير، وجلستا تسألانني عن أحوال الدنيا معي؟ وهل تزوجت أم ما زلت أبحث عن بنت الحلال؟ وكلمة من الشرق وكلمة من الغرب، دون أن تشيرا بحرف واحد إلى أمي! أو تعرفان إن كانت ماتت أو لا تزال على قيد الحياة! وليلى صامتة وتتنقل بعينيها بيننا، وعندما جاء ذكر أبي في الحديث سألتهما السؤال الذي طالما شغلني وأنا صغير، ما الصورة التي كان عليها؟

فقالت العمة أم الخير:

- أبوك الله يرحمه هو وهانم فولة وانقسمت نصين! الطول هو الطول، والوش هو الوش، وبالخصوص الشفة وتدويرة العين.

وتنهدت:

- هو هو يا حبة عيني هانم أختي!

فرنوت صوب العمة هانم وهي تحتويني بنظرة حانية، وقامت من جوار أختها لتجلس بجانبي وتختصني بالحديث عن أبي وتقول: إنه كان مهمومًا قبل سفره للحرب سنة 56 ويشعر بأنه لن يعود، وقد حسبته مشغولًا بأم ليلى إلا أنه قال: زوجتي عندكم في أمان، قلبي لا يأكلني إلا على المسكينة التي في مصر، فهي الآن في شهرها السابع وليس لها مُعِين، إن لم أرجع اسألي عنها أنتِ يا هانم، وإن أنجبت ولدًا سموه (جلالًا) وإن كانت بنتًا أسموها (إحسانًا).

وجففت دمعًا انسال على وجنتيها، ثم قالت: غير أني لم أفعل! خفت.. خفت من أهل البيت، فقد كان زواج أخي محمود بأم جلال أمرًا متكتمًا عليه ولا يرد على ألسنتنا أبدًا. كان سرًّا بينه وبين والديه وأخيه إبراهيم، ونحن البنات لا نعرف عنه إلا القليل وإذا خضنا فيه نخوض همسًا، فلا تجرؤ واحدة منا أن تتكلم فيه علنًا أو تسأل عنه الكبار.

طافت أمي لحظتها في خيالي وهي بجلبابها البيتي أيام أن كنا بالظاهر، تراجع لي مسائل الحساب، أو تميل بجذعها محركة أحد المقاعد لتلتقط المبراة أو القلم الذي سقط من يدي، أو وهي واقفة في المطبخ وأنا ألاحقها بصوتي الرفيع مستعجلًا الطعام..

وطفقت أنظر في السجادة التي أمامي وعيناي غاربتان، والحنين لأمي يجتاحني وأعاتب نفسي لغلطتي معها في الكلام يوم أن أجرينا آخر اتصال، ويبدو أن العمة هانم لاحظت شرودي، فعضت على شفتها:

- يوه يا لساني! ربنا يسامحني بقى، أنا اللي فكرتك يا حبيبي باللي فات.

فرنوت إليها والعمة الثانية ترمقنا من أول الحديث، ولا تشارك إلا بهزة رأس أو نظرة أسى أو بما يقتضيه الحال، وبدت ليلى وكأنها لا تحفل بما يقال كما لو أنه كلام في الوقت الضائع، الكلام المفيد هو الذي قالته قاطعة علينا الحديث:

- دا جلال راح لعمه إبراهيم مرة واتنين وتلاتة لغاية لما قابله، ولما فتح معاه موضوع الأرض...

فأوقفتها العمة أم الخير، قائلة:

- عارفين يا بنتي عارفين.

وأردفت موجهة إليَّ الحديث:

- إحنا كنا محاسبين يا ابني ومرضيناش نيجي نسلم عليك لا أنا ولا هانم إلا بعد ما تقابل عمك.

وأكملت وعيناها على ليلى:

- خفنا ليقول إننا والعياذ بالله بنسلطك عليه، وللا لنا مصلحة في اللي داير بينك وبينه.

وتلتها العمة هانم:

- قلبنا معاك يا حبيبي واعمل اللي يريحك، عايز تبيع له أرضك بيع، عايز تاخدها دا برضه حقك واعمل اللي نفسك فيه، بس حاسب من إبراهيم دا أخويا وأنا عارفاه، شَرَّاني وياكل مال النبي!

فأسكتتها العمة أم الخير بنظرة محذرة ثم مالت على مداسها تستأذن في الانصراف، ووراءها العمة هانم رغم ما بدا على وجهها من أنها لم تشبع بعد من الجلسة وتود البقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنت قد عزمت على العودة صباح اليوم التالي، فاستأذنت من ليلى في النوم مبكرًا غير أن النوم جافاني ومكثت أتقلب في الفراش حتى منتصف الليل، فقمت وأخذت في يدي مقعدًا إلى الحوش. لا أعرف لماذا الحوش بالذات؟! رغم أني لم أفعلها من قبل بالنهار، ربما لأنه المكان الوحيد غير المسقوف وودت أن أرى السماء في هذه الليلة القمراء..

الحوش خامد لا حس ولا نَفَس ولا أحد يتحرك فيه، عدة دجاجات تضع مناقيرها في ريشها وتلبد في أحد الأركان، وخروف يغط في النوم، وظلمبة لا أعرف إن كانت معطلة أم تأتي بالماء، والقمر في عز بهائه، النجوم أيضًا تجذب القلب إلى ملكوت آخر غير الذي نجوس فيه بالأقدام، والسكون لا تخدشه إلا عدة سعلات أطلقها زوج أختي محمود، وجلال الصغير يعلو صراخه فجأة ويسكت أيضًا فجأة، ربما كان جائعًا وألقمته ليلى ثديها، وطائر يحط على رأس الظلمبة ويغمس منقاره في فوهتها، أظنه هدهدًا، مكث برهة يغمس منقاره فيها بلا طائل فهبط إلى الأرض باحثًا عن نقطة ماء، ولبثت أنا ساكنًا لا أتنفس كي لا يجزع ويتحصل على ما يريد، مشيته مشية الطيورالصعبة غير المريحة، والتي تشعر بأنها تقلل من توازنها وكأنها تتعثر وليست تمشي، وتكون أعينها وقتها حذرة وتتلفت حولها. تابعته إلى أن فاجأني برفيف وطار كما الريح، لم أتبين إلا بعدها أنه التقط بعينيه عرسة تطل برأسها من ركن في جدار. حام حومتين أعلى البيت وولى بعيدًا، وذهبت أنا الآخر إلى العم إبراهيم، ونزهة جديدة في عالم السؤال مع هذا الذي لا ينكر حقي كما يقول، بيد أنه لا يريد تسليمي إياه؟!

حقي واضح كهذا البدر الذي ينير السماء، كالنجمة أم ذيل التي خطفت بصري قبل قليل، لكن إن أردته يا خفيف يا ظريف يا من تلبس القميص والبنطال، فخذه منقوصًا!

إما على هيئة فلوس قليلة وتدفع لك على أقساط، أو يبقى على اسمك في الورق والأضابير وكل حَوْل تقبض في كفك الإيجار حفنة جنيهات! وإن تطلعت إلى السبخ والطين وأن تمرح في أرضك مثل سائر خلق الله، فلا وألف لا.. إلا بشروط، أولها أن تمسك بالفأس يا أستاذ! وأن ترتدي الصديري والسروال، وتمسك بعنق الجاموسة وتركب الحمار!

وهكذا مُنعت من أرضي يا أيها العم الباغي الـجَهُول!

وأروح بخيالي إلى ابن العم فريد: تلقيتني يا فريد عند الباب بقبول حسن وليس متجهمًا كسائر أهل البيت، وساندتني في الكلام منكرًا على أبيك ما يقول..

لكنك يا ابن العم رضيت بالقسمة الحرام التي قسمها أبوك، ودخل في زمامك من أرضي عدة فدادين!

ماذا تقول لو سألتك إياها؟

هل ستخشى الحق، أم سوف تساير أباك يا خريج الكونسرڤتوار؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

25

ظفرت بالقدر الأكبر من هدايا أم حسن..

ساعة يد من منتجات الصين لها عقارب تضيء في الظلام، وقلم جاف بأربعة سنون، ولم تقف عند هذا الحد، أتحفتني أيضًا بجوربين وزجاجة عطر تحمل علامة (بيير كاردان)، وطبعًا (مضروبة) والرائحة التي تفوح منها أشبه ما تكون بالرائحة التي يسمونها (كناسة العطار).

تُقلب الهدايا في يدها مزهوة بها:

- أنا قلت هي الحاجات دي اللي تليق لك..

ثم تطرق بأصابعها على ركبتي لأزداد انتباهًا:

- واطلع من المطار يا جلال ألاقي أمة لا إله إلا الله كلها مستنياني، واتلفت على حسن، مفيش حسن! شوف الناقص اللي مفَيهشّ خير!

وتبلل بريقها طرف كمها ماسحة به ميناء الساعة قبل أن تقدمها لي:

- والعمارة وأنا داخله تضرب تقلب زغاريت، وبسلامتها مراته جاية آخر الناس وقال إيه حمد لله على السلامة يا خالتي، نورتي المطرح والعمارة من غيرك ما تتشاف، شوف كُهْن النسوان! نهايته، هي المحبة هتنشحت ولا هيشتروها بفلوس.

أسألها عن الأستاذ فؤاد؟

- وهو أنا قعدت على حيلي على طول رحت له، وألاقي نادية يا حبة عيني الوش قد اللمونة وخست يا كبدي، بقت كلها كده على بعضها تتطبق وتنصَرّ في منديل.

أقول لها: أليس من الواجب أن أزور الأستاذ فؤاد أنا الآخر؟

- لا واجب ولا بتاع، خليك إنت بعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأقبلت الست نظيرة زوجة أبي السعد أفندي ومعها ابنتها هديل، فأحببت أن أدع لهما المكان لولا أم حسن التي تمسكت بوجودي:

- وهو إنت غريب، أقعد أقعد، وإنتي يا هديل أقعدي يا حبيبتي هنا على الكرسي ده اللي في ريح جلال.

تبدو كفتاة عصرية بالچينز والحذاء الرياضي، والوجه تجذبك ملامحه غير أن عينيها بها حَولْ خفيف، حَول محبب لذيذ وليس كَحَول الولد المجرم حفيد العم إبراهيم. والست نظيرة كما الديدبان عين علينا وعين على أم حسن التي أخذت الجلسة تقريبًا لحسابها، فلم تتوقف عن الكلام عن خفقة القلب والخشوع أول ما رأت الكعبة الشريفة وجهًا لوجه، ويوم أن أخذوها لزيارة جبل (أُحُد) حيث دُفن سيدنا الحمزة عم الرسول. وتلحظ الست نظيرة الدبلة الذهبية التي أضعها بإصبعي، فتقطع حديث أم حسن وتسألني إن كنت متزوجًا؟

فتجيبها أم حسن بدلا عني:

- جلال وحداني يا عيني، من ساعة الله يرحمها مراته ما ماتت.

ونقرأ كلنا الفاتحة لزوجتي وكل من مات..

تسألني الست نظيرة ثانية:

- ومفيش أولاد؟

أم حسن أيضا هي التي تجيب:

- عيال إيه يا أم هديل، هو لحق! دا كل اللي قعده معاها كام أسبوع!

فتبدو الراحة على الست نظيرة، أما هديل فقد غافلتني أثناء انشغالي عنها وتفحصتني من الألف للياء، أنتبه لها فتبتعد بعينيها إلا أني أشعر بأن فكرها مشغول بي، ولعلها تسأل نفسها عمن أكون؟ وما قَدْري في سوق الرجال؟ فهل أنا بالفعل مثلما يظن أبوها، أم أي واحد والسلام؟

وتلاحظ أم حسن أني وهديل لا نتبادل الحديث على النحو الذي ترجوه، فتقول لي:

- مش تفهِّم هديل عن الأرض اللي إنت ناوي تشتريها، دي اسم الله عليها مهندسة زراعية.

ولا تتركنا وتعود إلى الست نظيرة، إلا بعد أن أبدأ في الكلام..

أتكلم وهديل تنصت، ثم تجاري ما أقول وتناقش وتخوض في أمور فنية متعلقة بالتربة والماء وما يصلح لكل أرض من زراعات، وتعرض عليَّ تدبير موعد ألتقي فيه بمهندس زراعي زميل لها هَمَّ باستصلاح عشرين فدانًا بأطراف محافظة البحيرة غير أنه تعثر، فعسى أن أتفاهم معه وأبتاع منه هذه الأرض.

وشيئًا فشيئًا يخفت صوت أم حسن والست نظيرة وتوليانا اهتمامهما، وتقول هديل:

- بس لاحظ يا أستاذ جلال..

فتقاطعها أم حسن:

- أستاذ إيه وبتاع إيه يا هديل، قولي له يا جلال كده حاف..

فتهبط هديل بعينيها خجلة وأرمق أنا أم حسن لائمًا، وتقول الست نظيرة:

- دا أبو السعد معندوش أغلى من جلال، وشوية شوية هو وهديل هياخدوا على بعض وتنفك عقدة اللسان.

وتقوم مستأذنة في الانصراف ومعها أم حسن حتى الباب، وتمد هديل كفها إليَّ بالسلام فتطول قليلًا في يدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويمر شهر وراء شهر..

عشرة أشهر منذ أن جئت إلى مصر وأنا أشبه بالعاطل، إما في مشاوير أقضيها لأم حسن، أو تسوقني قدماي إلى ما كان يومًا من دنياي القديمة وأصبح طَلَلًا من الأطلال..

العم (محمد)..

أمضي أمامه فلا أجده لا هو ولا قدرتَي الفول وزحام المبتاعين، وإنما محل للخردوات عيناي ترمقان الرجل الأخنف الواقف فيه الآن..

ولا أجد بقالة كافورس أيضًا، أغلقت أبوابها ورحل الخواجة كافورس ذاته إلى بلده اليونان، ولا حتى أم عبد السلام بائعة البيض البلدي والجبنة القديمة وخيرات الريف، ماتت حسبما قالوا لي..

والعم (رأفت)، صاحب محل الساعات..

أتأمل الساعة التي اخترتها، وأمي تسأله أن يخفض في الأسعار، يذعن لها، فتدخل معه في مناورة ثانية لتؤجل الدفع على أقساط، غير أنه يرفض ويأخذ الساعة من يدي وأنا وهي نتبادل نظرات محبطة.

ذهب عم رأفت هو الآخر..

وتستغرقني الذكريات حتى أبدو أمام نفسي وكأني أعيش الماضي وليس الحاضر، صحيح أن الخيال يجلب المتعة وفي الذكرى شجن لذيذ، لكن ما الجدوى! أصبح حالي حال من يشتمُّ الزهور فتطربه رائحتها، دون أن تملأ له جوفًا أو تدفعه خطوة إلى الأمام. فعشرة أشهر بلا عمل أو إنجاز شيء ممضّ على من تعلم في الغربة أن للوقت حسابًا، وأن الدقيقة لها قدرها وإهدارها سمة من سمات الـجُهَّال.

وضجرت.. وكأن بقائي بمصر لم يعد له معنى، فقد جئت وليس من أمل سوى الوصال..

فما قيمة المشروع الذي عزمت عليه، فلا أنا همي الأول أن أحصل من ورائه على ربح أو مغنم، ولا هو يضيف إلى بلدي شيئًا يذكر، ومن أوله لآخره ما هو إلا صفر محترم في أقصى الشمال بالنسبة لها..

النية ولا شيء آخر كانت في الوصال..

الوصال الوصال هو القصد والهدف الأول والأخير، لكن وكما يقال: دائمًا ما نجد (في كل خرابة عفريت)، فقد خرج عليَّ هنا العم إبراهيم بالنُّبوت، وهناك أبو الشوارب (حرنان) ويهددني بفض الشركة التي بيننا إذا فكرت يومًا في سحب فرنك واحد من رصيدها، ويكتمل الهم بأم حسن التي تركت كل شيء وتشاغلني ليل نهار بهديل، حتى فاجأتها هذا الصباح وأنا ألملم أشيائي وبيدي تذكرة سفر إلى باريس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

26

الطائرة على ارتفاع آلاف الأقدام، والفضاء يترامى أمامي مسافات ومسافات..

فضاء خرافي الاتساع والحدود، يشدني إليه لأجد نفسي تائهًا في عالم السؤال..

الأسئلـة القـديمـة.. نعم الأسئلة القديمة، فالهم يجر بعضه بعضًا..

طفقت أسأل نفسي للمرة الألف، من أنا؟! ولمن أنتمي؟! ولماذا أنا من دون الناس خرجت من رحم يهودية وظهر شهيد؟! وإلى متى كلما اقتربت من أمي خايلني شيء لا أقدر على حل شفرته؟! شيء يبعدني عنها، وعندما أبتعد أعاتب نفسي ويشقيني الندم..

أسئلة تضنيني منذ الصغر، ومن طول ما ألفتها صارت كالقدر، قبلته ارتحت، جادلته أعيتني الأسئلة.. ولا أنا قبلت، ولا أنا اهتديت إلى إجابة واحدة..

السؤال الجديد الذي يلح عليَّ الآن، عن (فرنسا) ذلك البلد الذي أركب إليه الطائرة هربًا من القاهرة..

أعطاني هذا البلد المأوى والصحبة والمال الوفير، تلقاني عاجزًا عن الكلام بلسان أهله ولا أحمل ما يذكر من الشهادات، وها أنا بعد عقد واحد من الزمان يشتد ساعدي وأقيم شركة مع أبي الشوارب تُقومَّ بملايين الفرنكات..

فهل كنت عاقلًا عندما لم أستجب لإلحاح أمي، وأسعى للحصول على هُوِيَّة بلد النور الذي أعيش فيه وآكل من خيره.. وأدع مصر ومَنْ في مصر، وملعونة الفدادين التي بيد العم، بل والعم ذاته قبلها، ولا تقل لي مشروع أو يحزنون، المشاريع هناك والأمان هناك وكل شيء هناك، والسلام عليكم الآن يا أم حسن فأنا مجرد ضيف جئت للزيارة وحالي ومالي وبلدي ليس هنا..

لماذا شمخت بأنفي؟!

لماذا لم أتمسح بهذا البلد مثلما يفعل أمثالي من المهاجرين؟!

هل أبيت لأن هذا ما ألحت عليه أمي ونصح به زوجها، وكأني أعاند لمجرد المعاندة..

وما الذي أفعله الآن؟

هل هو ذهاب بلا إياب، أم لأدبر المال وأعود..

كنت مأزومًا مشوشًا تجيء بي كلمة إلى هنا وتروح بي دفقة إلى هناك، إلى أن نادوا علينا من سماعات الطائرة بأن اربطوا أحزمة الأمان فنحن على وشك الهبوط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إيه يا باريس..

بناياتك العتيقة والجداريات المنحوتة والأعمدة والتماثيل، تملأ العين والطائرة في طريقها للهبوط..

أروقة المطار تزدان بلفيف من الإعلانات لحقائب السيمسونايت وسجائر الديموربيه والمارلبورو والجلواز، وبشر على كل لون، بالسفاري والچينز ومعاطف وقبعات، ومن تتألق بثيابها الأفريقية المزركشة، أو من المغرب العربي ويحبكون أجسادهم بالعباءات والبرانيس، حركة وصخب وضحكات، وفتيات حسان يمرقن بجانبي، وبوسترات تملأ المكان لعطر (لا بوازو) الذي أنتجه مؤخرًا صانع الجمال كريستيان ديور، وأنسلُّ أنا خارجًا من بوابة المطار، فتلفحني نسمة هواء باردة وتلوذ بمعطفي حبات رذاذ..

جسدي يبدو خفيفًا، ودفقة مرح تجتاحني وصوت يهمس بأن أخيرًا رجعت إلى بلد النور، لمقاهي مونمارتر والشانزليزيه وشوارع سان لازار وفطيرة الكريب والكرواسو.. وشيء آخر ينتبه ويدير وجهي إلى هناك، يحثني على أن أدبر المال المطلوب بأي طريق، وأعود ثانية إلى الظاهر وأبي السعد أفندي وأم حسن، ونادية التي شغفني حبها ولم يزل..

ألا أسمع وسوسة الشيطان وأرجع إلى بلدي بجماله وقبحه، بقنوطه وضحكاته، وأحرص على أن يكون لي وطن له نبض وعروق، وليس شيئًا مطمورًا في دهاليز القلب وعتامات الغربة والشتات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوقت لا يزال مبكرًا وأبواب الشركة حتمًا مفتوحة، فاتجهت إليها من فوري، وأمام بناية من بنايات (سان ميشيل) أتطلع ببصري إلى اليافطة المعلقة على واجهة الدور الثاني وتحمل اسمي واسم أبي الشوارب. أتأملها راضيًا كما لو أنها أخ أو حبيب عدت إليه، عزوة أو ملاذ أسكنه ويسكنني.

ويلقاني أبو الشوارب بشوشًا، ويحتوي كل منا الآخر بذراعيه:

- أهلين أهلين يا زلمة، نورت باريس وضلمت القاهرة مثل ما بيقول المصريين.

وطفق يكلمني عن أحوال الشركة وأرباحها التي بلغت رقمًا لم أتوقعه، وأنه أنهى الحساب الختامي، وأضاف نصيبي من الأرباح ومعه نصيبه لتعلية رأس المال بعد أن اقتطع لنا المبلغ المعتاد للنفقات الشخصية والمصاريف. ولما سألته عن الرقم الذي أودعه بحسابي الخاص، نقر بإصبعه جذلًا على حافة المنضدة التي بيننا:

- قلت خلينا نعطي حالنا زودة (علاوة) من شان الغلا وها الأسعار يللي كل ماله (كل مادا)عم بتزيد، وبدل يا خيّ جلال عشر تلاف في الشهر خليهم اتناشر ألف.

يلوح على وجهي عدم القناعة، فيقول دَهِشًا:

-هلاّ اتناشر ألف ما بيكفوك في الشهر! خير إن شاء الله! ليه ها المصروف الكبير وما عندك مَرَة ولا ولاد!

فقلت:

- أنا كنت محتاج لمليون فرنك؟

- لا إله إلا الله! كمان يا جلال كمان! وطبعًا من شان مشروعك يالي بمصر؟ شوف يا ابن الحلال إحنا بيناتنا اتفاق إننا ما نسحب فرنك واحد من رصيد الشركة إلا لصالحها، والكلام ده إنت تعرفه منيح (كويس).

وأردف وعيناه تجريان على الورق الذي أمامه:

- دا أنا إجتني فرصة منيحة من خمس تيام.

ثم أكمل مشيحًا بأصابع كفه اليُمنى الخمس:

- آه والله من خمس تيام، ومنتظر جيتك من شان أبسطك وأقولك، وإنت جاي هلاّ تقول لي كاني ومانيِ! دا نحنا محتاجين لكل فرنك في حساب الشركة، دا غير إني بفكر في أخذ قرض على السريع، علشان يالي بدي أقولك عليه ده عمره ما ينترك ولا هيتكرر مرة ثانية.

ويبدو أنه استطاب الشغف الذي لاح على وجهي، فلمعت عيناه وبدأ في الكلام:

- تجار من الهند يا جلال! تجار غشم والهبلنة مرسومة على وجوههم والظاهر إنهم جداد في المصلحة (الكار) وإيه يا محترم؟! كلهم قصار.. لا. لا. أقزام! وكل واحد منهم له ذقن، وشارب كيف القط!

ابتسم، فيبتسم لتبسمي ويدنو مني برأسه مكملًا:

- عرفني فيهم چاك السمسار وقعدت معهم على مقهى (الفوكيت) وهات طق حنك وحَكِي، وبعدها شفت إن الكلام كله داير بيني وبين عمنا چاك وهما بيتطلعوا فينا ويهزوا رؤوسهم وكلمة واحدة ما نطقوا بيها، وكل واحد منهم بأيده بايب ونازلين ينفخوا، ولما دأدست (تقصيت) لقيت واحد منهم أطرش وعلى أذنه سماعتين والاتنين التانيين ما بيعرفوا غير إنجليزي! قلت: العَمَا بقبلك يا چاك، يللا ترجم بيناتنا.

تبدو الدهشة عليَّ، فيقول:

- ما معقول!! هلاّ انتظر وعن قريب بتشوفهم وتعرف إن كلامي مظبوط، وتعرف يا جلال بَدُّهم يشتروا بضاعة بأديش؟

ويعود بظهره إلى حافة المقعد:

- بخمس ملايين! إشي كراڤتات على بدلات وبلوزات وتنانير وغيره وغيره، هادي لِسْتة طلباتهم..

وأمسك بإصبعَي السبابة والإبهام ملفًا من ورقتين فوق المنضدة التي بجوارنا، وهزه أمام عيني ثم أردف بنبرة جادة:

- وإنت عارف يا زلمة إن شغلنا الكاش فيه أساسي ومطلوب، وبيوت الأزياء ما بتقبل تسلم لنا البضاعة إلا لما تاخد حسابها بالسنتيم[5]، قلت في حسابنا السايل بالبنك هلاّ مليونين، بنتداين عليهم تلاتة بضمان الشركة من بنك سوسيتيه چنرال ياللي حسابنا معاه، وكلها كام شهر وبتخلص الشغلة وبناخد مصارينا (فلوسنا)، وساعتها نرجَّع للبنك مصاريه وبناخد نحنا الأرباح.

وأردف، وهو يمسح بسبابته على حافة شاربه معجبًا بنفسه:

- دا نحنا خلال شهر وللا اتنين بيطلع لنا شي مليون وللا اتنين من الهِبل دول!

- والناس دي مضمونة؟

- مضمونين ونص، إنت عارفني منيح أنا أبو الشوارب ملك الفهم والشطارة، ولسه يا دنيا ما خُلق فيكي ياللي يقدر يضحك عليَّه.

فسال لعابي وانسقت معه في الكلام، والغريب أنه لم يطرأ على بالي لحظتها استخدام هذه الأرباح في مشروع مصر.

ويجدني شاردًا، فيقول:

- شو رأيك بقى يا جلال، هتكمل معانا هُونْ وللا لسه فكرك مشغول بمصر ومشروعك ياللي هونيك؟

فلم أُجِب..

وأقبل الموظفون يسلمون عليَّ وعلى رأسهم المصري (فؤاد) الذي يمسك لنا الحسابات، والسائق اللبناني (حرفوش)، والعم (بو لحية) التونسي العجوز فرَّاش المكتب، والذي وشوش في أذني على السريع بألاَّ أغيب هكذا بالشهور فأبو الشوارب مفتري ومعاملته لا تُطاق، وأبو الشوارب يشعر بأن الكلام عليه ويرمقه متشككًا. وهلَّت علينا مودموازيل (چانيت) سكرتيرة الشركة، وقبلة هنا وقبلة هناك كعادة أهل باريس، وقالت لي ضاحكة: ألم تحضر لنا معك جَمَلًا نتفرج عليه؟

أعرف أنها دُعابة ومعروف عن هذه الفتاة خفة الدم والمزاح، غير أني شعرت بالغضب وصعدت الدماء إلى وجهي، ولاحظ أبو الشوارب فقال لها بصوت لائم: الجمل مخلوق طيب وله قدر كبير عندنا نحن العرب وبخاصة المسلمين، ولا نحب أن يأتي الكلام عنه على سبيل السخرية..

غير أنها استمرت قائلة:

- ولماذا تأكلونه إذًا؟!

لم يفطن أبو الشوارب لسبب غضبي، وقال لها ما قال ترضية لي. لم يفهم أو حتى أنا فهمت لماذا أخذت الأمر بحساسية هكذا وحسبته تعريضًا ببلدي، إلا أني لم أشأ إظهار ذلك وآثرت الانسياق مع مزاحها، فقلت ولكن بضجر: مثلما تأكلون أنتم الضفادع ولحم الخيل!

وهشها أبو الشوارب بيده كي تدعنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي المساء رجعت إلى شقة جدي زكي بحي بارباس..

كانت على الحال الذي تركتها عليه قبل أن أسافر..

الجورب الذي هممت بارتدائه ثم عدلت، فردة ملقاة أمام السرير والأخرى لا أعرف أين؟!

وكوب الشاي الذي لم أفرغ منه يومها لا يزال في موضعه على الكومدينو، السائل المتبقي فيه قميء وشيء كالهاموش سقط فيه وتحللت أجزاؤه..

وزجاج النافذة الذي لم أحْكِم إغلاقه، يبدو أن كتلة هواء دفعته مرة واحدة، فأطاح بمزهرية كانت في طريقه وقصمها نصفين..

والشقة ساكنة إلا من ريح جدي ووقع خطواتي، وجرس الباب الذي دق فجأة فإذا المسييه (تيبو) الذي يقطن قبالتنا.

كان في عمر جدي تقريبًا ويكنُّ لنا المودَّة، لم يكتف بسلام اليد، أخذني بالأحضان وقبَّل كل منا الآخر على وجنتيه، فقد عاش الرجل طويلًا بالجزائر ويعرف عاداتنا، وأتى لي بفواتير ومستحقات علينا دفعها في غيابي ولم يشأ أخذ ما دفعه في الحال.

أشار بيده بأن: لا.. ليس الآن، فالأيام قادمة، ولما سألته عن أي أحد طرق على بابنا، أمي أو خالتي بيلا أو خالي شمعون، فقد كان يعرفهم.

قال: لا.. لم أر أحدًا منهم حتى إني حسبت أنهم تركوا باريس، فهززت رأسي وانصرف هو وأنا ضجر أو كأني عثرت على سبب يُضْجرني منهم، وأكاد أصدق نفسي بأن جدي زكي يخصني وحدي، وأنهم عندما تقاعسوا ولم يزوروا شقته المغلقة ولو حتى مرة واحدة، فإنهم بذلك قد أساؤوا لي!

وبِتُّ ليلتي مثلما بت أول ليلة بشقة الظاهر، جدي يؤنسني وهو وحده الذي يستحوذ على قلبي، وأطالع صورته المعلقة على جدار الصالة كلما مررت بها، فهو صاحب الشقتين، عشت بكنفه في الأولى زماني الأول، ومكثت معه في الثانية راضيًا به وراضيًا بي حتى قضى..

وفي الصباح طرق عليَّ الباب الشيخ منجي العياري والد زوجتي خديجة المتوفاة، أحدث ضجة كالمعتاد وملأ عليَّ الشقة الساعة التي أمضاها معي.

وتركني وهو يقول: ما دمت قد جئت من سفر طويل، فشأنك شأن الضيوف، وطعامك وشرابك عندي ثلاثة أيام مثلما كان يفعل أجدادنا القدامى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27

- ولسه جاي ترفعلي السماعة دلوقتي! بعد أسبوع؟ أسبوع يا جلال!

وتعاود بنبرة لائمة:

- ياه.. ياه يا جلال! اتعلمت القسوة دي فين؟!

أشعر بالخجل من أمي، وأدع ما بيدي ذاهبًا إلى شقتها بشارع (چي موكيه)، فتلتقيني بإيشارب يغطي الرأس ورائحة تبغ تنبعث من ثيابها، ويبدو أنها فتحت في الأكل فزاد وزنها (حبتين). ألين في يدها، وتأخذني هي في أحضانها قائلة:

- تعالى تعالى يا حبيبي دا أنا مليش غيرك في الدنيا، لا أخ ولا أخت ولا حتى البيه اللي أنا عايشة معاه ليل نهار!

وبصوت خافت وعيناها تتفاداني:

- الله يسامحه بقى..

أحتويها بذراعيَّ بأكثر مما تفعل، ويسترعي انتباهي صورة على جدار الأنتريه، لوجه امرأة تعتمر قبعة مدببة من الأمام وما تبقَّى من شعرها مُصفَّف في شكل ثنيات، والعنق مسحوب سحبة ربانية تأسر العين، ويتدلى من أذنها قُرْط بحجم وهيئة حبة الرمان. والصورة بالأبيض والأسود، وفي الأسفل وبخط منمنم صغير اسم المصور وعنوانه (أنطوان: محطة الرمل).

تقول وعيناها تروحان معي إلى الصورة:

- ما هو دا أول الهم..

أتقدم خطوة مدققًا في الصورة، وتشير هي إليها:

- دي صورة مراته القديمة ليليان، كنت بره في مشوار ورجعت لقيته معلقها!

أعود بخاطري إلى اليوم الذي أتيت فيه إلى هنا مع جدي زكي، للتعرف على العم يعقوب. لم يكن قد تزوج من أمي، ولما فاتحني جدي في هذا الأمر كرهت الرجل على الفور، وأتذكر الصورة، لفتت نظري يومها غير أنها كانت معلقة بالداخل وليس على هذا الجدار.

أقول لأمي: إني رأيت الصورة من قبل، فتجيبني بامتعاض:

- أنا ولا عيني شافتها إلا لما حضرته فاجئني بيها..

وتتقدمني إلى الداخل بروبها القصير، وشيء كالقميص أسفل منه. عروق رفيعة بالساق تنفر متعرجة، وأشعر بأن خطواتها كَسُول ولم تعد يقظة كما الأول، تسبقني إلى مقعد وثير بالصالة وتشير لي بأن أجلس قبالتها، فتلوح الصورة من حيث نجلس وتبدو صاحبتها لأمي وكأنها تطل عليها من علٍ وتشاركها المكان.

برهة وتبدأ أمي في الدخان، واستكمال قدحٍ من الشاي كان موضوعًا من قبل على منضدة بيننا، وألحظ ذرات جافة من مسحوق (النس كافيه) عالقة بشفتيها، ربما أخذت منه ملعقة على الريق كعادتها، والدخان هالات هالات وكلما هششته بيدي رجع لي مرة ثانية.

تتثاءب مزيحة الإيشارب إلى الوراء فتنفرج عقدته ويسقط في حجرها، ويبدو لي شعرها -أحلى ما فيها- مريضًا باهتًا متقصف الأطراف. فقد المسكين رونقه، وبقعة بحجم عُقْلة الإصبع لا ينبت بها الشعر اللهم إلا عدة شعرات تافهات لا قوام لها.

أتابعها وهي تتكلم، ولفافة التبغ ترتعش مع ارتعاشة أصابعها:

- ولما رجعت يا ابني من بره ولقيت الصورة، لا علقت ولا فتحت بُقِّي بكلمة..

عيناي تجريان على شعرها، فتلحظ وتنيخ لي رأسها مشيرة بإصبعها على مؤخرة رأسها:

- حتة كمان أهيه راح منها الشعر، دا كده مرة واحدة!

أُبدِي أسفًا كاذبًا، وتكمل هي على نحو تبدو فيه وكأنها لا تكلمني وإنما تكلم نفسها:

- بس أنا صغيرة على اللي بيجرالي ده!

لا أعلق..

وأحتار في أمر نفسي، فعندما كنت بمصر كان إحساس بالذنب يطوقني كلما وردت أمي على خاطري، بل وضجرت من عمي وعماتي عندما لم يسألوني عنها، والآن الجلوس معها لا يروقني وأفكر في سبب للانصراف، ابن اللعينة الفضول هو وحده الذي يُبْقيني لأعرف حكايتها مع العم يعقوب، وعندما أسألها عنه تنطق اسمه محبطة:

- يعقوب..

وتُطْرق محكمة طرفَي الروب على ركبتيها:

- وعلاج وليزر وإبر في العرق والعضل وبرضه مفيش فايدة! ومرة يجيني نغز في صدري ويقولوا لازم رسم قلب، ومرة يقولوا حاسبي شوية في الأكل الكبد كسلان.

أتذكر زماننا الأول بمصر عندما كانت تشكو من المرض، فتضع يدها على كتفي وإلى مستشفى (سيد جلال) بباب الشعرية حيث العلاج بالمجان. يعطونها حفنة برشام أو شراب في زجاجة يقولون إنه يقتل الدود، ولا تتعظ أو ترحم بطنها تُعرِّج بي في طريق العودة إلى أقرب محل للفلافل، أو يلهف كل منا (سميطة) أو اثنتين، وتعود قانعة وصحتها كما الحصان.

وتعاود الكلام:

- بس أنا عارفة يعقوب علق الصورة ليه.

أشعر بالضجر من الصورة وصاحبة الصورة والكلام عن الصورة، وأسلم أمري إلى الله وأستمع.

- بيجامل سيمون!

أقول من طرف أنفي: ومن سيمون هذا؟

- سيمون! سيمون ابنه اللي عايش في الأرچنتين، ما هو البيه مشرَّف عندنا في الشقة بقاله أسبوع.

ومن طرف أنفي مرة ثانية؟

- زيارة؟

لا ترد..

وتتركني ثم تعود دافعة بيدها عربة فوقها إبريق شاي، وطبق مملوء حتى حافته بقطع الجاتوه. أكتفي بكوب الشاي، وتنزل هي على الجاتوه كما لو أنه آخر وجبة لها في الحياة الدنيا، ونمضي ربع ساعة تقريبًا بلا كلام.

أنظر في الساعة فترمقني خطفًا ثم تعود إلى الجاتوه، أحثها بتعبيرات وجهي على أن تقول ما عندها وننفَضّ، لا تفعل، فأظل أتابعها حتى تأتي على طبق الجاتوه اللهم إلا فتفوتة بحجم عقلة الإصبع، أندهش لإحجامها عنها وأسألها أن تجهز عليها هي الأخرى، تشيح بيدها بأنها اكتفت وتبدأ في الكلام عن زوجها يعقوب الذي شرع في كتابة حصته بكازينو شرم الشيخ مناصفة بين ابنته سارة التي تعيش بإيلات، وابنه سيمون الذي حضر خصيصًا من الأرچنتين لهذا الغرض.

- وآهو بالمرة زي ما بيقول يعقوب، سيمون يقضي يومين معاه وياخد الورق اللي يخصه.

أما سارة فسوف يرسل لها أوراقها لأنها اعتذرت عن المجيء لانشغالها، على أن يحصل هو على توكيل منها بإدارة العمل والحصول على الأرباح لنفسه، وبعد وفاته يئول لهما كل شيء.

أقول لها: إنها إسرائيلية ولا يحق لها التملك بمصر؟!

- مفهوم مفهوم وكل حاجة معمول حسابها، البنت معاها بسبور فرنساوي وساعة اللزوم هتقدمه، وإن منفعش ياما في الجراب يا حاوي.

وتروح بعينيها إلى حيث موضع الصورة، وتسألني إن كان وجه المرأة جميلًا؟

أضطر للمجاملة:

- إيش جاب لجاب!

- بس اللي عمله يغيظ!

وبنبرة أشد حدة:

- دا أنا والرب لو كان عندي صورة للبابا بتاعك، لكنت علقتها هي رخرة وحرقت قلبه.

أبدي تبرمي من الزج بأبي في خلاف بينهما، فتتحاشاني بعينيها مغيرة مجرى الحديث:

- وعلى كده أنا لا هطول منه أبيض ولا اسود؟

أحدق فيها دون كلام، فتفهم أني لا أصدق ما تقول.

- هي مفيش غيرها الشقة التمليك اللي احنا قاعدين فيها، فضلت أزن عليه لحد ما كتبها باسمي.

أحك أنفي بظفري وعيناي عليها.

- وبيقول إنه هيرفع حصتي في الكازينو من سبعة لعشرة في الميه.

وتغمغم:

- بيقول..

- والفلوس اللي حطهالك في البنك؟

- يوه يا جلال! دول كلهم نص مليون وشايلاهم للزمن.

- ما كفاية!

- تفتكر..

وأقوم مستأذنًا في الانصراف، فتمسك بيدي وتعيدني إلى المقعد قائلة:

- يعني مسألتنيش عن يعقوب!

- آه.. إزيه.

- حضرته يا سيدي يوم فيه ويوم مفيش يروح جمعية النبي دانيال[6]، وآهو هناك من الصبح هو وسيمون.

وبنبرة تخلو من الود:

- حضرته عايز يبقى رئيس الجمعية ويعمل كبير، ومرة يقابل الوزير الفلاني ومرة يعمل حفلة على شرف فلان وللا علاَّن وتبقى له كلمة وسط اليهود.

- بس على حد علمي هو من يهود القاهرة.

- هتقول إيه بيتمحَّك يا سيدي في مراته اللي من جماعة (نادلر) بتوع إسكندرية.

وعيناها إلى الصورة للمرة العاشرة، فألتفت مع التفاتتها فاعلًا الشيء ذاته.

وتسكت.. أسكت أنا الآخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28

يطول الصمت بيني وبين أمي..

الكآبة على وجهها، وربما على وجهي أنا الآخر وأنا أطوف بعيني على مفردات المكان..

ساعة حائط بندولها يروح ويجيء، هيكل صغير من النحاس على هيئة شمعدان[7]، صورة في برواز لصَرُّوف بك أبي السعد والد الأستاذ يعقوب بشارب مرفوع إلى أعلى وحُلة من حلل زمان، وعلى مسافة مني وفوق طاولة ذات سيقان عالية، تقف علبة من الخشب الثمين منقوش على جدرانها رسومات فاضحة..

لا أعرف لماذا اقتناها العم يعقوب (المتربي المحترم ابن الأصول)، وألا تستحي أمي وهي صباح مساء تطالع هذين العاريين وهما يتأهبان..

لا أكمل الجولة..

أرمق أمي بجانب عيني تتهيأ للقيام متجهة إلى غرفة نومها، فأطالعها من الوراء كما لو أنها ليست أمي بل شخص غريب أتعرف على ما به من تفاصيل، وعندما تلج باب الغرفة يروح قلبي إلى اليوم الذي تزوجت فيه من يعقوب.

كانا يجلسان ليلتها جلسة عروس وعريس..

هو في كامل هيئته، البذلة السوداء والبابيون والشعر المصبوغ، وهي بفستان أبيض وطرحة وصدر مكشوف، وأناس كلهم من ملة (موسى) فيما عداي. تتلفت مبتسمة لهذا وضاحكة لذاك كأنما الليلة أول فرحتها ولا تزال (بنت بنوت)، وأنا الكسوف يقتلني وأرمقها من مكان لا تراه.

ويدعوها للرقص، يد تحيط بخصرها والأخرى تتحسس كتفها، وأنا قهرًا فوق قهر وأموت بالبطيء، وأبي هناك تحت الثرى عظامًا يطويها التراب.

وأنتبه.. أشعر بحركتها وهي مقبلة يسبقها عطر خفيف، تعود بشعرها وقد صففته ولا فائدة، فمهما فعلت منظره كئيب..

تقول وهي تعود إلى المكان الذي كانت تجلس فيه: على فكرة إحنا خلاص وزعنا الأنصبة، حصة لأولاد يعقوب زي ما قلت لك وشوية لهارون وقدهم

لخالك إيزاك دا غير حصتي، وناويين نِدِّي الإدارة لواحد شامي اسمه نعواس الحكاية دي شغلته أبًا عن جد.

لا أبالي بالأنصبة ولا بهذا النعواس..

وتمد هي أصابعها ساحبة لفافة تبغ، وعيناها تبحثان عن علبة الثقاب:

- في الأول قال لنا: ما تخلوا مشروعكم فندق قمار[8] مش بس كازينو، ولما سألنا في مصر قالوا: ممنوع، الكازينوهات وبس هي اللي بنصرح بيها!

فأقول:

- يستاهلوا السلامة ويُشكروا.

- وطبعًا إنت أول العارفين إن الإسرائيليين مش مسموح لهم يحطوا إيديهم على أي حاجة في سينا ولا حتى في مصر كلها!

وتكمل:

- لحد عندنا مفيش مشكلة كلنا معانا الجنسية الفرنساوي، مفيش غير خالك إيزاك هو لوحده اللي معاه الجنسية الإسرائيلي، يقوم عمنا إيزاك يعمل إيه؟ يعمل إيه؟ بصينا لقيناه جاي يقول: إيه رأيكم لو دخَّلت أخويا شمعون مطرحي؟ واجهة يعني، قلنا له: برضه فكرة وآهو زيتنا في دقيقنا والأقربون أولى بالمعروف.

تشدني عبارتها الأخيرة وأتلقاها مبتسمًا، تلحظ وتبتسم هي الأخرى معلقة:

- آهو كلام اتعلمناه في مصر ومش عايز يفارق اللسان! المهم إن خالك إيزاك قال لنا: تضمنوه؟ قلنا له: شمعون غلبان وأبو عيال، وإنت من ناحيتك تدي له قرشين بعد ما تاخد عليه الورق اللازم، ولما كلمناه، يعقوب هو اللي كلمه، قام الخايب الغشيم ده ومرة واحدة يتعصب على يعقوب وكان عايز ينطحه! ويقولّه: إنتوا فاكرنِّي إيه! نمرة وللا خيال مآته! وفي إيه؟! في قمار ومسخرة! أنا مليش في الكلام ده ولا عمري أغضب الرب!

وتقلب كفها دَهِشة من غباوة الخال شمعون:

- رب! ربنا ياخدك يا شمعون وفي يوم يكون التلج نازل فيه قفف قفف من السما ومحدش يمشي وراك!

وتخشى مقاطعتي، فتشيح مردفة:

- دا ولسه شوف عمل إيه كمان، من غير حَياَ ولا ذوق يقول ليعقوب: واتفضل خلص قهوتك ومع السلامة علشان معاد الشغل بتاعي قرب! شغل.. شغل إيه يا موكوس! دا كَنَّاس في البلدية! يمكن وحشته المقشة والجاروف وللا اشتاق لجردل المية!

يلوح أمامي خالي شمعون، وهو يعانقني مودعًا في مطار (أورلي) قبل سنة تقريبًا عندما كنت ذاهبًا إلى مصر، لا أنسى هيئته في هذا اليوم، جاء بالعفريتة البرتقالي والكاسكيت بعد أن استأذن من عمله ساعتين، ما زلت أذكر دفقة الشوق التي لاحت في عينيه، وهو يقول:

- كان نفسي آجي معاك!

وأنا أجيبه ضاحكًا:

- فين؟ مصر!

- طبعًا مصر!

وألوم نفسي لأني لم أسأل عنه حتى الآن، وأشتُّ بخيالي فيه غير منتبه لأمي التي تقول عنه متهكمة:

- فَقَري! وهيفضل طول عمره فقري!

وتفاجئني قائلة:

- وزرت تربة البابا؟

أقول: نعم، وعيناي تقولان: وما شأنك أنتِ بهذا الأمر؟!

- طيب متقدرش تدبر لي زيارة أنا رخرة ساعة لما نيجي مصر؟

أقول: أعرف أن للعم يعقوب الكلمة الأولى والأخيرة، فهل سيأذن لكِ؟

- أستأذن دا إيه؟ دا هيبص ميلاقنيش، ولما أرجع أنكِّد عليه وأقول له: ياه يا يعقوب! دا أبو جلال كان هافف عليَّه بشكل، ولقيت رجليَّه واخداني عليه..

لم أستسغ ماتقول وأهم بالانصراف، وهي معي إلى الباب..

- نفسي أشوف مصر تاني، وأزور أم حسن والجيران والشارع اللي اتربيت فيه..

كلامها يمضي على أذني مرور الكرام، وأنشغل عنها بالتفكير في الذهاب إلى خالي شمعون، وقبل أن يهبط بي المصعد ويحول بيننا أرمقها من داخله، وما

أن فعلت بدا لي أنفها وكأنه تقوس عدة ملليمترات عما رأيته آخر مرة.

وبعد أن خطوت عدة خطوات في الشارع توقفت..

فكرت في الرجوع إليها مرة ثانية..

ليس من سبب حَالٍّ أو حتى واضح يدعوني لذلك، مجرد رغبة أو ربما وخزة ضمير أو شيء لا أفهمه تحديدًا، لكن يبدو أنه لم يكن بالصدق أو بالقوة التي تدفعني للاستجابة إليه، إذ استوقفني وحَسْب ثم أكملت سيري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

29

لا أذهب لخالي شمعون، أعود إلى البيت مطرقًا..

فهكذا حالي مع أمي، في البعد تنازعني نفسي كلما جُرْت عليها، وإذا التقينا يلوك القلب فيما لا يقال..

الشوارع التي أخوض فيها الآن، تحوطها بنايات أكثرها عريق ودسم. شُرَف تقف بأركانها أعمدة من الرخام على رؤوسها كؤوس وتيجان، أو تماثيل صغيرة منها ما يأخذ شكل البشر أو الحيوان، ناهيك عن الرسومات التي تزين أبوابها الكبيرة الخشب.

وصفوف صفوف من أشجار المارون والكستناء، هاماتها الخضراء لا عليها ذرة غبار أو تشكو من فاقة، فلطف السماء وزخات المطر عنها لا تنقطع.

وبريق ووسع..

ومَقاهٍ ومحلات وكلاب تتجول برفقة أصحابها، وفي الأعلى سحابات ثقال سرعان ما يتفرق جمعها أو يخطئ الظن وينهال المطر..

الدنيا لها قلب وروح وشفاه تبتسم، فلماذا أنا لست فرحانًا وأبدو كالمكتئب..

هل لأن تلكمُ الشوارع ليست شوارعي؟

لا حبوت عليها يومًا، ولا كان لي فيها صِبَا..

وما بال شوارع مصر وأخنانها، فكأنها الأخرى لم تعد شوارعي..

الأولى لا تعرفني، والثانية لم تعد..

بالفعل أنا مكتئب..

لكن لماذا الآن، فقد كنت بالأمس وأول أمس لا أشعر بما أشعر به الآن؟!

أهي أمي، وعندما أراها أتقلب من حال إلى حال.

أم هي بائسة، وأنا ظالم جَحُود.

أم هو شتات قلوب لم نصنعه، وإن كان يشقيني فهو بذات القدر يشقيها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويلمحني الشيخ منجي وأنا أعبر باب البيت داخلًا، كان يقف بنافذة غرفة نومه التي تطل على الشارع، ونادى عليَّ مشيرًا بيده أن أصعد إليه وأسرع فاتحًا الباب وأنا أقبل عليه كابيًا:

- يا جلال يا ولدي، إيش بيك؟!

وأخذني من يدي إلى غرفة الجلوس..

لم أدخل هذه الغرفة كثيرًا، فقد كنت من أهل البيت وأجلس معهم دائمًا بالشرفة أو الصالة، وشد بصري صورة لزوجتي خديجة المتوفاه معلقة على الجدار بحذاء صورة لجدها والد الشيخ منجي.

الوجه ساكن ويتأمل من يتأمله، وقلادة على الصدر اشتريناها معًا، وهذه الابتسامة أعرفها وتعرفني..

أخذنا هذه الصورة في (نيس) عندما ذهبنا إلى هناك بعد زواجنا بأسابيع، قلنا: يومين أو ثلاثة على الأكثر ونعود.. أنا الذي عدت جالسًا على مقعد مع ركاب الطائرة، وهي مُسجَّاة على ظهرها في تابوت من الخشب.

فبعد أن التقط لنا المصور بضع صور معًا، أردنا أن يأخذ لكل واحد منا صورة بمفرده. أنا دائم الابتسام ولم يستغرق معي الأمر أكثر من ثانية، أما هي فبدا وجهها حزينًا وعندها لم يجد المصور بُدًّا من أن أداعبها من طرف خفي، ففعلت وجاءت هذه الابتسامة..

ويدخل عليَّ الشيخ منجي ويلحظ، فيقول لي: اقرأ لها الفاتحة وكفى، لا تدع نفسك يا ولدي للأفكار وتهاويم قد تسوقك إلى ما يغضب الله.

وجلس يسألني عن حالي والذي يشغلني ويكدرني هكذا، وأنا أفضفض له إلى أن قال:

- يا سبحان الله.. ليش يا ولدي ليش.. قيلْ (اطرد) الأفكار السوداء هاذي من راسك، أمك هي أمك مهما فعلت ونصيبك هو نصيبك، مش باهي (صح) يا جلال إنك تجادل في اللي قسمه لك ربي وربك!

وطفق يشجعني على المشروع الذي عزمت عليه، وأني لو فعلت سوف تتبدد حيرتي وأزداد ارتباطًا ببلدي وفي ذلك العوض عما ينقصني. وانتهز الفرصة لإطلاق لسانه في أبي الشوارب، فقد كان يظنه أخرقَ ويخاف عليَّ من شطحاته، ولما تطرق بنا الحديث إلى أهل أمي لزم الصمت، اكتفى بقوله:

- الله لا يربَّحهم.. أنا مسلم ونخاف ربي، وما أبغي الخوض فيهم باللي يستحقوه.

أقول له:

- حتى جدي زكي؟

- حاشا لله! جدك هاذا مسلم ويعرف ربي.

لم يكن جدي مسلمًاً، فهو يهودي أبًا عن جد، غير أن الشيخ منجي كانت له مقاييسه الخاصة، فمن يفرق بين الحق والباطل ويحمل في جوفه قلبًا خيرًا يصنفه مسلمًا.

- وخالي شمعون؟

- شمعون..

ويومئ برأسه راضيًا..

وأهم أنا بالانصرف، إلا أنه يصر على أن أبقى:

- عندنا اليوم غداء قمقوم (لذيذ)، كسكسي بالعلوش وسلاطة مشوية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد الغداء، تركته وصعدت..

لم أكن قد تخلصت بعد من غفوة القيلولة التي واظبت عليها عندما كنت بمصر، فألقيت بنفسي على الفراش لأحْلُمَ بنادية..

كنت أهيم في خديجة قبل قليل، لكن نادية هي التي أقبلت..

جاءت ليس كما كنت أعرفها وأراها دائمًا، بحسنها وطُهْرها وثياب المدرسة، وإنما كما شهدتها لدى ذهابي لمصر، امرأة وجسد ومشاعر لم تعد..

فكأني أقف بثياب النوم بشرفة شقتنا القديمة بالظاهر، وهي في الأسفل تعبر الشارع، ترمقني رمقة خاطفة من مكانها ثم تخفض بصرها. أعرف أنها قادمة لي والآن بالضبط وبالدقيقة والثانية، فواربت لها باب الشقة، هي الأخرى تعرف أني بانتظارها وتتحسب ببصرها كي لا تلتقي أعيننا ومن يلحظ أو يخمن بما سوف يجري بيننا..

كنت راغبًا فيها فطفقت واقفًا بلا حركة حتى لا أفسد اللحظة، وتجتاز هي الباب بسلام ودون شيء يلفت النظر.

عيناها تشعان رغبة وتتأهب لإلقاء نفسها بين ذراعَيَّ، وأنا أشد رغبة وتأهبًا..

لم أرها على هذا النحو أبدًا في حُلم من الأحلام التي حلمتُها، أو راودتها أبدًا في خيال تخيلته..

استحييت من نفسي عندما استيقظت..

كنت شرهًا ونحن في الفراش، وأجوس فيها بعنف وكأني لا أعرف عن هذا الشيء إلا بدائيته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

30

استفتحت يومي بالاتصال بأم حسن..

من أول الصباح وهي تخايلني، فعرَّجت على أول هاتف عمومي في الطريق وهاتفتها، ويبدو أنها اشتاقت إليَّ هي الأخرى، فأكثر من مرة وهي تقاطعني أو تقطع كلامها سائلة عن ميعاد عودتي؟

وموجز سريع عن أحوال العمارة، أم نبيل التي تعثرت على بسطة السلم ولولا ستر الله لراحت فيها، وأبو السعد أفندي الذي أدهشه سفري على غفلة هكذا، وابنها حسن الذي مَرْمَغ سمعة الدكان في الوحل، فقد طبَّت عليه كبسة من التموين وأخرجوا قفصًا قفصًا من البضاعة المنتهية الصلاحية.

وتسأل: هل عندنا هنا في باريس صوف العسكري؟ فإن كان متوافرًا، تريد ثلاثة أمتار لزوج الست فاطمة التي تستأجر السطوح، وتلح عليَّ لشراء بالطو ماركة (الخفير) لبشندي البواب، فاندهشت وقلت لها: سوف أسأل! وإن لم أجد هل من الضروري أن تكون هذه الماركة بالذات؟!

فتقول:

- أيوه ماركة الغفير يا بلاش، هو طلبه كده.

وتسأل عن الترابيع؟ فأقول لها: إنهم لا يعرفونها هنا، يفضلون القبعات، هل آتي لك بقبعة؟

فتجيب غاضبة:

- وهو أنا بتاعة البرانيط والمسخرة وقلة الأدب، أنا واحدة محترمة ومعملش العيبة! وبعدين الترابيع مش ليَّه، دي للشغالة بتاعة أم عباس.

وكادت أن تضيع المكالمة في هذه الترهات، لولا أنها في اللحظة الأخيرة تذكرت أن رجلًا بعمامة اسمه الشيخ مسعود جاء للسؤال عني.

- مسعود!

- أيوه اسمه مسعود وبيقول إنه شيخ الكُتَّاب بتاع بلدكم، وإنه ابن عمك إمام اللي كان بيشيلك على كتفه وإنت صغير.

فأتذكر، وهي تلاحقني:

- كان جاي مرسال من أختك ليلى، بيقول إنها عايزاك في أمر مهم.

وأضع السماعة على قولها:

- وانـت ناوي بقـى تقعـد عنـدك لحد إمتى؟ يللا يللا أنا مستنياك..

أنعشتني المكالمة وأن في الدنيا من يشغله أمري، غير أني بعد برهة سألت نفسي: لماذا غفلتُ عن سؤالها عن نادية، وهي الأخرى لماذا غاب عنها السؤال عن أمي مثلما كانت تفعل دائمًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وانطلقت إلى (المنطقة العشرين)[9] ، حيث يقطن خالي شمعون...

ولده لبيب يا ستَّار يا رب ثقيل الظل واسمه يذكِّرني بأول رجل جاء لخطبة أمي بعد موت أبي، كان اسمه لبيبًا هو الآخر وناعم بارد قميء. كرهت اسمه ومنظره من يومها وإلى الآن، بل وأتحفظ مع كل من يحمل هذا الاسم أو أية سحنة تقرب من سحنة هذا اللبيب.

شاؤول هو الأصغر، أما الأوسط (إسحاق) فكان من نفس سني تقريبًا، وطالما ارتاح كل منا للآخر وخرجنا معًا في نزهة أو جلسنا على مقهى. أنا أشكو من ثقل الغربة وهو من ضيق اليد الذي يعاني منه أبوه، حتى إنه توقف عن الدراسة وعمل ساقيًا بإحدى حانات (بيجال) ليساعده على المعاش.

الخال في حال لا يسُرُّ..

كان مريضًا يلازم الفراش، وينادي بصوت خافت على زوجته سارة التي تصطحبني سائلًا: عمن بالباب؟ وفور أن دخلت عليه أخذته المفاجأة، تعطل التعبير على وجهه لحظة ثم شدني إليه فانحنيت ليضمني إلى صدره، وبراحة يده ضغط على كتفي لأبقى بجانبه على حافة السرير، والخالة سارة تفوح منها رائحة الطبيخ وتقول:

- آدي جلال أهه، ارتحت بقى يا شمعون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشقة بحجم علبة الكليوباترا..

فلا أنتريه أو حتى طُرقة ندخل منها، الصالة مباشرة وبمساحة لا تزيد على ثلاثة أمتار في مترين وربع، وكنبة إفرنجي تتحول إلى سرير عند اللزوم يحيط بهما مقعدان بالعدد نخرهما السوس، وحفر وشخبطة بقلم (فلوماستر) على الجدران.

لا شيء آخر يلفت النظر سوى برواز يضم صورة لغراب يلعق بيضه تشرخت قشرتها، وقط عجوز يرمقني من أول ما دخلت، ثم غرفة بابها موصد، والثانية التي ولجت بابها الآن تخص خالي وزوجه. غرفة كالـحُقّ لا شيء فيها يستحق الاحترام، ولا حل لها في تقديري سوى صفيحة جاز وعود كبريت..

أعرف أن الخال هو البائس بين إخوته، غير أني لم أحسب أن حاله قد تدهور إلى هذا الحد، وتطوف ببالي شقته القديمة بالسكاكيني. كانت أربع مطارح وصالة وشرفة تطل على مفرق طرق أشبه بالميدان، ويجيء ويروح إلى عمله كل يوم مزهُوًّا بسيارته التي اشتراها أيام عبد الناصر بالتقسيط.

أتأمل غرفة الخال..

السرير الذي أجلس على حافته لا يكف عن التزييق، وعارضته عليها خربوشان أظنهما بفعل القط الذي رأيته قبل قليل. وبأعلى الحائط الذي أمامي صورة للجد زكي، بحذائها صورة لعجوز بجلباب بسفرة جيبه العلوي يبرز منه قلم (كوبيا)، وطربوش قصير تلفه عصابة بيضاء. وجهه والعياذ بالله كئيب وله منخار يلفت النظر، كما أن تفاحة آدم حجمها كبير ولا تتناسب البتة مع عنقه النحيل.. أعرفه.. المعلم زِكْرِي والد الخالة سارة وصهر خالي شمعون.

وعلى حائط آخر صورة ولكن أكبر بكثير لمشهد الأهرام عند الغروب، وفي الأسفل من الصورة خواجات وأناس بملابس إفرنجية وجلابيب عليها چاكتات، وجمل يقبع على الأرض بلا حركة رغم أن صبياً حافي القدمين يصيح فيه من الوراء مهددًا بعصاه. لا أعرف مشكلة هذا الجمل، فربما يكون أطرشَ أو أنه يعرف قدر نفسه ولا يعطي اهتمامًا لهذا التافه الذي يمسك له بالعصا. وجمل آخر على ظهره خواجاية بقبعة وبنطال وينِخُّ استعدادًا للهبوط، والمسكينة الخوف بادٍ على وجهها وتمسك به بكلتا يديها كأنما تهبط بطائرة (ميراچ)، والصورة بمجملها يعلوها القِدَم، فيبدو أنها من الصور التي كانت تُطبع للدعاية لمصر أيام مليكنا السابق فاروق.

وأول ما بدأنا نتكلم دخل علينا القط، وفي لمح البصر قفز إلى جوار خالي ودخل أسفل اللحاف. يدفعه الخال مرة بعد مرة كي يحترم نفسه ويرحل وهو غير مكترث، فتميل عليه زوجة خالي وتمسك به لاعنة خاشه وخاش أمه وأبيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يسأل الخال عن مصر ومن كان يعرفهم بمصر، وأنا أجيب عن شيء أعلمه مرة ومرات من وحي الخاطر وبنات الأفكار، وإجاباتي وإن تعددت يمكن

إيجازها في كلمتين: الكل (عال العال) ويبعثون لك السلام، وقد اشتاقوا لك كثيرًا ويسألون: ألن تأتي لهم في زيارة عما قريب؟ فيهز رأسه راضيًا، ويراجعني أحيانًا مصححًا لي بعض الأسماء.

وأسأله عن أحواله، فيقول: الحمد لله، تخرج منه بصوت باهت، والخالة سارة تتابعنا ووجهها يقول: إنهم ليسوا بخير، بل في أسوأ حال..

ونتطرق لأمور شتى ويكون الحديث في شأن آخر غير مصر، غير أنه يقاطعني:

- يا سبحان الله! بقى الحاج عبد الرسول العلاف لسه فاكرني لحد دلوقتي وباعت لي السلام، والله فيه الخير.

ويعيد الوسادة التي أفلتت من وراء ظهره:

- وتلاقيه كبر في السن دلوقتي وصحته راحت؟

فأنتبه..

لقد قلت له فعلًا إن الحاج عبد الرسول يبعث له السلام، وأتذكر الآن.. الآن فقط! أن هذا الرجل لم يعد من أهل الدنيا! غاب عن بالي أن أم حسن سبق أن أبلغتني بذلك في حديث جرى بيننا.

لكن لا يهم.. حي يُرزق أو مات، الأمر سِيَّان! فلا أظن أن الخال سوف يتقصى هذا الخبر، وأنا الآن في مطب وليس أمامي من حل إلا أن أقول:

- صحته عال والحمد لله، وطول النهار قاعد يتشمس قدام المحل بتاعه.

يسألني ثانية:

- وإيه بقى أخبار الأزهر وسيدنا الحسين؟

أعرف أن هذا المكان أثير لدى الخال، فالتزمت الحذر حتى لا أتورط معه في أخبار ملفقة، وأجبته قائلًا:

- لا والله للأسف مجتش فرصة علشان أروح هناك.

- فرصة إيه وأسف إيه! دا أنا لما كلمتك في مصر، قلت لي إنك رحت مرة واتنين!

- أيوه أيوه افتكرت!

فيقول:

- أصل أنا قريت في طبعة الأهرام اللي بتيجي لنا هنا، إنهم عملوا توسعات قدام جامع سيدنا الحسين وخُضرة وممرات وخَلّوا المنطقة جذابة للسياح.

كنت قد قرأت هذا الخبر أنا الآخر، فأجبته مما قرأت وهو يومئ برأسه متابعًا وكأني أزوده بجديد. ولما كان الهجوم هو أفضل وسائل الدفاع، فقلت أبدأ بالكر عليه وألاحقه بالأسئلة حتى يكف عني:

- وإيه أخبار لبيب؟

- لبيب! لبيب في كندا دلوقتي.

- وشاؤول؟

يبتسم خالي:

- في المدرسة.

ووراءه زوجته:

- دا الألفا على الفصل.

أندهش من كلمة (الألفا)، وأتحول بوجهي إليها مبتسما..

- أمَّال أقول إيه! كان البابا بتاعي الله يرحمه بيقولها عَمَّال على بَطَّال على أخويا ملاك.

وتلتفت محدقة في صورة المعلم زِكْرِي طالبة له الرحمة، فتسري فينا العدوى أنا وخالي ونذهب إلى صورة جدي..

وأسأل عن إسحاق؟

- إسحاق..

صوت الخال به أسى وكأني طرقت موضوعًا لا يسر، ويروح عني بعينيه إلى الصورة التي تقف بها الأهرام. تتحاشاني الخالة سارة هي الأخرى، وتستأذن في القيام فيشير لها أن تبقى، ويبدأ الصمت وكأن إسحاق قد قضى ودقيقة وأسمع الخبر.

وأعرف أنه سافر إلى إسرائيل بعد ذهابي إلى مصر بشهرين، وأنه سرعان ما حصل على جنسيتها وصار واحدًا من أبنائها.

- ومش كده وبس! دول بيقولوا كمان: إنه اطوَّع في الجيش هناك، وأنا هنا نايم على وداني! وأطبطب على كتفه وهو مسافر وأقول له: على إيه

الشحططة والبعاد، بكره ربنا يكرمك هنا بشغلانه أحسن من اللي إنت فيها، وإن كان على الفرنكات اللي إنت بتدهالي أول كل شهر الله الغني بس خليك..

ويخفت صوته:

- وحلف عليَّه ما أروح معاه المطار، سارة هي اللي راحت وأتابيه رايح إسرائيل مش البرازيل زي ما قال!

ويأتي صوت الخالة:

- وانا كمان عملها فيَّه! ويدوبك وصلته لحد باب المطار، لا عرفت ركب إِنِي طيارة ولا سافر على فين!

لا أعرف على وجه التحديد لماذا يتكلمان هكذا، هل يتألمان بالفعل من (عملة) إسحاق أم هو كلام يقولانه أمامي على سبيل المجاملة، وأنظر إلى الخال مواسيًا ومشاعر في صدري تتكون حيال إسحاق، وترمقني الخالة ثم تولي مبتعدة أول ما تلمحني متجهًا ببصري إليها.

وتطفر دمعة من عين الخال، وهو يقول:

- كان بيضحك عليَّه! معرفتش إلا بعدها من إيزاك، وعمَّال أسأل نفسي من ساعتها وأقول: يا ترى هو اللي ورا الحكاية دي وللا مين؟!

ويطالعني بكل وجهه:

- قلبي مش مرتاح لإيزاك وبيقول لي إنه هو..

ودمعة في عين الخالة سارة، وقلبي يقول إنها تمثيل في تمثيل وهي مع إسحاق منذ البداية وتعرف أنه أخذ طائرة (العال)، والخال هو العبيط الوحيد في البيت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الطريق إلى البيت يلوح لي وجه إسحاق، وأسأل نفسي هل هذا الذي فعله بسبب العَوَز أم المعتقد؟

وإن كان لهذا السبب أو حتى ذاك، فهذا فراق بيني وبينك يا إسحاق..

ويلوح لي أيضًا أخوه لبيب، وكأن شعوري القديم تجاهه تأفل حدته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

31

والتقيت التجار الهنود..

كانوا بانتظارنا على مقهى (الكاريدور) بالشانزليزيه، وقد عرفتهم على الفور فأشكالهم لا تخطئها العين ومنظرهم لافت لكل من يلج باب المقهى، وهم يجلسون على إحدى الطاولات وبفم كل واحد منهم (البايب) الذي يخصه.

بَدَوْا صغارًا بالفعل، لكن ليسوا أقزَامًا كما توقعت وإنما تتراوح قاماتهم بين قامة القَزَم والإنسان المعتاد. الساعات التي بأيديهم حجمها كبير ومكتظة بالعقارب والدوائر والاتجاهات، وماعدا ذلك كل شيء فيهم كان دقيقًا، الأنف، الأذن، الساق، الأصابع والكف، والمعاطف التي يرتدونها على غرار المعاطف التي يذهب بها الصبية إلى المدرسة. ولا يملئون المقاعد، اثنان منهم تصل أقدامهما بالكاد إلى الأرض، أما الثالث فقدماه معلقتان في الهواء وإذا أراد أن يريحهما ويطال بهما أرضية المقهى، فعليه أن يساعد نفسه ويتزحزح بمؤخرته حتى حافة المقعد.

هذا الثالث أظنه كبيرهم، وسحنته وهيئته الخالق الناطق (شايب الكوتشينه) الذي نراه في أوراق اللعب، مع فارق واحد هو النظارة الطبية التي فوق عينيه. وقد أدار هذا المحترم دفة الحديث من الألف للياء، وزميلاه الآخران يرمقانه بصمت ووسيلة اتصالهم به مقصورة على لغة العيون، والكل بلحية كثَّة وشارب ملوي إلى أعلى.

فكرة صائبة أن يحتفظوا بلحاهم وشواربهم على هذا النحو، فلولا ذلك لبدوا ثُلَّة من العيال. وعلى الطاولة التي أمامهم ثلاثة أقداح من الشراب فرغ محتواها والرغاوى لا تزال عالقة بحوافها، وكل واحد قبالته كيس (أنفورا) محشو بالتبغ، والمقهى كله مشغول بهم من يحدق أو يشير نحوهم أو يتفل في أذن الآخر عنهم بكلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقدمنا العم چاك السمسار بادئًا بالسلام، واضطره طوله الفارع أن ينحني عليهم وهم في المقابل يشبون على أمشاطهم، ثم أبو الشوارب وأنا، والدهشة تغمرني من أصواتهم الضخمة التي لا تتناسب البتة مع هياكلهم الدقيقة وأفواههم التي كحبات الترمس. ودَاخَلني إحساس بأنهم أناس (لَبَط)، وكذبوا على أبي الشوارب عندما ادعوا بأنهم لا يعرفون اللغة الفرنسية، فعندما أقبل علينا النادل وأصررنا على أن يتناولوا معنا مشروبًا آخر كاد أن

ينطق أحدهم بالفرنسية اسم المشروب الذي يرغبه، غير أنه لحق نفسه واستخدم الإنجليزية.

جلسوا قبالتنا، كبيرهم يتحدث والعم چاك ينقل إلينا الكلام مترجمًا بالفرنسية، والآخران يقلبان النظر فينا وأعينهم تروح وتجيء مع مسار الكلام، ويكاد يثبت في يقيني أنني حيال ثلاثة ألغاز وليس تجارًا غشمًا كما أفهمني أبو الشوارب.

ورغي في رغي بيني وبينهم لعلي أستشف شيئًا يؤكد الهواجس التي تساورني ولا فائدة طبعًا، وأبو الشوارب يتململ من هذا (اللت والعجن) الفارغ ويريد الإنجاز والدخول في الكلام المفيد، فأخرج من جيبه قائمة الطلبات التي سبق أن قدموها له. ومن خلال ترجمة العم چاك أخذ يشير بأصابعه على كل صنف وسعره في الجملة، وهم يتبادلون النظر ويهزون رؤوسهم كأنما الأسعار ترضيهم، ثم ينوب عنهم كبيرهم السيد/ كومار قائلًا بملء فِيه: نعم موافقون، رغم مغالاة أبي الشوارب الشديدة في الأسعار. وأنا أشعر بالحيرة وأقول في نفسي: من هؤلاء الناس؟ هل هناك في الدنيا تجار بهذا العبط، أم أن المسألة بها ملعوب؟!

وعندما بدأ الحديث عن موعد التسليم أصروا على ألا يتجاوز الأمر شهرين من الآن، فوافقنا ورجع أبو الشوارب بمنكبيه إلى الوراء طالبًا مائتَيْ ألف فرنك كمقدمة وعربون، والسيد/ كومار يتأمله وعيناه تشردان لحظة ثم تعودان حتى حسبت أنه يستكثر العربون، وأخيرًا قال وهو يضغط على مخارج الحروف: مائتَيْ ماذا؟ مائتَيْ ألف؟!

رمقني أبو الشوارب ثم رمق العم چاك وأخرج سيجارة وأشعلها ونَفَس في الثاني في الثالث، وكل هذا بالبطيء ظنًّا منه أن هذا الذي يفعله (مَعْلَمه وشغل تجار)، ثم أشار بإصبع السبابة قائلًا: نعم مائتا ألف لا ينقصون فرنكًا واحدًا..

فتبسم له السيد/ كومار وأخرج دفترًا للشيكات من حافظته ووقَّع شيكًا بمليون فرنك، وهو يقول: ليس مائتين فقط يا أيها الشهبندر! بل مليون.. واصرف الشيك أولًا وتأكد أن نقودنا جاهزة، ولا نريد منك إيصالًا أو أي شيء يفيد التسلُّم فنحن قوم شعارنا حسن النية والاتكال على الله..

فحدقنا كلنا فيه، والهنديان الآخران صامتان ويتابعان ولا تفهم أبدًا ما إذا كانا راضيَيْن عما يحدث أو غير مقتنعين، الذي كان باديًا لي فقط أنهما كانا يحسبان انفعالاتنا ومدى تقديرنا لما فعله شيخهم كومار.

حاول أبو الشوارب أن يبادل الحسنة بالحسنة، ويبدو في أعين الجالسين كما لو أنه هو الآخر تاجر محترم شأنه شأن السيد/ كومار، فافتعل الطيبة في

التعامل والذوق وقطّب ما بين عينيه، قائلًا: بأن هذا كثير وكان يكفي مائتا ألف كعربون، وأشاح بوجهه عن الشيك. وعندها وضع السيد/ كومار راحته على الشيك مخفيًا إياه، ورمقه بنظرة تساؤل عما إذا كان جادًّا فيما يقول، غير أن أبا الشوارب سرعان ما عدل وسحب كلامه لما زغده العم چاك في ركبته من أسفل الطاولة.

وتسلَّمنا الشيك..

أبو الشوارب الفرحة تقفز من عينيه ويضعه في مكان أمين بحافظته متمتمًا بشفتيه، أظنه كان يقرأ الفاتحة، أنا الآخر كنت أتلوها في سري. والهنود على غرارنا منهمكون في تعاويذ تخصهم يتمتمون بها وأياديهم مسجاة على الصدور، والعم چاك يقلب النظر فيما نفعل دَهِشًا كأنما نحن ثلة مهاويس!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الشيك محررًا على بنك (سوسيتيه چنرال) وتحديدًا على الفرع الذي نتعامل معه، فقلنا: هذا من حسن الطالع، ولم نكن نعلم وقتها أن هذا كان تدبيرًا محكمًا من الهنود. ومن نجمة في صباح اليوم التالي كنا نلج باب البنك، حيث توجهنا إلى صالة كبار العملاء ووقفنا قبالة الموظف الفرنسي فرانسوا الذي يعرفنا ونعرفه، وفي دقائق أنهينا المهمة وتسلمنا النقود. وقبل أن نبرح الشباك، أشار لي أبو الشوارب بأن أحتاط لحقيبة النقود، وبدأ في التخابث على فرانسوا.

قال له بكلمات سريعة، ورأسه مائل ويضع يده في جيب سترته كمن يخرج شيئًا: لحظة، لحظة يامسييه فرانسوا؟

ثم سأله: عما إذا كان رصيد السيد/كومار يسمح بصرف شيكٍ آخر بأربعة ملايين؟

فتأمل الرجل شاشة الحاسوب قائلًا: أرني الشيك؟

وأبو الشوارب يشير له بأصابعه المضمومة بأن ينتظر، ولا يزال منهمكًا في البحث بجيوب السترة واحدًا بعد الآخر ثم البنطال، ويقلب بعدها في دفتر بيده لعل الشيك بين الصفحات، ثم نفخ بفمه في الهواء لاعنًا اللهوجة والنسيان! ولتأكيد موقفه زجرني ببضع كلمات متهمًا إياي بأني شغلته بالتفاهات عندما كنا بالشركة حتى نسي الشيك، وأنا معه على الخط وأعتذر، وفرانسوا انطلى عليه ما نفعل ويقول: لا بأس، لا بأس، ولا داعي للقلق، أسرعا بالشيك فالحساب إلى الآن يسمح..

فزفرنا براحة، إذ كان هذا أقصى ما نود سماعه، وخرجنا بالمليون فرنك وأبو الشوارب مزهو بنفسه ويقول:

- مش هيك مليح؟ ها نحنا استلبخنا صاحبك فرانسوا واتأكدنا أن الجماعة مصاريهم جاهزة، المهم إننا ننشد الهمة ونسلمهم البضاعة وناخد نحنا مصرياتنا (فلوسنا) ونكبَّر الشركة كمان وكمان.

وأردف ونحن نغادر بوابة البنك:

- ما قلت لك قبل هيك إننا وقعنا على كنز وأُمَّاتنا داعيالنا.

وأنا تغلب عليَّ شهوة المكاسب والأرباح، وهو يردد ما سبق أن قاله لي في لقائنا السابق:

- شو رأيك هلاّ يا محترم، هتكمل معانا هون، وللا فكرك مشغول بمشروعك ياللي هونيك.

- مصر..

قلتها وأختي ليلى ترد على بالي، وأسخط من نفسي التي أنستني أنها كانت تريدني في أمر هام، وأنه كان من الواجب عليَّ أن أتصل بها في الحال لا الآن بعدها بأسبوع!

وأعبر الشارع مسرعًا إلى الهاتف العمومي، وأبو الشوارب يصيح في ظهري:

- على وين يا زلمة؟ على وين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صوت ليلى حزين، وهي تبلغني بأن العم إبراهيم في رحاب الله الآن..

وتشرع في البكاء، ثم سرعان ما تعدل قائلة:

- قبلها بيومين بعت لي مرسال، قلت: أروح ما ارحش، أروح ما ارحش، وفضلت على كده لحد ما جت عمتي هانم لحد عندي، وقالت لي: دا في شدة يا بنتي ولازم تسألي عليه..

أعرف أن أختي ليلى أستاذة في الرغي، فحثثتها على الإيجاز:

- المفيد يا ليلى! المفيد!

- المفيد! خلاص أنا جايـة أهه للمفيد، كان نايم في فرشته وكلهم حواليه، مد إيده واداني صُرَّة فلوس وقال لي: عديهم يا بنت اخويا، قعدت أعد أعد وكلهم

زاغرين، وبعدها قلت له: دول عشرين ألف يَابَا إبراهيم، والصُرَّة زي ما هي قدامي، لا أنا عارفة اللي فيها بتاعي وللا بتاع مين، لحد هو ما قال: أنا عارف إنهم مش كفاية ولا يتعدوا عوض، اعتبريهم يا بنتي جبر خاطر وسامحيني..

ويضيع الخط، فأعاود الاتصال..

- رحت هازَّه راسي يا ابن والدي، وأنا بقول له في عبي: مسامحاك، قام قال لي: أسمعها بوداني! عِدْتها مرة واتنين، وبعلو حسي قلت له: مسامحاك، مسامحاك، قال لي: من قلبك، قلت له: وحق الشدة اللي انت فيها مسامحاك، قال: كده أموت مرتاح..

وتضحك:

- وهما يومين واشتريت عجلين، قلت أربيهم عند عم إمام، وبيضت البيت وكام ألف كده لسه شايلاهم.

ويعود التأثر إلى صوتها:

- وسأل عليك يا جلال! قال لي: هاتيه من تحت الأرض، دا برضه ابن اخويا وعمر الضفر ما يطلع من اللحم.

فقلت متسائلًا:

- طب وأنا هطول حقي إزاي؟

- وهو أنا كُتّ هنساك، بعد العزا فتحت الكلام مع ابن عمك فريد، قام قال لي: بس إنت ترجع بالسلامة وساعتها يحلها ألف حلال.

ووضعت السماعة، وأنا شأني شأن ليلى يختلط عليَّ الحزن بالفرحة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

32

لم تمض أيام إلا ونُفاجَأ بإعلان في جريدة (اللوموند) بأن مؤسسة (كومار رامداس – إخوان) ومقرها كلكتا، ترغب في استيراد صفقة من البغال الفرنسية المخصصة للأعمال الشاقة وجر الأحمال، ورقم الهاتف المدون بالإعلان هو نفس الرقم الذي نتعامل عليه مع السيد/ كومار؛ فضلًا عن أن الاسم هو الاسم (كومار رامداس).

فقلنا أنا وأبو الشوارب في نَفَس واحد: إنهم هم (ولاد الإيه!) فلنسرع، قبل أن يسبقنا أحد إلى هذه الصفقة.

والتقيناهم من جديد ومعنا العم چاك، والحال هو الحال، أكياس التبغ والبايبات والقامات التي تثير الانتباه.

لم يجيئوا هذه المرة بالمعاطف والبذلات، أتوا كلهم (إسبور)، بناطيل چينز وأحذية من الكاوتشوك، وعلى كل واحد منهم غطاء رأس أشبه بالبيريه. بَدَوْا كفريق من الأقزَام في رحلة سفاري، والثلاثة على أعينهم نظارات ماركة (ريبان)، وأنا الدهشة تأخذني، وأسأل نفسي عن النظارة الطبية التي كان يضعها على عينيه السيد/ كومار؟ وبالله كيف يرى ويدقق في الأرقام المدونة بالورق الذي بأيدينا، رغم أنها بخط صغير؟!

وأبو الشوارب انتهز الفرصة ليؤكد لهم، على أنه قادر على أن يجلب لهم ما يشاؤون!

ليس البغال فقط فهذا أمر بسيط، وإنما أي فصيل ولو نادر من القطط والكلاب والأسماك، وأجبان المعيز لو أحبوا أو حتى لبن العصفور، والبراغي والمسامير وإطارات ميشلان وقطع غيار الرينو والبيچو، وكل ما يُشترى ويُباع في (بلاد الغال) من الإبرة للصاروخ..

وأنا مشفق من هذه المبالغات، والعم چاك يقاطعه المرة بعد الأخرى كي يكف ويدخل في الموضوع، والسيد/ كومار يومئ له برأسه كل دقيقة دون أن نلحظ بالطبع ردة فعله، (فابن الذين هذا!) كان يرانا جيدًا من وراء عدسات الريبان، ونحن لا نرى ما تقوله عيناه. ولما بلغ به السأم من أبي الشوارب، نقر بإصبعه على حافة الطاولة التي بيننا قائلًا: بأنه ينظر إلى صفقة الثياب التي أبرمنا اتفاقها ودفع لنا عربونها، على أنها بادرة تعامل لنا معهم واختبار، وإذا أثبتنا جدارتنا وسلمناها في الميعاد وحسب المواصفات، فإنه يعدنا بألاّ تفلت من أيدينا صفقة البغال.

ويعم سكون تعقبه حكة بإصبعه على جبينه، ثم يميل على رفيقيه متحدثًا معهما بلغتهم المحلية، حديث قصير غير أن به شيئًا من الشد والجذب، وانتهى على حسب ما فهمنا بتسليمهما بنصيحته، ونُفاجَأ به يُخْرج لنا دفتر شيكاته ويوقع لنا على شيك جديد بنصف مليون، فيحسب أبو الشوارب وأنا معه بأن هذا الشيك دفعة جديدة من صفقة الثياب، ونلتزم الصمت لنسمع المزيد، غير أنه ينشغل عنا ببعض التعاويذ التي يتمتم بها، ويرمق رفيقيه ثم يرمقنا قائلًا: أنتم أناس طيبون! طيبون وحق الله! وقد جئنا من وراء البحار وفي ظننا أنه قد يصادفنا سوء الحظ، ونقع فريسة في أيدي تجار لا يرحمون، لكن الله استجاب لدعوات أمهاتنا، وللنسوة والعجائز الذين سلمونا أموالهم لنتاجر بها لحسابهم..

ويتنهد مرتاحًا لنا ثم يكمل: وقد حاورت رفيقَيَّ كما سمعتما، ووافقا على منحكما صفقة البغال، فلكما الصفقة يا محترمان، وهذا الشيك يا سيد/ شوارب ليس من الحساب القديم وإنما للبغال! خذاه يا أفاضل بوصفه عربونًا أو ربط كلام، فقد انفتح قلبي لكما..

وينظر إلى رفيقيه، فيومآن برأسيهما لي أنا وأبي الشوارب، قائلَيْن بصوت واحد: ونحن الآخران انفتح قلبانا لكما..

وأنا وأبو الشوارب نبادل هذه الإيماءة، بإيماءة أحسن منها..

ويكمل السيد/ كومار: ومن الآن فصاعدًا لن نتعامل مع غيركما، وبكل ثقة أقول أصبح لنا الآن إخوة كرام في هذا البلد.

وأبو الشوارب يقبض بأصابعه على الشيك غير مصدق ولا أنا، والعم چاك يدق على آلته الحاسبة ليعرف مقدار عمولته في الصفقة الجديدة..

ويبدو أن السيد/ كومار شعر بأن أبا الشوارب هو من بيده الأمر وأنا مجرد إمعة وليس لي أي دور، فانتحى به يتكلمان في أمور الحياة والعم چاك ينقل بينهما الحديث، ولما طال به الوقت انتابه الملل وبدأ في (الكَرْوَتة) يترجم جملة ويبتلع اثنتين حتى فرغت الجلسة. ولما وَلَّوا بظهورهم حمدنا الله على هذا الشيك الذي جاءنا على الطبطاب، والعم چاك لا يزال واقفًا لم ينصرف ويسأل عن نصيبه في صفقة البغال، وأنا وأبو الشوارب نقول له بفم واحد: اسْتحِ يا أخي! فالأيام قادمة والصفقة لا تزال كلامًا في كلام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

33

لا أعرف ما العلاقة بين البغال الفرنسية، وفاكهة وخُضر أخونا الليثي!

إذ لاح الليثي في خاطري أثناء جلستنا مع الهنود، تذكرت يوم أن ولجت بوابة سوق روض الفرج باحثًا عنه، وظهر كفه وهو يدفع دخان الشيشة ويقول: إنه على استعداد لأن يضع يده في يدي وأصبح شريكًا له في تجارة الـخُضر والفاكهة، غير أنه لا يفهم ولا يعمل إلا في محاصيل زمان الخالية من الأدوية والهرمونات.

ويبدو أن رائحة المكاسب التي أتوقعها من هؤلاء الهنود شجعتني، فقلت في نفسي: ولماذا لا أبدأ من الآن في جمع المعلومات عن حال السوق هنا كي تنفعني عندما أبدأ المشروع، وتركت أبا الشوارب والعم چاك واتجهت مسرعًا إلى البيت لألحق بالشيخ منجي، فاليوم إجازته وقد سبق أن وعدني بالمساعدة في هذا الأمر.

وكان الرجل عند حسن الظن، اتصل أمامي وفي الحال بتاجر مغربي الأصل اسمه الشيخ (بومكناس)..

وفي الحال ذهبنا إليه بسوق الجملة..

كان والله رجلًا يملأ العين..

ومن شدة اعتنائه بمظهره، البالطو الكشمير والحذاء الكلاركس والنظارة الكارتييه، بدا لي وكأنه يتاجر في الأحجار الكريمة وليس في الـخُضر والفاكهة.

محله كبير بدرجة ملفتة، يوازي ثلاث محلات من المحلات التي تجاوره..

ومن طابق واحد تعلوه سَنْدَرة، وكراتين مرصوصة فوق بعضها البعض، برتقال ويوسفي وكيوي وكوسة وبازلاء وخيرات أخرى كثيرة. وهي على كل لون، المزروع زراعة حرة أو في (صُوَب)، والمَهجَّن أو (بعبله) وعلى خلقته الأولى التي خلقها لنا الله. وأرضية المحل نظيفة من غير سوء، فلا ثمرة تالفة أو عود جرجير أو بصلة ورؤوس ثوم سقطت من زنبيل، ولا بصقة أو ورقة ملقاة أو حشرة تتنطع هنا وهناك، وجهاز للحاسوب يعلو طاولة من الخشب، أمامه رجل يدق على الأزرار حاسبًا الداخل والخارج والنفقات والأرباح.

والسوق بمجمله صخب وهرولة وروائح وأحيانًا مشاحنات وقلة أدب وسباب، وممرات تجوبها مركبات تدخل ببضاعة وتخرج بأخرى، وفاكهة وتمر ورمان

وحب النَّارنج وكراتين لا تدركها العين كأنما قوت الدنيا جُمعَ في هذا المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التقانا الرجل مرحِّبًا وأجلسنا على مقعدين بحذاء جدار تعلوه صورة للملك الحسن الثاني بلباسه المغربي، وقدم لكل واحد منا قدحًا من اللبن المخلوط بقطع التمر كعادة أهل المغرب في الترحيب، ولما أجهزنا عليهما لحقنا بالشاي الأخضر.

وقبل أن نبدأ في الحديث، أشار الشيخ منجي بسبابته إليَّ مزكِّيًا:

- إسمعني يا شيخ بومكناس، هاذا بحال ولدي وكان راجل بنتي خديجة الله يرحمها، الله يعطيك الستر تهله فيَّه (تساعده من أجلي).

فيربت الرجل على الطاقية البيضاء التي تعلو رأسه:

- هو فوق رأسي..

وأفيض أنا عما في مخيلتي ورغبتي في زراعة قطعة أرض ببلدي بالخضر والفاكهة، على أن أخصص هذا الإنتاج إلى فرنسا، وأني أتعشم أولًا أن يكون هو المستورِد، وإذا وافق يُعرفني بالأنواع التي يحتاجها السوق هنا والمواصفات التي تُقبل بها، ويعطيني من خبرته قبل أن أشرع في الزراعة والتصدير.

والشيخ منجي يؤازر:

- نِصحه يا شيخ بومكناس، نِصحه نِصحه بارك الله فيك.

مكثت حوالي نصف ساعة وأنا أشرح للرجل، حتى لاحظت أن شدة حماستي أدخلتني في دوامة التكرار، وطفقت أعيد عليه ما سبق أن قلته وبنفس العبارات والكلمات، والرجل طويل البال ويستمع، وبعد أن تأكد من أنه لم يعد لديَّ شيء أضيفه، قال:

- خلي عليك (سيبك من) شغل الـخُضرة يا ولدي، دير بالك في شي آخر.

والتفت إلى الشيخ منجي مردفًا:

- وأنا من شان ها الشيخ هنجيب لك شغل فلوسه أكسب، إيش تاتقول؟! (إيه رأيك؟!).

كدت أقول له: إن أحوالي بخير والحمد لله ولا أبحث عن مورد رزق، إنما المسألة رغبة مني في الارتباط ببلدي بعمل مفيد، والزراعة هي حرفة أهل

أبي فدعني أجربها وأصدِّر لكم، كدت أقول هذا لولا الشيخ منجي الذي لكزني في ركبتي كي أتريث وأستمع إلى ما يُقال، واستطرد الشيخ بومكناس:

- فكر في الجرانات (الضفادع) يا ولدي، الجرانات هيجيبلك فلوس كثيرة.

- الضفادع! ضفادع إيه يا عمنا الشيخ؟

- إييه الجرانات.. تجمعها من الوادْ (الترع ومجاري المياه) وللا تربيها في الأراض، وتصفطها لينا (وتصدرها لينا) في كراتين.

وأنا تأخذني الدهشة وأحدق فيه محبطًا، وهو مستمر في الكلام:

- السوق الفرنساوي يا ولدي محتاج جرانات، والجرانات المصري كبار ولذاذ، وأنا تنعرف (أعرف) تاجر دزايري (جزائري) غياخد (هياخد) منك السلعة كلها.

فأهز له سبابتي بضجر: بأن لا. لا. لا. إلا الضفادع! وهو يظن أن فيها كل الخير، ويحببها لي:

- إسمعني مزيان (إسمعني كويس) سوق الجرانات في فرنسا غتجيبلك فلوس كثيرة، والفرنسيس هنا تبغيوها تياكلوها في أحسن رستورانات.

ويلحظ الشيخ منجي التأفف البادي على وجهي، فيتدخل قائلًا:

- إيش تاتقول يا شيخ بومكناس؟ إيش تاتقول؟ مالنا نحنا واللي ياكله الفرنسيس! الله يطيحه في كروشهم وهاذا اللي ياكلوه يمرضهم.

ويشيح بيده غاضبًا:

- بعِّد عن ولدي جلال الزفاضع والحنوشة والسعادين (الضفادع والتعابين والقرود) وكل ما يؤذي الكروش! وخلينا نحنا يا شيخ في موضوع الـخُضرة أحسن لينا.

فيسايرنا الشيخ بومكناس، ويقول لي:

- دير اللي بغيتيه يا ولدي (اعمل اللي إنت عايزه يا ابني)، لكن متنساش إن المصريين منجهوش (منجحوش) في شغل الخضرة، وأنا خايف عليك يا ولدي إنك تفشل بحالهم (زيهم).

وترك موضوع الضفادع وبدأ في الحديث معي في الكلام عن الفاكهة والخضر، وإكرامًا لخاطر الشيخ منجي، قال لي: إن محله سوف يكون أول المستقبلين لبضاعتي، ودنا مني يسدي لي النصائح عن حسن التغليف وأن يكون الثمر طازجًا وبأحجام متساوية قدر الإمكان، وإن أردت التميز فعليَّ أن

أحرص على أن يكون الزرع خاليًا من أية إضافات سوى السماد، وحبذا لو كان هذا السماد طبيعيًّا من روث الدواب فقط، فثمر هذا الزرع له قدر كبير هنا، ومطلوب في المطاعم الراقية والفنادق فئة الخمس نجوم، وأعطاني ورقة مسجل بها بياناته وكيفية الاتصال به في حال التصدير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

34

التقينا كلنا بمطار (أورلي)، عازمين السفر إلى أم الدنيا..

العم يعقوب بقميص أساوره مذهَّبة وبذلة وربطة عنق، وأمي بالچينز وفوق رأسها قبعة، وتخطو بانحناءة نحو الشمال كأنما القدم التي هنا تشكو من عرج خفيف.

والمسكينة مهما تغندرت أو لوت لسانها، هي كاميليا بنت زكي الأزرع الذي كان يكسب رزقه سحتوتًا بسحتوت، ولم يكن لها مشاوير إلا عند البقال والجزار والعطار وكل ليلة سبت إلى (سينما مصر) بشارع الجيش، أو إلى مدام (رطل) التي كانت تعلمها شغل الكروشيه، ودماغها هذا الذي أسفل القبعة، جزء غير هين منه لا يزال محشوًا بكلام أم حسن وأم نبيل، وما كانت تقوله (صفية المهندس) كل صباح في برنامجها الإذاعي الموجَّه لربات البيوت.

وإلى جوارهما زوج خالتي بيلا (الزلنطحي هارون)، بخيشومه الكبير وطقم الأسنان. كنت أمقته وأحسبه دائمًا فالت الزمام أو واحدًا من رجال العصابات، ليس الكبار منهم وإنما الحثالة التي تقوم بأحط الأفعال. تبدل حاله الآن، ويحاول النذل تحسين صورته، لكن مهما فعل لا يزيد على كونه مجرمًا متقاعدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا آخر من وصل، والمفاجأة أن خالي شمعون كان معي، وبيده هو الآخر حقيبة السفر.

التقوه بدهشة، وقالت له أمي بشيء من الامتعاض:

- طيب جلال ومسافر معانا على حسب الاتفاق، وإنت هنا بتعمل إيه؟

يتلاشاها مقتربًا من العم يعقوب، وتقلب هي كفها قائلة:

- وبعدين إنت مش واعي لنفسك وللا إيه يا شمعون، دا انت اللي زيك تلزمه مستشفى وعلاج، مش سفر ووجع قلب وتنطيط!

وهو بوادر غضب تلوح على وجهه، وعيناه غير غافلتيْن عن هارون الذي يرمقه ساخرًا. وتعلن سماعات المطار عن طائرة مصر للطيران المتجهة إلى القاهرة وأنه تأخر ميعاد الإقلاع، فنرفع أنا والعم يعقوب أعيننا نحو مصدر الصوت، وهارون يشعل الموقف متهكمًا على الخال:

- أختك شفقانة عليك يا أبو شاؤول، وقصدها تقولك إنك فَنِّشت وعدمت ومعدش فيك حيل، وبلاها حكاية السفر دي يا ابن الحلال؟

فيلوِّح له بسبابته محذرًا:

- بَعِّد عني يا هارون، إنت بالذات تبعد عني.

وينتقل إلى العم يعقوب:

- إحضرنا يا أبو سيمون، واحد هَفِّت عليه بلده، واحد لا طلب منهم حق التذكرة ولا قال لحد اصرف عليَّه هناك، ليهم دعوة بيه؟

فيومئ له العم يعقوب بما يفيد الإيجاب، وبأن معه كل الحق.

- يبقى خلاص يا سيدنا البيه، نبه بقى على الراجل اللي معاك - ويشير إلى هارون - يلزم حدوده، وعلى الست بتاعتك تسيبني في حالي.

فترد أمي بصوت خافت ضجر:

- الست بتاعته..

يُسْكتها العم يعقوب بإشارة من يده، ويدعونا كلنا لتناول مشروبًا لحين إقلاع الطائرة. يتردد خالي وهو ينظر إليَّ، فأشير له بأن: نعم، فيستجيب ويسير إلى جواري وديعًا صامتًا، فالمسكين لأني تكفلت بنفقات هذه الرحلة أبدو له كما لو أني وليّ لأمره، ويشاورني في الصغيرة قبل الكبيرة.

وأنتحي بأمي وأسألها الرفق به، وعما جرى لقدمها فتجيب بصوت كالهمس:

- دا كان حتة يوم والحمد لله إنه عدَّا على خير، أنا أول ما سافر سيمون من هنا ويمكن كان لسه نازل على السلم بالشنط ومعاه يعقوب، رحت ساحبة كرسي وطالعة عليه علشان أشيل صورة الست دي اللي اسمها ليليان، وأول ما مديت إيدي على الصورة رحت متطوحة من فوق، والبرواز هو راخر انكسر نُصِّين! ويعقوب لما رجع من المطار زعل وكانت خناقة لرب السما!

- والصورة؟

فتقول، وهي تتلفت بعينيها حذرة من زوجها يعقوب:

- صورة إيه! ما خربشتها وكعمشتها، وقلت له: عمرها لحد كده، وللا انت زعلان عليها مش على رجلي اللي اتلوحت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصعدنا إلى الطائرة..

هم إلى مقصورة الدرجة الأولى، وأنا وخالي إلى مقعدين بذيل الطائرة. لم آخذ معي كتابًا أو جريدة أو أي شيء أقرأ فيه، من غشمي ظننتها فرصة لأتكلم وأرغي مع الخال أثناء الطريق، غير أنه خذلني وقبل أن تترك الطائرة سماء باريس، كان هو قد تسلطن وفتح في النوم.

وعندما هبطنا، نظر كل منا إلى صاحبه وأخرج هو علبة سجائره والقداحة. أشرت له على العلامة التي تحظر التدخين، فأومأ برأسه ثم أعاد القداحة دون أن ينتبه إلى أن علبة الدخان انزلقت وسقطت بجوار قدمه.

تغير وجهه..

تغير عما كنا في المطار، أو حتى قبل ساعة عندما استيقظ وكلمني عن ابنه إسحاق..

تغير ليس على نحو يوصف بل يُحس، فسكون غريب كان يطفو على وجهه، ليس مجرد سكون بقدر ما هو تعطُّل عن التعبير، وليس هو أيضًا بالسكون الذي يبوح وتفهم منه أو حتى الذي لا يبوح، فيه من هذا ومن ذاك.

عزوت ذلك إلى ما كان فيه، فقد كان مشتاقًا إلى هذه اللحظة ومستغربًا لها في آن، وربما كان قلقًا أو حتى متوجسًا، والأهم والذي بدا لي بوضوح أن جهازه العصبي لم يكن يعرف كيف يتعامل مع أول دفقة من دفقات الوصول. وأبادر بابتسامة فيفعل الشيء ذاته، ثم يدعني ناظرًا من النافذة إلى ثُلّة من العمال تنصب سلم النزول على باب الطائرة.

عيناي تجريان عليه..

وجهه من الجانب الذي أنظر إليه نحيل شاحب وثيابه لا تليق، حتى شعر ذقنه لم يجر عليه موسى الحلاقة بإتقان، وهو كله هشّ لا وزن له ولا مجال لتصنيفه أو حَشْره إلا في زمرة الغلابة والمساكين.

ويعود إليَّ..

يهم برفع حاجبيه، فأحسب أن هذا من باب التركيز وأنه سيقول لي شيئًا غير أنه لا يفعل، يخرج مشطًا من جيبه العلوي وأيضًا لا يفعل به شيئًا، يُقلبه في يده وينظر إلى الساعة ثم بعد دقيقتين، يسألني: كم الساعة؟! وهل سنركب باص شركة مصر للطيران ونصل به إلى ميدان الأوبرا، وبعدها نتصرف في أي مواصلة إلى الظاهر؟

أقول: شركة مصر للطيران أوقفت هذه الخدمة من سنين، وسنستقل تاكسيًا إن شاء الله.

يقول: ولماذا التاكسي؟ أود ركوب الأتوبيس، ويهب واقفًا وهو يقول: هيا بنا فالركاب يهبطون..

لم يهبط أحد بعد، وينادون علينا من السماعات بأن نلزم مقاعدنا إلى أن يُفتح باب الطائرة، ولا أحد من الركاب يعنيه هذا النداء والحركة على أشدها. والخال عندما يسحب حقيبته من أعلى يكتشف أن المشط لا يزال في يده ويعوق حركته، فيتأمله مستغربًا ويفكر لحظة في تمشيط شعره لكنه يعدل ويعيده إلى جيب سترته، ويتذكر علبة الدخان ويبدأ في البحث عنها، فأشير له عليها حيث كان يجلس فينحني ويلتقطها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ممر الطائرة مزدحم بالحقائب والناس، وامرأة سمينة تزن قنطارين انحشرت عند المنتصف، والذين وراءها يضربون أخماسًا في أسداس ويلعنون حظهم، غير أن خالي فعلها وتخطى الجميع وأنا لا أزال في موضعي. ودفعة فالثانية وتصدَّر ركابَ الدرجة الثانية المحجوزين على أول سلم النزول، حتى يكتمل هبوط سادةُ الدرجة الأولى الذين في الأمام.

وعند قاعدة السلم كانت جماعتنا قد هبطت وتنتظر، ويلمح هارون خالي فيشير له من أسفل بأن يرحم نفسه ويهدأ وإلا انكفأ على وجهه وتدحرج، وهو يشير له من أعلى بأن يغلق فمه! وأمي وإلى جوارها العم يعقوب شاردان، وعندما نزلت احتضنتني فجأة ولمحت دمعة تتكون على طرف جفنها، عانقت خالي شمعون هو الآخر وسألته ألا يأخذ في خاطره منها، وسلم العم يعقوب عليَّ وعلى الخال بحرارة كأنما لم نكن معًا على نفس الطائرة، ثم سحب نَفَسًا عميقًا من السيجار.

النهار على وشك الرحيل وأشياء بالنفس تولد لتوِّها، وطائرة صوتها جبار تجري كما الريح وتتأهب للصعود، وأخرى تهبط برفق ومن نوافذها أناس ينظرون. استعجال وحركة ونسمة تهب ألطف وأحن من مكيف الطائرة، وأذان المغرب يصعد عاليًا فيدفعني إحساس فطري إلى الالتفات حولي باحثًا عن أقرب مئذنة، وألحظ أمي كما لو أن أذنيها هما الأخريان تتلقيان الأذان. وفي اللحظة ذاتها تلوح بخاطري مئذنة الجامع القريب من بيتنا، وهي تقول لي: إنها تضبطني على الأذان! فعندما يُؤذَّن للعصر تبدأ المذاكرة، وأول ما يرفعون أذان العشاء تغلق الكتاب حتى نأكل لقمة معًا ثم تعود ثانية إلى المذاكرة.. فهل يحوم في بالها الآن، هذا الذي يجوس في خاطري!

لم ننتبه إلى أنفسنا إلا لما دق سائق الباص النفير، ونبهنا شرطي في الجوار إلى أنه لا تلكؤ هنا وعلينا الصعود. تلفتنا على هارون فلم نجده، كان قد سبقنا إلى الباص ويتشاجر هو والمرأة السمينة ذات القنطارين عمن أحق من الآخر بالجلوس!

وعلى باب المطار تفرقنا..

أمي وزوجها يعقوب ركبا الليموزين إلى فندق شبرد على ضفاف النيل، فهذه البقعة أثيرة لديه وكم من مرة حكى أمامي عن طفولته وصباه بها، وباص مدرسة الليسيه الذي كان يركبه عند ناصية فندق سميراميس القديم. أما هارون فكان من سكان (بركة الرطل) المتاخمة لحي الظاهر، سلم علينا مستأذنًا فقد حجز لنفسه في بنسيون بباب الحديد، وطرنا أنا والخال إلى أم حسن التي أعلمناها من قبل بميعاد قدومنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

35

ضغط خالي على معصم يدي لأتمهل قليلًا ونحن على باب العمارة، وطفق واقفًا يتأملها ويمد عنقه نحو أول الشارع حيث الشقة التي كان يعيش فيها قبل أن يرحل، وسألني عمن يسكنها الآن؟

فاندهشت وقلت له: لا أعرف، ودفعته خفيفًا لنتحرك، وعندما صعدنا لم تجد أم حسن حرجًا في البقاء بالشقة رغم وجود خالي شمعون..

قالت راضية مُرحِّبة:

- إن كان على شمعون، شمعون مش غريب وفي الأول والآخر دا زي ابني وللا أخويا الصغير بالكتير.

وتنهد:

- ياه! روح يا زمان وتعالى يا زمان، فين لما كان بيروح مدرسة الخديوي إسماعيل، وللا يوم ماخد التوجيهية، ووالدته الله يسامحها الست إيڤون راسها وألف سيف لتجيب فرقة وتعمل قعدة فوق السطوح، وللا عم زكي ألف رحمة عليه.

وخالي الجالس على الكنبة لا تزال الحقيبة أمام قدميه ووجهه مرتاح لما تقول، برهة وتذهب عيناه إلى غرفة جدي..

الغرفة بابها مُوارَب على خفيف، مجرد همسة، تقتحم عيناه هذا الجزء المفتوح.. الغرفة مظلمة ولا شيء يبدو له من هنا، يعيد المحاولة مادًّا عنقه قليلًا إلى الأمام، ومع حركته هذه تلتقي أعيننا فلا أُشْعره بأني معه وألحظ ما يفعل. ولحسة عنبر على طرف عود كبريت تقلبها أم حسن في أقداح الشاي، وهو لا يزال عاجزًا عن السيطرة على نفسه وعيناه مستعدتان لأن تدفعا من عمـرهـما وتعـرفا ما الذي حل بغرفة أبيه، أو تلتقط شيئًا من أشيائها..

نداء أحد الباعة يأتينا من النافذة، وامرأة في شرفة قريبة تستوقفه، وثمة ضجة خفيفة في الشارع فتلفتت آذاننا إليها أنا وأم حسن، والخال لا يشعر وعيناه تحطان على ماكينة الخياطة.. لعله يرى الآن أمه (الست إيڤون) تجلس أمامها بجلباب البيت، محنية تقضم فتلة بأسنانها أو تمرر حرف فستان أسفل السنون.. ويصعد إلى صورتها المعلقة على الجدار، وإلى جوارها خالتي بيلا بثياب المدرسة..

يتحسس ركبته قائلًا:

- أنا فاكر الصورة دي كويس.

ويخفت صوته:

- وزي ما يكون النهارده..

ويجول بعينيه فينا، ونبرة صوته تتلون مع وقع الكلام:

- كان ساعتها درويش المصوراتي لسه فاتح جديد والماما رايحة تتصور عنده، وعلى باب العمارة وهي نازلة شبطت فيها أختي بيلا وهي جاية من المدرسة، وكنت أنا بالعب كورة في الشارع وقلت لهم: على فين؟ خدوني معاكم؟

ويتوقف ضاحكًا ثم يقول: راحت الماما قايلالي: تيجي معانا فين، وإنت مترب ومعفر كده زي الكناسين! روح روح كده شوط لك كورة، وللا الحق أحسن يدخلوا فيك جون.

وأم حسن هي الأخرى تتذكر:

- مظبوط يا خويا مظبوط، وكانت الحكاية دي سنة خمسة وتلاتين بالمللي، علشان احنا وإنتم جينا نسكن هنا في العمارة سنة تلاتة وتلاتين ودرويش أفندي فتح المحل بتاعه بعدها بسنتين.

وتردف بنبرة حانية:

- والنبي بيلا وحشتني، عاملة إيه مع بسلامته هارون؟

فقلنا: الحمد لله.

وسألت عن أمي، فأكدنا أنها الأخرى بخير، لم نشأ إبلاغها بأنها هنا في القاهرة، خوفًا من أن تغضب لأن أمي لم تكلف خاطرها بالسؤال عنها. تركنا هذا الأمر للظروف، فنحن لا نعلم ما تخطط له أمي وهل سوف تجيء أم لن تجيء؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومضت الأيام..

والمرأة على كِبَر سنها تجوس في الشقة أمامنا، وترعانا في الأكل والشرب والغسيل، غير أنها أجرت عدة إضافات على ثيابها. فالطرحة أو شال يغطي شعرها ليل نهار، رغم أنها لم تكن تدقق في هذه المسألة عندما كنا وحدنا، والجورب لا يفارق قدمها ولا تشمير للذراع أثناء الطبخ أو التنظيف، وإنما كَبَاسِين الأكمام مقفلة على الدوام، وسعلة تنبئ بقدومها إلى المكان الذي

نحن فيه، ولا استحمام أو مسح للرأس أو وضع الرجل على الحوض للوضوء إلا بعد أخذ ألف احتياط.

وبقيت هي في غرفة أمي القديمة، وأنا وخالي بغرفة جدي وننام معًا على السرير..

كنت أحسب أن النوم سوف يجافيه أول ليلة كعادة من يغير مكان نومه إلى مكان جديد، غير أنه كذب ظني فيبدو أنه كان مرتاحًا لهذا المكان الجديد، وصرعه النوم في الحال. وكان هذا وبالًا عليَّ، فما إن أغمض عينيه حتى بدأ في الرفس والشخير وبلا أي أدب أو احترام، ومرة وهو في عز النوم سب الدين لهارون!

وقد تركنا له تحديد قائمة الطعام..

ففي يوم يقول ملوخية بالدجاج ويوم لحم مسلوق وفتة بالخل والثوم، ناهيك عن لقمة القاضي والكنافة والبقلاوة وغيرها من الأشياء الثقيلة التي تؤذي البطن وتخلخل الجسد السليم. وأم حسن (طيب وحاضر وعنيَّه الاتنين)، وبعد أن يكنس كل ما على المائدة من أطباق تأتي له بكنكة قهوة أو سطل شاي. وأنا يدي على قلبي وكل يوم أقول: اللهم قوِّت هذه الأكلة على خير، فخالي كله أمراض، والأطباء هناك فرضوا عليه البقسماط والسوتيه وأربع ملاعق أرز فقط على الغداء، وإذا اشتهى اللحم فصدر كتكوت كل يومين..

وكنت أتركه أحيانًا بالنصف يوم، وأعود لأجده هو وأم حسن في الشرفة أو أنزلا حاشية الكنبة وجلسا أرضًا وهات يا كلام عن الجبن الرومي الذي كان يباع في بقالة الخواجة كافورس، ويوم أن جاء العساكر والضباط بالطرابيش وحاصروا بيت السخاوي وأخرجوا من دولاب (البت عنايات) فردتين حشيش، ومستشفى (سيد جلال) التي بدأت بغرفتين وما شاء الله الآن بناية من خمسة أدوار!

أرمقه حيث يجلس بمنامته وأمامه علبة الكليوباترا وأكياس اللب والفول، أو وهو خارج من الحمام وبيده مجلة آخر ساعة أو جريدة أخبار اليوم..

وأقول في نفسي: أهذا الملتوت المعجون في حواري الظاهر وسيدنا الحسين ليس في بيته وبين أهله الآن، أم هو مجرد رجل غريب حطت رحاله عندنا، ومن حيث أتى سوف يعود حسبما تقول الأوراق والأضابير!! بل وتؤكد أن بقاءه في أرض الكنانة محسوب بالأيام، وإن جرى منه شيء أو وقع له مكروه فعلينا بكفيله المحترم قنصل بلاد الغال!!

فشتَّان بين ما تفهمه أم حسن، وما في دماغ مدير الجوازات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

36

وبدأ أبو السعد أفندي في التردد علينا..

فهو وخالي كانا صاحبين، والذي عرفته بعد ذلك أنهما كانا يتراسلان على فترات، وأن أبا السعد طالما أرسل للخال طرودًا تحوي سلسلة (اقرأ) وبعض سلاسل دار الهلال، ولم يرسل له خالي سوى طردين، واحد به بعض أدوات المكياج لابنته هديل، والثاني كان مرجعًا في علوم الزراعة وأيضًا لهديل. والآن هما معًا أغلب الوقت، ويغطسان فجأة ثم يقولان: إنهما كانا بحي الحسين ورزعا أكلة كوارع بمحل (العهد الجديد)، وبعدها إلى الغورية على الأقدام حتى بوابة المتولي ثم شارع الخليج، أو كانا يتمشيان في وسط البلد، ومرات كانا لا يصرحان بالمكان الذي كانا فيه..

وساعات كانا يجلسان بغرفة الصالون بشقة أبي السعد، يستمعان للشرائط المسجلة بصوت عبد الوهاب.

الخال يعود في طرفة عين إلى أيام زمان، ويهيم مع عبد الوهاب وهو يشدو ويقول:

عندما يأتي المساء..

ونجوم الليل تنثر..

اسألوا الليل عني..

متى نجمي يظهر..

أو عندما يقول:

اجري.. اجـري..

وديني قوام وصلني..

دا حبيب الروح مستني..

ويخالجني الشك في أن أبا السعد أفندي، والتي هذه الشرائط من اختياراته، كان يحوِّر كل ما يسمعه على حكايته القديمة مع خالتي بيلا، ولو استطعت الدخول إلى رأسه في هذه اللحظة والتحليق مع ما يحلق فيه، لوجدتها تتدلل أمامه بفستانها الحمالات، أو لعله تَعَفْرَت وانفرد بها في شارع جانبي ويطبع على شفتيها قبلة الآن.

تأكدت ظنوني، عندما قام من مقعده وأدار شريطًا جديدًا يترنم فيه عبد الوهاب ويقول:

يا مسافر وحدك..

يا مسافر وحدك وفايتني..

ليه تبعد عني وتشغلني..

دا عنيَّه دموعها..

دموعها بتتكلم..

آه.. يا مسافر وحدك..

فيبدو أن المسكين أهاجته الذكرى، وكنت أشعر بخيبة أمله ونظراته المحبطة لزوجته الست نظيرة، وهي تخرج وتدخل علينا بجسدها المهول وبين يديها صواني الحلوى والشاي بالحليب..

ورأيت هديل..

دخلت تسلم على خالي شمعون، سلمت عليه ثم عليَّ، ولا أعرف من منا بالضبط الذي بدأ بالضغط على يد الآخر، أظنها هي وأنا جارَيتُها. والست نظيرة في المطبخ أمام الحوض، ولا تدري بالذي يجرى من وراء ظهرها سواءً من ابنتها أو بعلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وذهبت مرة برفقة الخال إلى حارة اليهود..

كان يود لقاء صديق يهودي قديم اسمه (حزان) لا يزال له مَحلّ هناك، فقلت: على بركة الله، ودخلنا إليها من شارع الموسكي عند تقاطعه بشارع الخليج.

لم تكن حارة مثلما حسبت، بل متاهة من المتاهات!

فعمودها الفقري مجرد حارة تافهة ضئيلة، تتصل بها وتتقاطع معها حارات أخرى ودروب وأزقة، وكل هذه الأشياء في مجملها وبصغيرها وكبيرها يسمونها هنا حارة اليهود.

فالاسم حارة، والفعل بيت من بيوت جحا!

إذ إن كل واحد من هذه الأشياء، وسواء هذا العمود الفقري أو ما يتفرع منه يبدو كالأفعى عندما تمد رأسها نحو ذيلها، وبداياتها بالتالي هي نهاياتها، وإذا لم

تكن منتبهًا لهذا الأمر وتعاملت هنا مثلما تتعامل مع الشوارع التي تألفها، فأنت واهم وتضع نفسك موضع الضحية! وفي اللحظة التي تحسب فيها إنك انتهيت ستجد أنه غُرر بك ولا تزال في البداية، وتظل تدور حول نفسك وتنتهي أو حتى تبدأ من حيث كنت!

ومن حيث العرض والاتساع فحدث ولا حرج!

العريض من هذه الدروب والأزقة، لا يتحمل أكثر من ثلاثة أشخاص ويكونون متلاصقين، أو عربة نقل واحدة على أن تكون من الهوندا أو السوزوكي الصغير والأفضل (تريسكل).

أما الضيق منها فلا يسمح بتاتًا بمرور شخصين في وقت واحد، والبيوت متلاصقة بحيث يمكن لساكنيها تجاذب أطراف الحديث وكلّ وراء شباكه أو حتى في مخدعه، وإذا مد واحد منهم يده من النافذة يمكنه مصافحة يد أخرى تمتد إليه من بيت مجاور.

ومحلات في محلات..

الواسع منها بحجم الكف، والبضاعة فوق بعضها البعض كقطع الصابون عند البقال. ومن يبيع صواميل ومسامير أو ملابس ولعب أطفال أو بكر خيط وسنون وباقي مفردات الحياكة والتطريز أو مستلزمات الاستحمام، وحركة والتحام وباعة على الأرض وورش لمواسير النجف ومخازن وأكسسوارات، وثلاثة معالم قديمة لا تزال تحمل كتابات عبرية وبأعلاها نجمه داود[10].

سألت أحد السابلة عما إذا كان هنا محل يبيع المشغولات الفضية والأكسسوارات، ولا أعرف لماذا كش الخال وتركني راجعًا خطوة إلى الوراء!

فأجابنا الرجل:

- قصدك محل حزان! عندك هناك أهه على أول حارة القرايين.

ثم مد يده مشيرًا إليه..

فنظرنا إلى بعضنا البعض، ومكثنا حوالي دقيقة دون حركة ولا أعرف لماذا! والرجل يؤوّل ترددنا ويظن بنا شيئًا، خاصة الخال الذي من شدة ارتيابه وحذره بدا شكله مريبًا.

والرجل يشجعنا:

- عم حزان راجل مهاود ومضمون، والزباين عليه بالكوم.

فمشينا، وهذا الحِشري يلاحقنا:

- مش من هنا يا بهوات، إحودوا يمين زي ما قلت لكم مش شمال! وللا انتوا رايحين فين بالظبط؟!

وحاول أن يتتبعنا إلا أننا (ملصنا) منه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

37

ما إن تفرَّس خالي والعم حزان كل منهما في وجه الآخر حتى دخلا في عناق مبلل بالدموع، واستلزم واجب الضيافة أن يلف بنا هذا العم عدة لفات حتى أوصلنا إلى (قعدة) في زقاق مسدود.

ليست مقهى أو حتى (غُرْزَة)، شيء أحقر من ذلك بكثير..

عجوز على الأرض تعد المشاريب على موقد من الحديد متصل بأنبوبة غاز، وإلى جوارها جردل ماء تُغطَّس فيه الأكواب ثم تصعد بها وهذا هو الغسيل! وثلاثة برطمانات زجاج في حجرها، واحد للسكر والآخران للبن والشاي، أما الملاعق المخصصة لتقليب السكر في الأكواب فملقاة هنا وهناك، لكن للإنصاف وكلمة الحق كانت العجوز تمسحها بذيل جلبابها قبل أي استخدام!

وكل هذا في فُسْحَة صغيرة أمام عتبة بيت، تطل علينا من شباكه امرأة أستغفر الله من سحنتها ولا تكف عن التحديق في الجالسين. وعدة قوالب طوب أعدت للجلوس فضلًا عن مقعدين من الخشب ابتعدنا عنهما، فقد أهلكهما الزمن وإذا جلس عليهما إنسان لا أظنه ناجيًا وحتمًا سوف يطرحانه أرضًا.

وعندما توسدنا قوالب الطوب، احتواني العم حزان بعينيه وهو يقول للخال بنبرة حذرة:

- هو الأستاذ..

وسكت، ففهم خالي وأجابه قائلًا:

- يعني مش بالظبط، هو مننا بس البذرة من هناك.

ثم ربت على ركبتي مضيفًا:

- دا جلال ابن أختي، بس البابا بتاعه مسلم وتعيش إنت بقاله سنين.

فأدهشني أن الخال وبعد كل هذا العمر، والصلاة والصوم والزواج والطلاق على مذهب أبي حنيفة النعمان لا يزال يحسبني واحدًا منهم.

وأثارني ذلك، بل وعضضت على شفتي شاردًا بعيني، غير أني لم أسترسل كثيرًا مع نفسي، فهو الخال بل والخال الطيب، ولا أظنه يقصد شيئا وإنما هي كلمة في الهواء، ومررتها له، بل وأوعزت لنفسي بأنها تحسست، مثلما تحسست من قبل مع مدموازيل جانيت عندما حسبت سخريتها من الجمل

تعريضًا بي. ورغم ذلك رمقته بدهشة واستغراب، ولأنه لا يقصد لم يضع هذه الرمقة في محلها الصحيح، ولعله ظن أني متململ من هذه الجلسة التي نجلسها على قوالب الطوب، فقال:

- تعبتك معايا يا جلال.

فأشرت له بألا يشغل باله بي، وقال العم حزان:

- بقى الأستاذ جلال ابن أختك، أيوه أيوه افتكرت! يكونش هو ابن بيلا اللي اتوفى البابا بتاعه في حرب ستة وخمسين؟

فأومأ خالي:

- تمام. تمام. بس الحكاية دي كانت مع كاميليا مش بيلا.

- كاميليا!

وزام العم حزان زومة استدراك، ثم سأل بشغف عن خالتي بيلا وبما يوحي أن قلبه يحمل لها شيئًا، حتى إنه شرع في الدخول في المحظور غير أنه تلعثم ولحق بنفسه، والخال يجيبه باقتضاب: بأنها بخير والحمد لله، وأنا أتعجب من خالتي هذه التي تجري سيرتها على كل لسان!

وتلوح لي.. تلوح على النحو الذي رأيتها عليه آخر مرة، الشعر الأبيض وتتوكأ على عكاز..

أسألها مداعبًا: عما إذا كان لها ثمة علاقة بهذا الرجل التخين الذي يجلس معنا الآن بالبذلة السفاري والبيريه؟

فترمقه بحنق قائلة لي: أنا!

ثم تشيح نحوه بالعكاز متململة: أنا! أنا لي علاقة بهذا الكبش النطاح! إنه لا يعيا حتى برماد السيجارة الذي يجلل بنطاله! وأذنه! ألا تلحظ أن اليمنى أصغر قليلًا من التي على اليسار؟

أصدق كلام الخيال وأبتسم مقارنًا بين أذنيه، ثم أسألها عن أبي السعد أفندي؟

فتقول بدلال: أبو السعد..

ويأخذني منها صوت العم حزان، وهو يقول للخال وعيناه عليَّ:

- ياه يا شمعون ياه! ياما بنات من عندنا اتجوزوا مسلمين، واللي على دينها واللي أسلمت!

ويرمقني ثانية:

- وعيالهم ما شاء الله! عايشين في وسط الناس، اللي محامي واللي مهندس وللا دكتور.

ويسألني:

- وبتشتغل إيه يا سي جلال؟

أتردد لحظة ثم أقول:

- عندي شركة.

- شركة!

ويهز رأسه معجبًا، وأنا يدفعني النزق إلى التحديق في حجر بنطاله! فهل صحيح تجلله ذرات الرماد، مثلما تقول خالتي بيلا!! ويشد هو النفس الأخير من السيجارة، ثم يخوض هو وخالي فيما تبقَّى الآن من اليهود.

- آهو شوية هنا وشوية في إسكندرية على كام واحد في المنصورة، وكلهم على بعضهم ميحصلوش تلتمية وخمسين، وأكتريتهم يا عواجيز يا عيانين!

وخالي يشده الفضول لمعرفته الذي جرى لأبناء طائفته..

- والحكاية دي يا شمعون يا خويا عامللنا وَشّ! والشوية الشباب اللي عندنا مش لاقيين بنات يتجوزوهم! إبني خالد آهو نفد بجلده ولحق له واحده قريبتنا من إسكندرية، الداهية في الواد التاني أصغر واحدة قدامه عندها ستين سنة!

ويباغت خالي:

- ياريتكم ما مشيتوا وفُتُّونا يا شمعون، إيه بقى اللي إنتوا خدتوه؟!

وينادي طالبًا لنا ثلاثة أقداح أخرى من الشاي، فاعتذرت بشدة، فبعد كوب الشاي الملعون الذي طفحته الآن زهدت في صنف الشاي كله.

ويستطرد العم حزان:

- أنا مبتكلمش عن الباشوات والبهوات الأشكيناز[11]، بتكلِّم عن القرايين[12] الغلابة اللي زيي وزيك يا شمعون، آديكم مشيتوا من هنا وسمعنا بعدها حكايات تقطِّع القلب! وأولها عن عم زكي الله يرحمه، قالوا: دا تعب واتبهدل وفضل يكاكي في الغربة لحد ما مات!

يبدو الأسى على وجه الخال، وأشعر بأنه لا يود الخوض في هذا الحديث.

- وإنت شوف حالك عامل إزاي يا شمعون، خربان وهلكان وأكبر من سنك بييجي عشر سنين! بس لو تفهمني مشيتوا ليه؟!

فيطرق الخال مستثقلًا كلام الرجل، وهو لا يكف عن ملاحقته:

- وللا تكونش فاكر إنك باللي عملته وبالبسبور الفرنساوي اللي معاك بقيت خواجة؟!

فيتمتم خالي: خواجة إيه وهباب إيه!

وأتدخل أنا مخففًا:

- بالراحة يا عم حزان! دا خالي من بره وجوه مصري، اللغوة مصري والدم مصري، دا حتى وهو هناك بيفكر بالمصري ومن ورا كده ياما وقع في مطبات.

- ولما هو كده ساب مصر ليه! دا كان موظف محترم وتحت إيده مستخدمين وشقة وعربية ومدارس العيال ببلاش، دا غير الناس اللي هو عارفهم وهمَّا عارفينه.

ويشير إلى رجل بسروال وفانلة ذات أكمام، يمضي أمامنا دافعًا عربة من الحديد محملة ببضاعة في كراتين.

- والراجل ده، وللا الست دي اللي ماشية هناك ووراها كوم عيال وللا الأخ ده اللي واقف قدام المحل بتاعه وبيفتح علبة الكيلوباترا، نفرق إيه أنا وللا إنت وللا هو عنهم؟ بنمشي كلنا في شارع واحد، وبنركب هو هو الأتوبيس، وولادنا بياخدوا هي هي الشهادة وبنقروا هو هو الجرنال، والزعل واحد والفرح واحد!

ورشفة من قدح الشاي:

- آهو علشان كده أنا ماسبتش مصر، هاروح فين؟ معرفش غيرها..

ويخفت صوته، يبدو وكأنه يتحدث مع نفسه وليس معنا:

- استحملت الغلاسة إن كان من بتوع الثورة، وللا شوية اليهود اللي اتصهينوا وعجبتهم إسرائيل! الأولنيين عايزنَّا نسيب البلد ونمشي، بس تيجي مننا! والتانيين ألعن وأضل، يفضلوا يحببونا في إسرائيل ويقولوا: دي أرض المعاد والخير مستنيكوا هناك، ويللا ويللا اللي عنده حاجة يتصرف فيها ويحط اسمه في الكشف!

ويعود بظهره إلى الوراء، باسطًا كفه تجاهنا:

- وأنا والحمد لله ودن من طين وودن من عجين، لا دول ولا دول جابوا معايا نتيجة.

ويروح بعينيه تجاه خالي:

- الدور والباقي على اللي حط ديله في سنانه وقال يا فكيك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العم حزان مُر في كلامه، وأنا أحاول شغله بعيدًا عن خالي فأسأله:

- يعني مفكرتش ولا مرة تسيبنا وتروح إسرائيل إنت كمان؟

- أنا!!

ويتبسم ساخرًا:

- أنا لو عايز أروح إسرائيل كنت عملتها في شبابي، جاي تسألني السؤال ده دلوقتي يا ابن أختي!

ويحتقن وجهه قليلًا:

- وللا قصدك إيه بالظبط؟!

أقول: لست أقصد شيئًا، وإنما هو مجرد كلام..

فيقول: آه.. طيب.

وينظر إلى الخال فيجده غافيًا، إذ كانت عيناه مغمضتين ويهبط برأسه ببطء وعلى نحو متتابع حتى يسقط منه، وفجأة يرفعه مخضوضًا وهو يحدق فينا ثم يعود إلى ما كان عليه.

فيبدي العم حزان استغرابه من نوم الخال، فأقول له: إنه مريض وكثرة النوم علامة من علامات مرضه، فيومئ برأسه متعاطفًا وينظر في ساعته، ثم يخرج ورقة من جيب سترته متفحصًا الأرقام المدونة بها وهو يحسب شيئًا على أصابع يده، ينشغل عني كما لو كنت غير موجود، وكان دخان سيجارته يصل إلى أنف الخال، فيشعر به وهو نائم ويدفعه بكف يده على نحو آلي.

وألحظ ذبابة تحوم حول وجه الخال فأهشها بيدي، تذهب عيناي بعدها إلى المرأة التي لا وراءها طبيخ ولا غسيل أو أي شغلة من أشغال البيت وتطل علينا منذ ساعة، كانت (تقزقز) اللب والقشر المتساقط منها يلحق بجلباب رجل وهو لا يشعر.

ويتثاءب العم حزان بعد أن أعاد الورقة إلى جيبه، ثم يقول:

- والله ما فيه حد مالي دماغي ومكيفني غير عرب 48، آهم لا سابوا بيوتهم ولا أرضهم ولا عاد الصهاينة دلوقتي يقدروا يقولوا لهم تلت التلاتة كام.

ويمر بعينيه على خالي قائلًا:

- الخيبة التقيلة هي خيبتنا إحنا!

أحاول مقاطعته، غير أنه يصدني مكملًا:

- عارف عارف اللي إنت عايز تقوله! مش إحنا وبس، الغلابة كمان بتوع فلسطين اللي هَجُّوا من بلادهم، يمكن لو كل واحد فينا وللا فيهم فضل ماسك في أرضه وبيته كانت الدينا بقت غير الدنيا اللي احنا شايفنها دلوقتي.

ويفتح الخال عينيه، لا تزال بقايا الشاي في القدح الذي أمامه، يرشفها ويتجهز للدخول في دورة جديدة من دورات النوم، فأربت على كتفه خفيفًا منبهًا إلى أن الجلسة قد فرغت وحان الذهاب. ويأتي ولد ببنطال وشرز متهتك يجمع الأقداح الفارغة التي أمامنا، والمرأة -إياها- تنفض كفها من بقايا اللب العالقة بها وتغلق النافذة.

ونستأذن أنا وخالي، تاركين العم حزان يحاسب على المشاريب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويتميز أفرادها باندماجهم الكلي في طوائف الشعب المصري، وتكلمهم اللغة العربية وتشرب العادات المصرية والتسمي بأسماء أبنائها، فكانوا لا يختلفون عن إخوتهم المصريين لا في الشكل أو المظهر أو طريقة الحياة أو حتى اللكنة، وإنما فقط في الممارسات الدينية، ونتيجة لذلك كان الانطباع العام لديهم مناهضًا للصهيونية إلا من شذ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

38

استيقظ الخال من النوم، فوجدني بملابس الخروج..

أخبرته بأني في طريقي للبلدة للعزاء في عمي وإنهاء مسألة الميراث، وأن من الجائز أن أبيت هناك ليلة أو اثنتين. وكانت أم حسن قد أعدت الإفطار وتنادي علينا، ومذياع جدي القديم لا يزال يعمل وتُتلى منه أخبار التاسعة، أعقبها حديث مطول عن الرئيس وما قدمه للوطن من إنجازات طوال مدة ولايته الأولى التي قاربت على الانتهاء.

تحرَّج الخال من البقاء وحده مع أم حسن، وهب مسرعًا يرتب حقيبته ليبيت في أي فندق ريثما أعود، غير أنها أصرت على أن تدع له الشقة وتذهب عند ابنها حسن أو جارة من الجارات، ولما حاولت إثناءها عاتبتني، وكلمة في كلمة إلى أن رمت عليَّ (الـحُرْمانيَّة) بألا تراني أو تعرفني بعد اليوم، إن هي فرطت في واجب الضيافة وتركت خالي يغادر الشقة.

وقالت وهي تسبقني إلى الباب:

- وفي معاد كل طقة يا سي شمعون هتلاقي الجرس بيضرب وصنية الأكل على الباب، وإن كان عندك هدمة عايزه تتغسل يبقي صرّ عليها في كيس وادِّيها للعيل اللي شايل الصنية وبيخبط عليك.

فرمقتها ممتنًا ثم سافرت حيث التقتني أختي ليلى بملابس الحداد، ومن أمام الباب قالت: نذهب في الحال، فأكيد ذاع خبر قدومك وكل دقيقة تتأخرها سوف تُحسب عليك.

ومن شارع إلى شارع حتى طرقنا بوابة العم، فخرج لنا غلامهم الأحول الذي طالما لعب معي لعبة القط والفأر.

عرفني بالطبع ويبدو أنه لا يزال مبرمجًا على لقاءاتنا السابقة، إذ قال:

- عايز جدي إبراهيم؟! جدي خلاص مات.

فسبته في سري وشاطته ليلى بيدها كي ينزاح من أمامنا، وصعدنا الدَّرجَ ومنه إلى غرفة الكنب، وبرهة وأقبل أولاد العم الثلاثة: سلطان وفريد والشحات، بجلابيبهم الصوف والطواقي الوبر، وكان يرد إلينا من جوف البيت ترتيل لآيات القرآن الكريم، وأتت زوجة العم سمينة قاتمة الوجه وكل ما عليها سواد في سواد، جلست على مسافة منا صامتة تكاد تغفو..

هذا الذي كان يبدو عليها، غير أني سرعان ما أدركت أن الأمر ليس كما أحسب! فالمرأة بالفعل كانت ساكنة غير أن دماغها وجهازها العصبي كانا في قمة العمل، وعيناها اللتان حسبتهما نائمتين كانتا تمران علينا واحدًا بعد واحد دون أن تحرك رأسها، وكلما جادلت ولدها سلطان في أمر وكان يريد حسم هذه المسألة، ما أشعر إلا وهو يبادلها النظر خلسة وهي ترسل له بعينيها إشارات بأن هذا: لا، وهذا: نعم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأنا بتبادل كلمات العزاء..

وباقتراح من زوجة العم استهللنا الحديث بقراءة الفاتحة، كي تصفو النفوس ونراعي الله في قرابتنا وصلة الدم.

قرأناها كلنا ومسحنا على وجوهنا، وكلّ بالطبع على حسب نيته، فأنا وليلى ألقينا أحمالنا على الله وأن نخرج من هذه الجلسة مجبوري الخاطر وبأقل الخسائر، أما هم وفيما أظن فقرءوها على أن نخرج عُراة وإن لم يكن فحُفاة على الأقل!

ودخلنا في الموضوع، حيث كان الحديث تتخلله أحيانًا لحظات صمت.

صمت تخلله سعلة من كبيرهم سلطان..

سعلة ليست كأي سعلة! وإنما تخرج منغمة وذات معنى، تعقبها عدة سعلات وأحيانًا نحنحة من صغيرهم الشحات، أما فريد المهذب اللطيف فكان يحدق فيَّ وفيهم ويبتسم. وكل هذا أو حتى الابتسامة والنحنحة، ما هو إلا كلام يقولونه لبعضهم البعض، وزوجة العم تمسك بالدفة، ولا أظن أن شيئًا كان سينقضي لو لم ترض به هذه الحيزبون وتباركه!

بقينا حتى أذان المغرب ما بين مناورة ومداورة وأخذ ورد، حتى خلصنا إلى أن أدع لهم أرضي بسعر يقترب من سعر السوق، على أن يصلني الثمن على قسطين، القسط الأول غدًا أو بعد غد عند كتابة العقد، والثاني (وعليك خير) العام القادم بعد أن يحصدوا عروة الصيف، أما حقي في البيت فلم أفلح في الحصول عليه..

- وشَرْع ربنا يا سلطان!

- أعوذ بالله وهو حد يقدر يقول حاجة في شرع ربنا! البيت واسع يا ابن عمي والحمد لله تعالى اقعد معانا فيه.

فأتذكر العم إبراهيم، وأقول له بدهشة:

- أقعد فيه!

- أيوه إن كان لك شوق في عيشتنا أهلًا ومرحب بيك، إنت بس تشاور بصباعك واحنا نبنولك شقة فوق شقة الشحات.

غير أن الشحات لم يرتح لهذا الاقتراح، وقال معترضًا:

- بس يا حاج سلطان دا يدوبك البيت مكفينا!

وأنا أتأمل هذا الشحات، الذي يرشحونه جارًا لي..

شارب كث وسحنة كسحنة أولاد الليل، ناهيك عن العصا ذات العقفة التي بين رجليه ويريح كفه عليها.. ليست عصًا من تلك العصيّ التي يتوكأ عليها الناس أو يجلبون من ورائها منفعة، وإنما شيء آخر! أي شجر هذا الذي يخرج لنا هذه الأشياء القاتلة، فليس لهذه الملعونة أي حل ولو نزل بها هذا المحترم على رأس كلب لأودى به بضربة واحدة!

وأتاني صوت زوجة العم، وهي تنهر الشحات:

- بس اسكت يا واد يا شحتة – تدللـه – دا الغالي ابن الغالي، ويا ريت هو بس يرضى ييجي يقعد معانا في البيت.

وتنتقل إليَّ:

- بس يا ضنايا إن كان لك غرض بصحيح، يبقى فوِّت لنا ييجي خمسين ألف من القسط الأولاني علشان المباني.

وبصوت كالهمس:

- أمَّال! ألا المباني دي موالها طويل وبتعوز شيء وشويات.

ولحق بها الشحات قائلًا:

- ويدفع كمان حصته في أساس البيت، وهي الشقة كانت هتتبني كده في الهوا من غير أساس!

فشاطت النار في ليلى:

- ودا ينفع ياعمة! بعد ما فات لكم الأرض، عايزينه كمان ييجي يقعد فوق المتعوس الشحات اللي داير ينطح في الناس! وكمان تدفَّعوه خمسين ألف دا غير الأساس!

هب الشحات غاضبًا، فأشارت له أمه بأن يلزم مكانه وقالت لليلى:

- بس بس يا أمي، خليكي محضر خير ومترميش على الولعة حفنة جاز!

وتحلقت بي الأبصار، فقلت منهيًا الحديث:

- الأرض وخلصنا منها، إنما البيت سيبوني أفكر وأرد عليكم بعدين.

وخرجنا أنا وليلى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

39

مكثت بعدها ثلاثة أيام ضيفًا على ليلى، وعندما قررت العودة أرسل زوجها في طلب عمه صاحب (التيوتا) النصف نقل، وأصر هو وهي على أن يقوم الرجل بتوصيلي بها إلى القاهرة خوفًا عليَّ من مخاطر الطريق وأنا أحمل كل هذه النقود.

وانطلقنا..

السيارة ترمح على طريق أسفلتي مليء بالمطبات والشقوق، وعلى اليسار أشجار الكافور بهاماتها العالية ومن ورائها تنحدر الأرض خفيفًا حتى شاطئ الترعة. وكأن كابوسًا يدع كاهلي، وتلوح في خيالي أحداث الأمس خاصة سلطان والشحات وهما قادمان إليَّ ببيت ليلى، الشحات يحمل صرة الفلوس وسلطان بيده العقد، لم يكتف الجبان بتوقيعي على كل ورقة من أوراق العقد، بل أصر على أن أضع بصمة الإبهام أسفل كل توقيع.

ألقاهما في الخيال ضجرًا، وأهشهما بعيدًا هما وهارون زوج خالتي الذي لا أعرف لماذا تذكرته هو الآخر فجاء يتنطع عليَّ!

أهش الجميع وأدع كل ما ينغص ناظرًا إلى الأيام القادمة، وفي غمرة هذا الإحساس أطلب من الرجل الذي يسوق أن يذهب بي إلى سوق روض الفرج أولًا.

وألتقي الليثي..

رويت له عن سفري إلى باريس ولقائي بالشيخ بومكناس، والنصائح التي أسداها لي إذا ما كنا نرغب في أن يكون لزراعتنا موطئ قدم في سوق الجملة هناك، ثم حكيت له عما حدث معي بالبلدة وأني أصبحت مستعدًا الآن.

فقال: وأنا معك بالنصف.

ومن روض الفرج إلى الظاهر، حيث عرَّجت على شقة أبي السعد أفندي، كان عائدًا لتوِّه هو الآخر من بلدته (أوسيم) وأخذني إلى غرفة الجلوس ومعنا هديل، ولثقتي به أوكلته عني في لقاء المهندس الزراعي زميل هديل الذي تعثر ولم يستكمل بعد استصلاح العشرين فدانًا التي بحوزته.

وسأل هو هديل:

- والأرض دي ورقها مظبوط؟

- ومتسجلة كمان، من الناحية دي إطمن.

فقلت:

- على بركة الله، ويا ريت تحدد لنا معاد معاه بسرعة على أي كافيه.

- كافيه إيه يا جلال، الكلام ده عندكم في باريس! المقابلة هتكون على راس الغيط، ومش بس كده هاكلّم الشحات وأخلّيه يجيني قوام.

- الشحات!

- أيوه الشحات، دا ابن خالي وراجل مضمون وطول عمره متمرمغ في الفِلاحة والطين، وهو دا اللي هيجيب لنا قرار الأرض ويندفع فيها كام.

وتأخذه الحمية:

- هي الأرض دي فين بالظبط يا بت يا هديل، والأفندي زميلك ده اسمه إيه؟

تشعر بالخجل من تبسُّطه معها هكذا أمامي، وتقول متبرمة:

- وبعدين يا بابا! وبعدين! إحنا معانا ضيف.

- ضيف إيه! دا جلال! وبكرة تبقوا زي السمن على العسل، ولا تنكسفي منه ولا ينكسف منك.

فينتابنا الحرج أنا وهي، ويدرك هو فيقول مغيرًا الحديث:

- خلاص خلاص يا ست هديل الجمعة الجاية تجهزي حالك وتيجي معايا، وأنا هاكلّم الشحات علشان يدبر حاله ويشوف هيقابلنا إزاي، ويوميها الفجر نطلع كلنا بس على فين؟!

- على أبو المطامير يا بابا، الأرض هناك وصاحبها اسمه حسام وآدي نمرة التليفون علشان تتفق معاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صعدت إلى الشقة بعدها، لأتلقى الأخبار السيئة..

إذ وجدت خالي مريضًا في الفراش وأم حسن تطببه، فجلست على مقعد قبالته وهي تقول:

- من ساعة إنت ما سافرت وهو راقد الرقدة دي، ويدوبك النهارده شم نَفَسه.

والخال يرمقها ويقول لي:

- ربنا يجازيها خير على وقفتها معايا في شدتي.

وأسألها:

- وحد شافه؟

- أمَّال! جبت له دكتور من المستوصف اللي في ريحنا، ولما كشف عليه وقلب في الدوا اللي جايبه سي شمعون من بره معاه، قال: ياخد هو هو الدوا، بس يحرَّص في الأكل وتلزمه الراحة أسبوع وللا عشر تيام.

وتشيح بيدها:

- أنا بس سهيت عنه أول يوم، كت ملخومة في عَزَا الأستاذ فؤاد.

- فؤاد! فؤاد جوز نادية؟!

- أيوه تعيش إنت، جانا الخبر بعد إنت ما سافرت بييجي ساعتين، وسكان العمارة كلهم راحوا جابوه من المستشفى وصلوا عليه في الشعراني، والعزا كمان رجالة وستات خلوه هناك.

وأسألها عن نادية؟

فترمقني بدهشة:

- واحنا مالنا ومال نادية دلوقتي، آهي لسه في شقتها والجيران داخلين طالعين عليها.

وبنبرة مشفقة:

- عيني عليها بختها قليل، وهمَّا يومين وللا تلاتة وهتفوتنا.

فأحدق فيها، وهي تكمل قائلة: بأن الشيخ مصطفى السبكي والد الأستاذ فؤاد لا يرى محلًا لبقاء نادية وحدها، وأنه استمهلها عدة أيام حتى تجمع متعلقاتها وتأتي هي وابنتها للإقامة عنده.

وأنا أتمتم:

- الشيخ مصطفي..

ثم أقول:

- وهتسمع كلامه؟

- يوه! وماتسمعش ليه؟! مش خالها وجد البنت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تقف الأخبار السيئة عند هذا الحد، ففي عز الليل جاءتني مكالمة من أبي الشوارب..

كان مضطربًا يقول العبارة ثم يعيدها، ويزلف منه لسانه فيشتم ويسب ويلعن ويتوعد هؤلاء الهنود وأنه سوف يلاحقهم حتى يوم الدين! لا يصدق أنه أبو الشوارب الذي يلعب بالبيضة والحجر جعلوه قرطاسًا، وأصبح مضحكة بين التجار!

فقد جرجره هؤلاء المساخيط وعملوا له البحر طحينة حتى وقَّع لهم على إذونات الشحن، ولا يزال في ذمتهم مليونا فرنك!

لعبوا عليه، ظلوا يماطلونه ولم يوقع له السيد/ كومار على الشيك الأخير (أبو مليونين)، إلا بعد أن أقلعت الطائرة بالبضاعة المشتراة. وقالوا له: اذهب لصرف الشيك ونلتقي الليلة لنسهر معًا في (المولان روج)[13] ، ثم أعطاه السيد/كومار ساعة رولكس مذهَّبة مع الشيك عربونًا لصداقة سوف تمتد لآخر العمر إن شاء الله..

صدقهم..

ولما ذهب إلى البنك لصرف الشيك وجد رصيدهم خاويًا إلا من أربعة فرنكات، وأسرع إلى توكيل الرولكس فقالوا له: إن الساعة هي الأخرى (مضروبة) ولكن بإتقان!

عمل الملاعين عملتهم وطاروا كاليمام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

40

لا تجيء سيرة الشيخ مصطفى السبكي على الألسنة إلا بالطيب، وأنا بالذات كنت معنيًا به أول شبابي وكثيرًا ما حدثتني نادية عن رعايته لها بعد أن تُوِّفي أبوها، وأن أمها لم تكن تقطع أمرًا إلا بمشورته.

كان مهيبًا بطلعته وعمامته وكتاب الله المحفوظ بصدره، ولم يكن يكف عن قول كلمة (يا ساتر) عند صعوده أو هبوطه على دَرَج العمارة كلما جاء لزيارتهما، وطالما طاف بخاطري أنه الرجل الذي سوف أتقدم له يوما طالبًا يد نادية فأزداد له إجلالًا وأقف لتحيته. يلحظ احتفائي به ولا يؤوِّله بالطبع للغرض الذي بنفسي ويجهله، ويلقاني بإيماءة رأس وبشاشة، لكن في الأيام الأخيرة التي سبقت رحيلي أنا وأمي بدأ بالميل بوجهه بعيدًا عني كلما التقينا، وكنت أشعر كما لو أن قلبه يتمتم طالبًا الستر مني!

هذا الرجل ودون قصد منه، أحد أسباب أزمتي..

فبعد أن ذاع حبي لنادية وعرف به، إلا وأصر على أن تدع هي وأمها الشقة وتأتيا للإقامة عنده بالعباسية. لم يقبل أن تتعلق بي واحدة من طرفه، بل وربما كانت تضجره مسألة الحب هذه! والكلام الفارغ الذي يتشبث به أمثالنا، وجاء هذا على هوى أمي، فقد كانت تبحث أيامها عن وسيلة تبعدني عن نادية، وأعطاها إياها الشيخ مصطفى..

ولم يكتف، زوَّجها على غير رغبة منها بابنه فؤاد الذي رحل.

ومن يومها تبدل حالي، وها هو يأخذها مني مرة ثانية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يمر بي طيفه متجهمًا، ويلوح معه طيف أمي عندما كانت تناور وتداور أيامها..

يثيران فيَّ الكمد ويذهبان..

وتقترب مني أم حسن حيث كنت أجلس على كنبة الصالة، تجلس إلى جانبي وبين يديها صينية على سطحها كومة من الأرز تقلب حباتها، أسألها أن تصعد معي لأعزي نادية فتدع ما بيدها قائلة:

- حَقَّه بقى آهو دا اللي ملوش لزمة! عزا الرجالة كان في الشعراني وإنت كتّ غايب، يبقي خلاص!

يلوح عليَّ غضب طفولي، وأنا أهم بالوقوف متجهًا إلى الباب وأقول: بأني سأذهب لوحدي، فتزيح صينية الأرز وتتلفت على طرحتها وحذائها ثم تلحق بي هازَّة سبابتها:

- بس هي دقيقة واحدة وننزل على طول.

ونصعد لنُفاجأ بأن الشيخ مصطفى هو الذي يفتح لنا الباب، وما إن رأيته حتى بوغتُّ ورجعت خطوة إلى الوراء، وقفت مرتبكًا قلقًا من ردة فعله.

فوجئ بي هو الآخر ثم بدأ يرمقني بتؤدة، وأظنه في هذه اللحظة كان يعمل بأقصى طاقته مفتشًا عني في الجانب الكئيب من ذاكرته، وأم حسن التي كانت تعمل ألف حساب لهذا الموقف في حرج، وتسعل وتندس بيننا كي تحول بصره إليها. كان يعرفها فأومأ لها برأسه مرحِّبًا، ثم أشار لها بيده بأن تتفضل بالدخول.

وتجاهلني..

واسترعت بصري عصاه وقبضة يده الممسكة بها، كانتا في وضع هجومي، ففكرت في أخذ خطوة ثانية إلى الوراء، ودفعتني الحيطة إلى الانتباه وأن أكون في أقصى درجات الحذر، فمن يدريني أنه لن ينزل على رأسي بهذه العصا.

عيناه تقولان إنه يعرفني، والتجهم هو نفس التجهم الذي رأيته منه أكثر من مرة، فأنا قليل الأدب الذي كان يشاغل ابنة أخته! وأنا السبب في تركهما الشقة أيامها! وها أنا لا أستحي وأدق على بابها بعد أن مات ابنه وخلا لي الجو..

وتدعمني أم حسن قائلة:

- دا الأستاذ جلال، ملحقش يعزي في الشعراني قام قال أطلع أعزي فوق.

قالت ذلك وأسرعت داخلة، ولم يعلق هو طفق يتأملني ثانية ثم استدار داخلًا، وأنا لا أعرف هل أتبعه أم أعود من حيث أتيت!

مضيت خلفه..

جلسنا زهاء ربع الساعة نرمق بعضنا البعض في صمت، إلا من هذه العبارات:

- شكر الله سعيكم..

- غفر الله ذنبكم..

- والأستاذ متجوز وللا خالي؟

لم أُرِح قلبه، هززت رأسي بما لا يفهم منه إن كنت هذا أو ذاك! وأخرج هو ساعة جيب من داخل جبته، وقربها من عينيه قائلًا:

- ياه! دا المغرب وجب.

فنظرت إلى ساعتي أنا الآخر..

وخفت أن يزداد تململه مني ويشوطني بالمطفأة التي أمامه، فنهضت وأسرع هو بَمدِّ يده بالسلام، ومعي إلى الباب وهو يقول: إنه في طريقه الآن إلى زاوية الشيخ خلف، فهل سأذهب معه للصلاة؟ أم أني لا أصلي مثلما يصلي الناس!

فقلت: طبعًا أصلي!

ويا فكيك..

لم أر نادية في هذا اليوم، أو حتى بعدها..

أخذها وفَلَّ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وغابت نادية..

غابت مخلفة سدة نَفَس ودقات قلب زائدة، وفي مرة من مرات شرودي أخرجت أم حسن خطابًا من عِبِّها وقدمته لي.

كان مجرد قصاصة ورق غير ممهورة أو لها تاريخ، ويبدو أنها كُتبت على عجل، غير أنها كانت بخط نادية الذي أعرفه وتقول لي:

جلال..

نادية التي كنت تعرفها لم تعد..

فابحث لنفسك عن طريق غير الطريق الذي أمضي فيه، فأنا الآن أمّ لم يعد يشغلها إلا ابنتها ريم، وامرأة زوجها في الممات أعز عليها مما كان في الحياة..

ناهيك عن خالي الشيخ مصطفى، فقد حرك صعودك لشقتنا أشياءَ بنفسه وبدأ في التلميح..

أقرأ الخطاب، وأم حسن تقول:

- أعمل إيه؟! شايفاك عشمان وتعبان، قلت أطلع لها تاني واسترجَّاها تريحك بكلمتين، علشان ترسى على بر وتشوف مصلحتك فين.

أسألها أن تدع لي الخطاب، فتخطفه من يدي:

- إلا دي! دي محلفاني أحرقه على طول بعد انت ما تقراه.

ألح عليها..

- يوه يا جلال!! عايزني أخسر ديني وأوقع الحلفان!

وتشعل عود ثقاب، والخطاب ينفرط عوده ويتلوى مع تموج النار. قِطَع منه تصعد في الهواء ثم تعاود السقوط على شكل ذرات ورماد، وما تبقى بيدها تلقيه بالمطفأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأذهب إلى أمي بعدها بأيام..

أصعد إليها بالطابق التاسع من فندق شبرد، حيث كانت تجلس هي وزوجها قبالة النيل. وجنتاها متوردتان عما كانتا عليه بباريس، ولأول مرة لا أشتمُّ رائحة الدخان تنبعث من فيها أو الثوب الذي ترتديه. والعم يعقوب يحكي عن الست أمينة التي كانت تعمل بمنزل والده صَرُّوف بك أبي السعد، وتجاوزت الآن الخامسة والثمانين.

- وأول ما دخلت عليها عرفتني على طول يا چاك – هكذا يسميني– ورحت أنا موطِّي وبايس إيديها الاتنين.

ويسرح ببصره:

- قعدت في بيت البابا أربعين سنة، وياما دارت عليَّه وعرفت عني حاجات أكتر من اللي تعرفها الماما!

ثم يقول لأمي:

- إيه رأيك لو نمد الزيارة أسبوع وللا اتنين كمان؟

فتقول براحة:

- ياريت..

وأعرف منها أنها والعم يعقوب سيسافران باكرًا إلى شرم الشيخ، وأن خالي إيزاك وصل من حيفا أول أمس وسبقهما هو وهارون إلى هناك. وتسأل عن

أم حسن، وأنها عازمة على زيارتها قبل أن تعود إلى باريس.

- ومش بس أم حسن، نفسي كمان أشوف الشارع والبيت وأتمرغ على السرير بتاعي زي زمان، وأِلِفّ على الجيران جارة جارة.

ولا تتذكر خالي شمعون طوال الجلسة، أو أنا أبلغتها بمرضه..

وعندما رجعت إلى البيت فرد لي أبو السعد أفندي خريطة لقطعة الأرض حصل عليها من (المساحة)، وأن مستشارهم (الشحات) عاينها ووجد تربتها رملية وتصلح لزراعة الخضراوات والفاكهة، وأن نصف المساحة تقريبًا مزروع الآن والنصف الآخر يلزمه استصلاح، ولو أخذنا الأمور بجِد لن يستغرق منا الأمر أكثر من ستة أشهر.

- بس يا بطل أنا عايزك ضروري بكرة تعمِلِّي توكيل، ونروح نقابل صاحب الأرض سوا ندفع العربون ونمضي العقد.

ففعلت ذلك في اليوم التالي..

ويومين بعدها واستأذنت من أم حسن وخالي شمعون للسفر إلى شرم الشيخ، لأرى ما تفعله جماعتنا هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

41

أول ما وصلت إلى شرم الشيخ اتجهت من فوري إلى خليج نعمة، وتحديدًا فندق (هلنان) حيث يقيمون..

وفي الصباح أخذوني معهم إلى موقع الكازينو الذي يشيدونه، حيث قضينا أغلب النهار تقريبًا نشاهد الخوازيق التي تُدق ومركبات نقل ضخمة تلقي بحمولات من الرمل والزلط ومستلزمات البناء. ولفت نظري إيزاك وهارون بالذات، كانا أكثرهم اهتمامًا وإبداءً للملاحظات، أما العم يعقوب فلكِبَر سنه أجلسوه على مقعد وأمي كل برهة تقدم له المرطبات.

ورجعنا..

كنا نستقل مركبة مؤجرة من ذوات الدفع الرباعي سائقها رجل بدوي ثرثار، العم يعقوب إلى جواره ببذلة سفاري، وأنا وأمي بالمقعد الأوسط والخال إيزاك ومعه هارون في المؤخرة.

قطع علينا هارون الصمت قائلًا: بأن الوقت لا يزال مبكرًا والفرصة سانحة اليوم لصعود هضبة أم السيد[14]، عرضت عليكم ذلك بالأمس، فقلتم: مجهدين، وتحججتم أول أمس بأن الليل دخل والأفضل بالنهار، فما رأيكم الآن؟

فوافقوا..

وصعدنا، لألمح على اليمين وبجوار مطلع الهضبة بنايات من عدة أدوار، نوافذها صغيرة وليست على الطِّرُز التي نألفها في المعمار، تحاذيها مساكن من دور واحد أشبه بالمساكن التي كانت تشيدها هيئة قناة السويس قديمًا لموظفيها بالإسماعيلية وبورسعيد. مرت عيناي عليها خطفًا وحدقوا هم فيها خاصة هارون، ويبدو أنه سمع من قبل بوجودها بل وربما هي سبب إلحاحه على الصعود.

ولاحظ السائق، فهدَّأ من سرعة المركبة قائلًا لهم: إنها مساكن أقربائكم، الأولى كانت للعسكر والثانية للضباط.

فسعلت أمي وتظاهر العم يعقوب بهش شيء حط على صدغه، وقال للسائق وطرف عينه يبحث عني في الوراء: تقصد أنها كانت مساكن للجنود الإسرائيليين، دعنا منهم ومما فات، وعلى أية حال هم ليسوا أقرباءنا كما تقول!

فلم يفهم السائق، وقال له: ألستمِ..

لم يدعه يكمل، رد عليه بضجر قائلًا: نعم.. لسنا..

ولحظة وقال له: وانظر أمامك لو سمحت وانتبه للطريق.

النذل هارون هو الذي استملح الحديث، طفق يسأل وأسئلته كلها تثير الضيق، والبدوي العبيط وراءه وكلام في كلام إلى أن قال: وليس هذا فقط يا أستاذ هارون، لا تزال هناك جبَّانة للعساكر اليهود في منطقة الميناء، ومعبد كانوا يصلون فيه.

فيرد هارون: جبانة ومعبد!

والبدوي يضيف بأنه يوجد أيضًا بين (طابا) و(دهب) نُصُب تذكاري للمهندس الإسرائيلي الذي أنشأ هذا الطريق.

وأمي تعاود السعال وتحاول تغيير الموضوع، والعم يعقوب زاد ضجره وينادي على خالي إيزاك: يا إيزاك! يا إيزاك!

ففهم إيزاك ويبدو أنه زغد هارون زغدة أسكتته، والسائق لم يفهم إلى الآن ولا يزال مستمرًا في الكلام، فنقرت على رأسه من الوراء راجيًا منه إعادة لسانه إلى فمه والسكوت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذنا جولة فوق الهضبة، نزلنا بعدها من المركبة نتأمل شرم الشيخ من أعلى.. العم يعقوب يشكو من الصداع فلم يشأ الانضمام إلينا، وهارون وإيزاك انتحيا جانبًا، وأنا أتقدم أكثر نحو الحافة وأمي بفستانها الليموني ونظارتها الشمسية المرفوعة فوق الرأس تنادي عليَّ كي أرجع ولا أبتعد هكذا.

المشهد من أعلى يريح النظر..

جبال وهضاب وخلجان، وموج يتكسر على الشاطئ برغوة تبقى ولا تعود مع الماء المنحسر. وبحر (القلزم) هائل يقظ وسيناء كلها بين ذراعيه، وفوقنا فضاء جبار وسحب البعيد منها في أطراف السماء بلون رمادي، والقريب من قرص الشمس الآفل أخذ منه لونه القاني. وجزيرة (تيران) في طرف، وهناك على الطرف الآخر وإن كنت لا أراها من موضعي جزيرة (شدوان)، التي طالما نبضت قلوبنا ونحن نسمع بنشرات الأخبار عما وقع بها في حرب سبعة وستين.

وبين هذه الطبيعة البِكْر والحسن والجمال، دنيا أخرى تخرج من رحم الغيب، طرق تنشأ وأساسات توضع، لاستراحات ونُزلٍ ودُور لهو وقمار. بلدوزرات تمرح ورمل وإسمنت وأسياخ حديد وبشر بثياب العمل يملئون المكان وحتى

مسافات، ومنهم من كان يبدو لي من مكاني الذي أقف فيه وكأنه بحجم حرف الألف على القرطاس.

بدت شرم الشيخ وكأنها صبية بدوية بحسنها وعبلها وخلقتها التي خلقها عليها الله، ويشرعون الآن في فض بكارتها بما يسمونه يد العمران.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يكتف هارون..

أصر على رؤية الجبانة والمعبد، فذهبنا إلى منطقة الميناء..

بالفعل جبانة مصمتة ومغطاة برقائق من المعدن، تطوع أحد الواقفين بالقرب منها وقال لنا: إنها كانت مخصصة لتجهيز جثث الجند الغزاة كلما لاحقهم مَلَك الموت على أرض سيناء، وعلى مرمى حجر منها معبد للصلاة من دورين، نوافذه مغلقة بقضبان من حديد، والاثنان –الجبانة والمعبد– مجرد بقايا وأثر لا أكثر من ذلك ولا أقل..

وأقول لنفسي: أكيد لم نرغب قط في بقاء هذا الأثر، وإنما هي السياسة وملاحق الاتفاقات!! وشيء يسعد أمثال هارون لو مروا يومًا من هنا، ويذكِّر بغفلة كانت وسوء حال..

أتركهم متجهين إلى السوق القديم في معية العم يعقوب، ليرتبوا لرحلة في الصحراء أو ما يسمونه هنا بسفاري الجمال.

وتعفُّ نفسي عن البقاء، فأسوِّي حسابي بالفندق وألحق بباص المساء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

42

هبط علينا مَلَك الموت، وأبى أن يرحل إلا وفي يده الخال شمعون..

كنا نتناول العشاء وأردفنا بأقداح الشاي، ثم طفقنا نشاهد فيلم (ردّ قلبي) وأم حسن تغفو ثم تنتبه، وتسأل عما فعله سمو (البرنس) في حق (إنچي وعلي).. ولا ندري بأن ضيفًا فتح علينا الباب، ومكث يرمق خالي من حيث لا نراه.

وعندما فرغ الفيلم سألني الخال أن أبتاع له نسخة منه هو وفيلم (بين الأطلال)، ثم تثاءب قائلًا:

- القعدة حلوة، ومعدش عالسفر غير يومين!

فسألته أم حسن، أن يبقى معنا أسبوعًا آخر؟

- ياريت يا حاجة ياريت، الأجازة خلصت خلاص والسنة الجاية وعليكي خير هعمل حسابي على شهر بحاله.

- تنور وتآنس يا سي شمعون، وإن كان فيه عمر ونصيب هتلاقيني قاعدة مستنياك.

ودخلت أنا إلى الغرفة لأصلي العشاء، وتركته يعبث في علبة الثقاب ويتهيأ لإشعال لفافة تبغ. لم أكمل الصلاة، خرجت على صياح أم حسن، لأجد الخال قد مالت عنقه إلى أسفل، ولفافة التبغ لا تزال مشتعلة وسقطت على صدر الجلباب، فأسرعت إليه وهي ورائي بكوب ماء، وصعد إلينا أبو السعد أفندي مسرعًا.

لم يُجْدِ صياحنا عليه ولا تقليبنا فيه أو أي شيء نفعله، فلم تكن مجرد نوبة كما حسبنا، السر الإلهي كان قد خرج ونحن نتخبط ما بين الجزع والرجاء.

وانتحت أم حسن تبكيه كما لو أنه ولدها، وأنا وأبو السعد أفندي شلنا الموت ونحدق في بعضنا البعض، وبعد أن أفقنا من بَغْتة الحدث، ضغط أبو السعد أفندي على معصمي قائلًا:

- شد حيلك يا جلال وإكرام الميت دفنه.

فشردت بعيني:

- يعني قصدك..

- أيوه طبعًا! مش عم زكي كان له تربة هنا؟

فتقاطعنا أم حسن:

- أيوه يا خويا ليهم حوش في البساتين، وكُتّ بسمع زمان من الست إيڤون إن الحوش بتاعهم كتف بكتف مع حوش الخواجة سمعان، إنت بس تروح هناك وتزعق وتقول فين حوش سمعان وهتلاقيه جنبه على طول.

لم يَرُقْ لأبي السعد أفندي هذا الوصف غير أنه لم يعلق، قال لي:

- إبتدي إنت بس وخد رأي الست والدتك، مش بتقول إنها هنا؟ وأنا من الفجرية هطلّع التصريح وأجيب لك قرار الحوش.

فتسألني أم حسن بدهشة:

- هي كاميليا هنا؟ هنا فين!

وتبدأ في التحقيق معي..

ويمضي الأمر بعدها بأيسر مما أتوقع، جاء التصريح واستدل أبو السعد أفندي على موقع الحوش ولم تمانع أمي ولا العم يعقوب أو سارة زوجة خالي من دفنه بمصر، أما هارون وخالي إيزاك فلم ندخلهما في حساباتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقمنا ليلة العزاء بالشقة..

وقد أردت الاكتفاء بشرائط القرآن، غير أن أبا السعد أفندي اعترض:

- شرايط! شرايط إيه يا راجل يا طيب! إنت عايز الليلة تبقى فطيس، لازم مقرئ.

وأعقبته أم حسن:

- دا غير اللي هيقرا للستات، وإلا هيدور الرغي ويوجعوا دماغي!

وعلى غير ما توقعت أقبل الناس، وكان أبو السعد أفندي صاحب الليلة تقريبًا.. عيناه على من يدخل ويخرج ومن يقدمون الطلبات، وكلما هممت بالمشاركة يشير لي بأن أدعه وألزم مكاني، ويدور بعلبة الدخان على المُعزِّين وشفتاه لا تتوقفان عن التمتمة، ومن يجيبه قائلًا: غفر الله ذنبكم، أو يكتفي بالتربيت على صدره ومعها إيماءة رأس.

وكالعادة لم يخلُ المكان من الهمس، خاصة من كبار السن الذين كانوا يعرفون خالي في صباه. كانت تلوح لهم فجأة بعض ذكرياتهم معه، فيتفلون بها في آذان من يجلسون إلى جوارهم، وبعضهم كان يخلي بها في صدره

لتكون مادة للحديث بعد العزاء. ومن لا يربطهم بنا رباط وثيق وأتوا من باب المجاملة أو إشباعًا للفضول، كان الأمر يبدو لهم غريبًا، فما هذا الذي يرونه؟ الميت يهودي والعزاء عزاء مسلمين!

الذي كدر علينا الجلسة ولكن في أولها فقط الضجيج القادم من (كاڤيتريا مرجان)، فهي على مقربة منا وجلبتها كانت تخرم الآذان، غير أن المقرئ بارك الله فيه تسلطن في التلاوة وغلب القهوة وسحب البساط من تحت أقدامها.

كان كفيفًا وصوته مؤثرًا ناهيك عن وقفاته المتقنة، العيب الذي فيه أنه كان كثير النحنحة ويغضب إذا تأخروا عليه بأقداح الينسون، حتى إن أبا السعد أفندي أوعز لصبي بأن يقف خصيصًا لخدمته، ولم يكف عن الثناء عليه والشيخ يبحث عن مصدر الصوت ويومئ برأسه ممتنًا.

العم يعقوب كان يجلس إلى جواري، ويهم بالوقوف ومد يده بالسلام كلما أقبلت طائفة من المعزين، والرذل هارون قبالتنا وبجانبه مجدي ابن المعلم حبيب. ولم يمد أحد يده للقهوة التي تمر فوق الصواني اللهم إلا مرات قليلة، وعندما قُدمت لهارون عافتها نفسه وطلب زجاجة (سڤن أب)، فتلفت الساقي على أبي السعد أفندي مرتبكًا وأسر له بطلب هارون، فأسرع إليه ومال على أذنه حانقًا:

- سڤن إيه وهباب إيه يا جدع إنت، مش تختشي!

ورمقني قائلًا:

- دا ناقص يطلب مهلبية وللا آيس كريم!

كان العم يعقوب يتابع ما يجري، فزغر بضجر إلى هارون كي يحترم نفسه أو يغادر المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم تقصر النسوة..

أتين إكرامًا لأم حسن فاستقبلتهن بشقتها القديمة، ومقرئ آخر بناءً على طلبها يتلو القرآن. والأمور تمضي في سيرها الطبيعي اللهم إلا الصغائر واللَّمَم، همهمة لكنها عالية حبتين، واحدة (تودود) في أذن أختها، أو من تخفي ضحكة بكف يدها أو تذهب (عَمَّال على بطَّال) إلى الحمام.

وأم حسن راعية الجلسة لا يزال بيدها زمام السيطرة، وتنبه بأدب أو تشير بإصبعها إلى الشيخ الذي يقرأ وأن الشرع يأمرنا بالإنصات. والست نظيرة

زوجة أبي السعد أفندي تدعمها، تلعب الدور ذاته الذي يلعبه زوجها بشقة الرجال، ورغم الشحم واللحم والدوالي التي تسرح على الساقين لم تتوقف المسكينة عن خدمة المعزيات، أو مد الشيخ بأقداح الحلبة الـحَصَى.

لم يتدهور الموقف إلا عندما طبت أمي..

فوجئت بها أم حسن والجارات اللائي لا يزلن يذكرنها، فقمن إليها يتكفَّأن والدهشة تعلو وجوههن، وبدأت الأحضان والقبلات واختلط الدمع بكلمات الاشتياق، وكل تشدها من يدها مصرة أن تجلسها إلى جوارها، إلا أنها آثرت القعود بجانب أم حسن.

وتوقف المقرئ -طبعًا- عن تلاوة القرآن، حدق فيهن مقلبًا كفًّا بكف ويتمتم بشفتيه: بأنهن فعلًا ناقصات عقل ودين! بل وحتى النسوة اللائي لم يسمعن بأمي من قبل، هببن للسلام عليها وليس باليد فقط وإنما بالحضن والقبلات، وعندما رجعن إلى أماكنهن لم يطقن الانتظار، كن مصممات على تقصِّي الخبر ومعرفة حكاية أمي في التوِّ واللحظة ومن الألف للياء.

ساد الهرج ومكثت النسوة زهاء الساعة دون ضابط أو سيطرة، بعدما تركت أم حسن الدفة وانغمست هي الأخرى في طقوس الترحيب، والمقرئ أصابه الإحباط ويرمقهن بضجر، لاعنًا حظه الذي أوقعه بين هؤلاء النسوة الخائبات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

43

لم تمكث أمي طويلًا..

بعد أن انصرفت النسوة صعدت إلى شقتها القديمة تتحسسها بعينيها، حتى حوض المطبخ وقفت تتأمله وفتحت صنبوره ثم أغلقته، وكان البرواز الذي يحمل صورة جدي زكي يميل قليلًا نحو اليسار، أعادته بلمسة من أناملها إلى وضعه الصحيح، وقبل أن تغادرنا جمعت ما تبقى من آثارها..

أشياء لا تُذكر.. مرآة بحجم الكف، مكحلة للعين، ساعة يد لا عقارب فيها أو عادت تصلح، وعندما ضمت إليها جراب نظارة خاويًا يخص جدي، سحبته برفق من يدها ونحيته جانبًا. وكانت لنا صورة معًا بالأبيض والأسود أسفل زجاج التسريحة، هي بثوب بلا أكمام وأنا في حجرها، فعلت المستحيل لتخرجها من موضعها غير أن الصورة أبت، فبفعل الزمن أمسكت بالزجاج وصارا كُلًّا واحدًا.

كانت تبدو لي في هذه اللحظات الأم التي عرفتها في الصغر، وليست الأم التي ساقتها الدنيا إلى العم يعقوب ولبلد غير البلد، ويكاد يجمح بي الظن وأسألها البقاء معي لولا ذرة عقل أمسكت بلساني.

ولم أملك نفسي عندما وقفت تودعني، انفجرت مرة واحدة في البكاء..

هل للكآبة التي كنا بها إثر وفاة الخال، أم لقاؤنا أنا وهي ثانية في شقة زمان وأبكي هذا الزمان، أم الأمر أبسط من ذلك، مجرد دفقة عاطفة في لحظة وداع وسرعان ما تزول؟

وإن كان هذا الأخير، فلماذا كل هذه الحرقة في البكاء؟ ومن أين تأتي سَدَة النفس هذه، والإحساس بالفقد والإحباط؟

بل وقلبي نهَّاز الفرص الشكَّاك يكاد يدخل بي من جديد في عالم السؤال، ولو كان كذا لكان كذا ولو لم يكن هذا الشيء لما وقع الشيء الآخر، ويلوك في مُسلَّمات وأسئلة بغير إجابات..

كنت أبكي وألوذ بها ولا أدري أن حالها هي الأخرى ليس أفضل من حالي، وتبادلني دمعًا بدمع وتقول وصوتها مخنوق بالبكاء:

- زي ما يكون الزمن دار بيَّه وشايفاك قدامي دلوقتي وإنت بتزحف على إيد ورجل وجاي جري عليَّه، وللا أول يوم رحت فيه المدرسة ماسك في إيد جدك زكي وأنا من البلكونة ببص عليك.

وتتقدم خطوة نحو الباب، وتقول ورعشة تسري بشفتيها:

- يبقى زور خالك شمعون ماتفوتوش لوحده..

وتطيش عيناها وتهم ثانية بالكلام غير أنها لا تبدأ، يغلبها الدمع فتقترب منها أم حسن مخففة:

- فضونا من الكلام اللي يوجع القلب ويللا يللا الحقي جوزك اللي مستني تحت وخَوِتْنا بزمارته، وإنت يا حبيبي بتبكي ليه؟

وتربت على كتفي:

- دنيتك حلوة إن شاء الله، الأرض اللي كانت شغلاك آديك حطيت إيدك عليها خلاص، والعروسة جاهزة بس إنت تشاور، وقول يا رب واتكل عليه.

وتقول أمي: إنها ستسافر في طائرة الفجر إلى باريس، فهل سوف ألحق بها؟

أجيبها بصوت خافت: إن شاء الله..

فتحتج أم حسن:

- سفر إيه تاني! ومصالحك اللي هنا؟

فأقول لها هي الأخرى: إن شاء الله..

وأحاول اصطحاب أمي حتى باب السيارة، غير أنها تثنيني كي لا يراني زوجها يعقوب دامعًا وعلى هذه الهيئة، وبعد أن هبطت أول سلمة على الدَّرَج استدارت إلينا قائلة:

- قُتُّـكم بعافية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن الشرفة تابعناها..

الليل يومها كان قد أوغل وخفت الحركة، بالكاد يمضي أمامنا رجل وطيف بعيد ينسلُّ خارجًا من أحد الأبواب، ومركبة فالثانية وأمي وراءهما تشير لنا من نافذة السيارة حتى واراها الشارع.

الدكاكين موصدة، وهلال صبي محل العطارة يدفع ببطن حذائه قفل الباب الخارجي حتى أغلقه، وحسن إلى جواره يتمطى متثائبًا ويده تتلقى سلسلة المفاتيح. كاڤتيريا مرجان هي وحدها التي لم تنم، حفنة رجال على مقاعد

متناثرة فوق الطوار وأم كلثوم تصدح لهم ولنا بالأطلال. يخايلني الشدو كأنه حقيقة، وأم حسن بجانبي محنية على الدرابزين وتشغلني بحديثها:

- اسم الله عليها هديل حلوة ومدَّورة وصلاة النبي معاها شهادة، إنت كسلان كده ليه؟

أرمقها صامتًا فلا يروق لها ذلك، وتتغير نبرتها:

- بصراحة بقى أمها لمَّحت لي وأنا محروجة، ملكش غرض رسِّيني من دلوقتي.

أرنو بعيني نحو الأفق..

أخال نادية..

ولحظات زمن عشناها من قبل، أعيشها مرة ثانية..

ويصل حسن إلى باب العمارة، وأمه من أعلى تدقق فيه وتسألني:

- مش برضه الواد حسن ده اللي داخل من الباب؟

لا أنتبه لها..

- مالك؟ سرحان في إيه؟ في الست والدتك؟ مسيرك تشوفها وتشوفك..

ويشغلنا أبو السعد أفندي، يطل بمنامته من النافذة راجيًا صِبْيَة مرجان أن يرحموه ويخفضوا صوت المذياع، فتقول أم حسن:

- معذور! بنته هديل تعبانة وعايزة ترتاح، بتصحى من نجمة ويا حبة عيني على شغلها.

وكان لأبي السعد أفندي ما أراد، وارتاحت هديل..

فلم يخفض الصبية صوت المذياع فقط، أغلقوه كلية على أنين (الست) وهي تقول:

كيف ذاك الحب أمسى خبرًا..

وحديثًا من أحاديث الجوى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

صدر للمؤلف

أولًا: الأعمال الأدبية:

- لقمة العيش: مجموعة قصصية/الطبعة الأولى، دار النسر الذهبي، سنة 1994/الطبعة الثانية، دار النيل، سنة 2005/الطبعة الثالثة، دار سفنكس، سنة 2011/وقد فازت قصتان من هذه المجموعة بالجائزة الأولى لنادي القصة، عامي 1997، 1998.

- المسْلم اليهُودي: رواية/ الطبعة الأولى، دار النيل، سنة 2004/الطبعة الثانية، دار سفنكس، سنة 2009/الطبعة الثالثة، دار العين، سنة 2020/ وقد نالت هذه الرواية جائزة الدولة التشجيعية سنة 2005، كما صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2013، بعنوان:

(Diary of a Jewish Muslim).

وقد نَفَدت هذه الطبعة وأعيد نشرها في طبعة جديدة سنة 2018، ضمن سلسلة (Hoopoe) الصادرة من الجامعة الأمريكية.

كذلك ترجمت الرواية إلى اللغة الألمانية، ونشرتها دار فيلتن (WELTEN) سنة 2017، وعنونت باسم

(ErschöpfteHerzen-Der Muslimische Jude).

- أيام الشتات: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2008/الطبعة الثانية، دار العين، سنة 2021/ وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2012، بعنوان:

(Days in the Diaspora).

- أحلام العودة: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2012/وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2017، بعنوان:

(Menorahs and Minarets).

- المليجي: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2014.

- أيام لا تُنسى: رواية/الطبعة الأولى، دار العين، سنة 2018.

- قهوة حبشي: رواية/ الطبعة الأولى، دار العين، سنة 2019.

ثانيًا: الأعمال القانونية:

- السلطة في الفكرين الإسلامي والماركسي: دار النهضة العربية، سنة 1986. وقد حصل هذا المؤلَّف على جائزة أفضل بحث قُدم لكلية الحقوق/ جامعة القاهرة/ عام 1987.

- النظم السياسية والقانون الدستورى: مطبوعات جامعية، سنة 2001.

- القانون الإداري: مطبوعات جامعية، سنة 2001.

- المدخل للعلوم القانونية: مطبوعات جامعية، سنة 2002.

- الإدارة العامة: مطبوعات جامعية، سنة 2002.

- الأساليب الدولية لمكافحة التهريب والاتجار غير المشروع فى المواد المخدرة: مطبوعات جامعية، سنة 1995.

ثالثًا: ما كتب عن المؤلف:

- اللذة والمتعة/قرأة في سرد كمال رُحيَّم، دراسة نقدية للدكتور محمد علي سلامة: دار العين، سنة 2019.

- تقنيات السرد الروائي عند كمال رُحيَّم (روايات أيام الشتات وأحلام العودة والمليجي نموذجًا): رسالة ماچيستير بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأقصى/فلسطين/سنة 2016.

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..
إهداءٌ خاص
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23

24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
صدر للمؤلف
الفهرس..

Notes

[←1]

أحد شيوخ اليهود.

[←2]

بل وإجبارها على الهبوط عنوة بمطار (سيكونيلا) العسكري بجزيرة صقلية، وتفتيشها والقبض على أربعة من ركابها الفلسطينيين من مجموعة (أبو العباس)، اتهمتهم الحكومة الأمريكية باختطاف السفينة الإيطالية (أكيلي لاورو) في السابع من أكتوبر سنة 1985، وقتل أحد رعاياها ممن كانوا على متنها.

[3←] *أثري ومؤرخ (1851م - 1923م)، ويعد أول مؤرخ مصري يكتب في الحضارة الفرعونية كتابة علمية دقيقة.*

[4←] *أثري ومؤرخ (1886م - 1961م)، وهو صاحب أحمد باشا كمال وتلميذه، وله اكتشافات أثرية ومؤلفات وتراجم بالغة الأهمية.*

[←5]

عملة فرنسية توازي القرش عندنا.

[←6]

جمعية مقرها باريس تضم يهود الإسكندرية الذين هاجروا إلى فرنسا واستوطنوا بها، وهي ذات طابع اجتماعي محض وتهدف إلى رعاية مصالح هؤلاء اليهود والتقريب بينهم والتعبير عنهم لدى الحكومة وفي المنتديات المختلفة.

[←7]

هذا الشمعدان نموذج للشمعدان الذي طالما ظهر في التراث اليهودي، على شكل كأس تتفرع منه سبعة أعمدة تجلل رؤوسها رسوم وورود، ويقال إنه يرمز إلى أيام الخلق الستة مضافًا إليها يوم السبت (يوم راحة الخالق)، كما قيل بأن شعلاته السبع هي أعين الإله الجائلة في الأرض، بل ويقال أيضًا إنه يرمز إلى رجوع اليهود إلى وطنهم الحقيقي بعد هجرة وشتات طويلين..

[8←]

لكون القمار جزءًا من الحضارة الإنسانية حسبما يقول دعاته ومروجوه، نشأت فكرة تدعو إلى إنشاء فنادق يقتصر روادها على لاعبيه فقط ممن يقدرون على الإنفاق ببذخ على هذه الآفة وما يرون فيها من متعة، وتضم هذه الفنادق فضلًا عن قاعات اللعب والتي هي بيت القصيد من إنشائها، غرفًا وأسرة ودُور لهو وراحة للاعبين بعد أن يفرغوا من اللعب أو بين دوراته، وأشهرها قاطبة فندق (وايلد وايلد ويست) بلاس فيجاس وبعض فنادق مونت كارلو.

حي من الأحياء الفقيرة بباريس. [←9]

[←10]

هي معبد الطبيب والفيلسوف (موسى بن ميمون) بدرب محمود والذي دفن فيه سنة 1204م قبل نقل جثمانه إلى طبرية بفلسطين، ومعبد (حاييم كابوسي) بدرب نصير الذي اعتاد اليهود زيارته في عيد الغفران، ومدرسة لتعليم الشعائر اليهودية بشارع الصقالبة، وكافة هذه المعالم انقطع عنها اليهود الآن، وصارت في حكم الأثر وذمة التاريخ.

[←11]

الأشكيناز طائفة من اليهود أتت إلينا من أوروبا هربًا من الاضطهاد، وقد نظروا إلى مصر ليس كموطن للهجرة النهائية بقدر ما هي محطة للوصول إلى فلسطين. ومن هنا لم يحاولوا تعلم اللغة العربية أو الاندماج في النسيج المصري، وكانت أكثريتهم تتعاطف مع الحركة الصهيونية على اعتبار أنها السبيل الذي يمهد لهم الاستقرار بصفة نهائية بفلسطين.

[←12]
القرائين ليسوا مجرد طائفة عرقية كالأشكيناز أو السفارديم، وإنما هم طائفة لها أحكامها الدينية الخاصة.

أحد الملاهي الشهيرة بحي بيجال. [←13]

[14←]
هضبة كبيرة بكردون مدينة شرم الشيخ، مستوية من أعلى ومقام عليها أبنية للسكنى كهضبة المقطم بالقاهرة.